سلسلة علم الاجتماع المعاصر
الكتاب الثانى والخمسون

التغير الاجتماعى

اختيار وترجمة

دكتور محمد الجوهرى
دكتورة علياء شكرى
دكتور على ليلة

الطبعة الأولى

١٩٨٢



الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ج٠م٠ع

فهرس المحتويات

الصفحة

المقدمـــة
التغير الاجتماعى ودراسة المستقبل

يمثل التغير الاجتماعى فصلا ختاميا مختصرا فى نهاية كتب المدخـل فى علم الاجتماع فى اللغات والثقافات المختلفة ، فبعد أن يتعرض المؤلف لتاريخ العلم ، وموضـوعه ، وأبوابه ، وقضاياه ، يختتم هـذا العرض بالاشارة الى موضوع التغير الذى يطرأ على هـذه الجوانب من حياة المجتمع ، دون أن يولى هذا الجانب الهام من الموضوع ما يستحقه مـن التفصيل والاهتمام ٠

ولعل هذا هو السبب الذى دفعنا الى محاولة تجنب أوجه النقص والقصور فى كتب المدخل فى علم الاجتماع ، وذلك بأن نخصص كتابا بأكمله لدراسة موضوع التغير الاجتماعى وقضاياه ومشكلاته ٠ ولا ندعى أن فصول هذا الكتاب قد أوفت هـذا الموضوع حقه ، أو قدمت تغطية مقبولة لأهم تلك القضايا والمشكلات ، ولكننا نعده بداية أولية ، ومحاولة قابلة لأن تنمـو وتتطور لكى نقترب من الصـورة التى نتمناها لمعالجـة هـذا الموضوع الهام ٠

ومن الموضوعات التى تركز عليها دراسات التغير الاجتماعى عادة أن نحرص على رصـد وقياس التغيرات التى تطرأ على مجتمع معين عبر فترة زمنية محددة ٠ وتبدو تلك التغيرات فى مدى ، وفى شكل ، ومضمون هذا النسق الاجتماعى المدروس أو فى علاقته مـع الأنسـاق الاجتماعية الأخرى ٠ ولكن تلك الدراسات قد لا تمتد بنظرتها لكى تدقق الرؤية فى امتداد تلك التغيرات الماضية عبر المستقبل ، أعنى تأمل مستقبل هـذا النسـق الاجتماعى فى ضوء اتجاهات التغير فيه التى تمت وتحققت فى المـاضى بالفعل ٠

وعلى هذا تصبح دراسة المستقبل لدى رجل الاجتماع هى الوجـه الآخر لاهتمامه بحركة المجتمع فى المـاضى ، أى لاهتمامه بدراسة التغير الاجتماعى ٠ وسنحاول فى هذه المقدمة السريعة أن نلفت النظر الى أبرز

اتجاهات **التغير فى المستقبل** التى يمكن أن نستوحيها من دراســة اتجاهات **التغير فى المــاضى** •

رؤية التغير الاجتماعى فى الاطار النظرى :

يدلنا استعراض دراسات التغير الاجتماعى على أن هذا التغير قد يكون تلقائيا أو مخططا ، تدريجيا أو ثوريا ، خطيا (مضطردا فى خط متصل) أو دائريا • كما أن هذا التغير الاجتماعى قد يكون قصير المــدى ؛ أى تتحقق آثاره ومظاهره فى خلال مدى زمنى قصير ، وقد يكون طويل المــدى • وسوف نعتبر فى عرضنا التالى أن تلك التغيرات الطويلة المدى هى تلك التى تمت عبر فترة زمنية تبلغ قرنا من الزمان ، أى منذ مائة عام مضت وحتى اليوم •

كما أن التغيرات الاجتماعية التى تصيب أى مجتمع قد تعد نافعة وايجابية فى جوهرها ، وتوصف حينئذ بأنها تقدم ، كما قد تكون سلبية وضارة فى طابعها العام ، وتوصف حينئذ بأنها نكوص أو تدهور • وقــد تعد نفس التغيرات سلبية من وجهة نظر معينة ؛ وايجابية من وجهة نظر أخرى • فتحلل النظام الاقطاعى أو الرأسمالى يعد تطورا ايجابيا من وجهة نظر اشتراكية ترى أن ذلك خطوة نحــو تحــول المجتمع الى المرحلــة الاشتراكية ، وهكــذا •

ولكن المهم على أى حال أن كل مجتمع ــ صغيرا كان أو كبيرا ــ يميل الى الحــكم على تاريخه باحدى هاتين الطريقتين فى التقدير • فاما أن يعتبر التغير الاجتماعى الحادث عبارة عن نمو متصل نحــو مستقبل سيكون أفضل من أى مرحلة فى تاريخ هذا المجتمع ، أو أنه يحــكم على ذلك التغير الذى يتحقق أمامه بأنه يمثل تدهورا متصلا لمــاض ذهبى مضى وانقضى ولا سبيل الى أن يعود مرة أخرى • ودراسة علم الاجتماع تقدم لنا عشرات ــ بل مئات ــ القرائن على وجود النظريتين الى التغير الاجتماعى فى الحــكم على كثير من الظواهر ، فالتحضر الذى يكتسح عالم القرن العشرين هــو فى نظر البعض تقدم مضطرد ، وهــو فى حــكم البعض الآخر تدهور لمجتمع القرية أو مجتمع العلاقات الشخصية المباشرة الذى

كان قائما فى الماضى ، ولا سبيل الى استعادته أو تحققه مرة أخرى فى ظل مجتمع المدينة الضخم المعقد الجديد الآخذ فى النمو بلا هوادة [١] .

كذلك يدلنا استعراض نظريات التغير الاجتماعى التى قدمها الفلاسفة الاجتماعيون الغربيون ، والتى استعرضها استعراضا شاملا وافيا العلامة نيسبت Nisbet ، أن نظريات التقدم الاجتماعى كانت تسود فى فترات تاريخية معينة ، وتسيطر على آراء المفكرين ، على حين أن نظريات التدهور والانحطاط كانت هى المسيطرة على فكر هؤلاء فى فترات تاريخية أخرى .

فاذا ركزنا رؤيتنا على آراء الفلاسفة الاجتماعيين فى منتصف القرن التاسع عشر فى أوربا ، وهى الفترة التى شهدت مولد علم الاجتماع الحديث ، فاننا سنجد بوضوح أن الفكر المتفائل المؤمن ايمانا مطلقا بالتقدم هو المزاج المسيطر على فكر أغلب الفلاسفة والعلماء الاجتماعيين . وكان أوجست كونت ، وكارل ماركس ، وهوبرت سبنسر يؤمنون جميعا — على اختلاف اتجاهاتهم ومواقعهم الفكرية المعروفة — « أن تاريخ الغرب المعاصر يمكن أن يعد شاهدا على الاتجاه الذى تتحرك نحوه البشرية ككل ، والذى سوف تستمر متجهة نحوه فى المستقبل أيضا » [٢] .

أما فى القرن العشرين فقد تعرضت فكرة التقدم لكثير من التحديات وواجهت كثيرا من العثرات ، ولكنها مازالت فى رأى نيسبت ، وفى رأى كثيرين غيره ، مستمرة على نحو أو آخر وبدرجات متفاوتة فى فكر بعض المفكرين الاجتماعيين .

وقد حاول كابلو فى كتابه المذكور أن يربط بطريقة طريفة بين نظريات التقدم الحتمى ونظريات التدهور الحتمى ، حيث يشير الى أن النظرية

---

(١) انظر محمد الجوهرى وعلياء شكرى ، علم الاجتماع الريفى والحضرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٠ ، الفصل السادس بعنوان : « ظاهرة التحضر بين الادانة والتمجيد » ، ص ص ٣٠٧ — ٣١٨ .

(2) Theodore Caplow, Elementary Sociology, Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1971, Ch. No. 13, «Social Change», pp. 624 ff.

وقد اعتمدت على هذا الفصل فى عرض فكرة اتجاهات التطور الاجتماعى واسقاطها على المستقبل ، وابراز اهم تلك الاتجاهات .

الماركسية الرسمية التى تدرس فى الاتحاد السوفيتى وسائر البلاد الاشتراكية تنطوى على نظرية تؤمن بالتقدم الحتمى للمجتمعات الاشتراكية وتدهور حتمى أيضا للمجتمعات الرأسمالية . هذا على حين نجد أن المذهب الصينى فى الماركسية يرى أن التقدم لن يكون حتميا ومؤكدا الا بالنسبة لتلك المجتمعات الاشتراكية القائمة على « الالتزام بالخطوط الماركسية الصحيحة » (١) .

ورغم كل مايقال فاننا نستطيع أن نسجل اليوم بوضوح أن الايمان بحتمية التقدم الاجتماعى أصبح اليوم أضعف مما كان عليه منذ بضعة عقود مضت . ذلك أن المآسى الرهيبة والمذابح البشعة التى ارتكبها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية ، والتى ارتكبتها وترتكبها اسرائيل منذ انشائها ، قد ألقت ظلالا كثيفة من الشك على العلاقة بين التقدم التكنولوجى والتقدم الأخلاقى والروحى ، وهى علاقة كانت موضع تسليم أغلب المفكرين الاجتماعيين فى الغرب منذ عصر النهضة وحتى العقد الأول من القرن العشرين (قبل نشوب الحرب العالمية الأولى) . فحتى جيلين فقط مضيا كان كافة مثقفى الغرب يؤمنون ايمانا راسخا أن حركة التغير الاجتماعى ليست سوى ارتقاء وتقدم متصل من مراحل بربرية الى آفاق حضارية أرقى وأرقى باستمرار . غير أن الأحداث العسكرية والسياسية التى شهدها القرن العشرون قد أضعفت كثيرا هذا الايمان الراسخ بحتمية التقدم الاجتماعى .

واللافت للنظر حقا أن الأمر لم يقتصر على تناقص وضعف الثقة فى الايمان بحتمية التقدم ، وانما الملاحظ أن تلك الحتمية أصبحت معلقة على شروط وظروف معينة ، خاصة منذ تطوير الأسلحة النووية بهذه المستويات المرعبة . ومع ذلك فما زال هناك نفر قليل من المفكرين المتفائلين الذين يرون أن الأمور سوف تسير الى الأحسن باستمرار بعد أن أثبتت التطورات الحديثة فى الأسلحة النووية حماقة وعبث استخدام تلك الأسلحة فى مواجهة عسكرية شاملة بين المعسكرين الكبيرين ، على أساس

---

(١) انظر ، كابلو ، المرجع السابق ، صفحة ٦٢٦ .

أن مواجهة كهذه لن تدع غالبا ومغلوبا فى نهاية الأمر [١] ولكن لاشـك أنه يتعين على أغلب الذين يحاولون التنبؤ بمستقبل التغير الاجتماعى أن يأخذوا فى اعتبارهم أن التطور التكنولوجى قد يتعرض فى المستقبل لصدمة أو عثرة خطيرة ، وأن الموارد التى سوف تتبقى متاحة للبشر بعد تلك الأزمة قد لا تكون من الوفرة بحيث تسمح باتصال خيط التغير واندفاعه الى الأفضل بعد ذلك . بل ان البعض قد ذهب بالفعل الى ايضاح الأسباب والكيفية التى سـوف تعوق التقدم التكنولوجى عن الانطلاق عقب أى حرب نووية فى المستقبل ، على نحـو ما فعل هاريسون براون فى كتـابه عن تحـديات المستقبل الانسانى [٢] .

ورغم تضعضع الايمان بالمستقبل البشرى فى الوقت الراهن ، فاننا نلاحظ أن عصرنا هذا قد شهد ومازال يشهد اهتماما بدراسة المستقبل يفوق ماكان موجودا فى أى عصر سابق من عصور البشرية ، وأصبحت دراسة المستقبل الاجتماعى للبشر من أهم وأخطر الدراسات التى تعد فى نظرنا محصلة لدراسات التغير الاجتماعى ، موضوع هذا الكتاب . وقدم مفكرو عصرنا اسهامات بارزة وعديدة فى هذا المجال [٣] .

---

(١) اشـار كابلو الى دراسة بكويث التى استعرضت الاتجاهات الاجتماعية فى القرون الخمسة القادمة ، انظر :

Burnham Putman Beckwith, The next 500 Years, Scientific Predictions of Major Social Trends, New York, Exposition Press, 1967.

(2) Harrison Brown, The Shallenge of Man's Future : An Inquiry Concerning The Condition of Man During The Years That Lie Ahead, New York, Viking Press, 1954.

وقد اود كابلو هذا المرجع فى كتابه المذكور ، المرجع السابق ، ص ٦٥٥ ، حاشية رقم (٣) .

(3) See Daniel Bell, (ed.), Towards The Year 2000 : Work in Progress, Boston, Haughton Mifflin, 1967.

وانظر كذلك د . محمد على محمد ، علم الاجتماع ودراسة المستقبل ، مقال منشور فى الكتاب السنوى لعلم الاجتماع ، اشراف محمد الجوهرى ، دار المعارف ، العدد الثانى ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ص ٤٣ — ٨٠ .

علم اجتماع المستقبل :

على الرغم من أن دراسات التغير الاجتماعى قد تتم أحيانا بالاعتماد على دراسة الماضى فقط ، من أجل رصد بعض التغيرات والتحولات الاجتماعية التى وقعت فى مجتمع معين خلال فترة زمنية معينة ، الا أن أغلب تلك الدراسات انما يتم من أجل التنبؤ بالمستقبل ومعرفة ما سيطرأ من تغيرات وتحولات على النسق الاجتماعى محل الدراسة • وقد أوضح كابلو أن أفضل طريق للانتفاع بدراسة التغير فى التنبؤ بالمستقبل هو استخلاص الاتجاهات الاجتماعية القائمة وبلورتها وتحديدها ، ومن ثم اسقاطها على المستقبل حسب ما سنرى فيما بعد •

ذلك أن استخلاص الاتجاه يعنى فى حقيقة الأمر نقله من الماضى المعروف لنا واسقاطه على المستقبل الذى مازال مجهولا • والضمان الذى يجعلنا نطمئن الى أن الاتجاه الذى نستخلصه من ملاحظة الماضى سوف يقترب الى حد معقول من اتجاه الحركة الاجتماعية فى المستقبل ، يعتمد الى حد كبير على طول الفترة الماضية التى نلاحظ فيها ونستخلص منها ، كما يعتمد على درجة انتظام الاتجاه فى الماضى وعلى سلامة فهمنا لأسبابه وعوامله وملابساته جميعا • ونجد مصداقا لذلك ــ على سبيل المثال ــ أن اتجاه نمو سكان المدن الكبرى أسرع من نمو سكان المجتمعات المحلية الصغيرة هو اتجاه عمره الآن مائة وخمسون عاما على الأقل ، وظل محافظا على ايقاعه وانتظامه طوال تلك الفترة • ومع أننا قد لا نكون على دراية كاملة تماما بكل أسبابه وعوامله ، الا أننا نستطيع مع ذلك أن نسقطه على المستقبل باطمئنان الى أنه سيضطرد حدوثا واستمرارا •

وهناك اتجاه آخر يمكن استخلاصه من ملاحظة الماضى أيضا ، ذلك هو الاتجاه العام نحو تقليل عدد ساعات العمل فى الدول الصناعية المتقدمة ، والذى تقتصر فترة ملاحظته على الخمسين سنة الأخيرة فقط ، فهو ليس تطورا بعيد الجذور فى الماضى ، كما أن خطوط تطوره لم تكن منتظمة ولا واحدة فى ايقاعها وانما كان يتصورها شىء من التذبذب ، ومع ذلك فان أسباب هذا الاتجاه وعوامله معروفة لنا ومفهومة تماما ،

وهذا هـو ما يدفعنا (رغم عدم انتظامه فى الماضى) الى أن نتوقع باطمئنان استمراره واضطراد حدوثه فى المستقبل •

وغنى عن البيان أن أى اسقاط أى اتجاه ماض على المستقبل يحمل فى طياته بعض الفروض والمسلمات ، منها مثلا « تثبيت العوامل والظروف الأخرى » ، أى أنه لن تطرأ ظروف تغير من اضطراد وقوع الاتجـاه وتجعل المسرح الاجتماعى يختلف فى معالمه اختلافا بعيدا عما كان يجرى فى المـاضى • من هـذا مثلا أن حدوث تطور جديد فى وسائل نقل الأشخاص يؤدى الى سهولة انتقالهم بسرعة وسهولة يمكن أن يؤدى الى أن يبتعد الناس عن سكنى المدن الكبرى ويهجرونها الى الضواحى ، ومن ثم لايضطرد فى المستقبل اتجاه نمـو سكان المدن الكبرى بمعدل يفوق نمـو سكان المجتمعات المحلية الصغيرة •• وهكذا • ثم أن هناك مشكلة أخرى وهى أن الظروف المـاضية قد تستمر على ماهى عليه فى المستقبل تقريبا ، وقد لا يعتورها تغير عنيف ، ومع ذلك فاننا نتوقع أن يطرأ على نفس الاتجاه عند اسقاطه على المستقبل بعض التغيرات والتحولات بفعل التطور الطبيعى نفسه ،وليس حتما بفعل حدوث تطورات عنيفة أو مفاجئة • فالتنبؤ بأعداد التلاميذ الذين سيلتحقون بمدرسـة معينة خلال السنوات القادمـة ، أو بانتاج مصنع معين فى المستقبل قد يكون فى منتهى الدقة بالنسبة للسنتين أو السنوات الثلاث القادمة ، ثم سيصبح أقل دقة ، بل ربما بعيدا عن الواقع اذا تنبأنا به لمدة عشرين سنة قادمة مثلا ، ومن المؤكد أن تنبؤنا سيكون عابثا تماما وبلا جـدوى لو قدرناه للخمسين سنة القادمة • ذلك أن « تثبيت العوامل الأخرى » لا يصدق بطبيعة الحال الا بالنسبة لفترات قريبة فقط فى المستقبل ، وليس من المعقول أن تثبت الظروف وتظل على حالها لفترات زمنية طويلة مقبلة • أما المستقبل البعيد فسـوف يطلع علينا بعلاقات جديدة غير معروفة لنا بين العناصر والمتغيرات القائمـة فى حياتنا ، كما أنه سـوف يطلع علينا بمتغيرات جديدة ومستحدثة تماما ، وكل ذلك يجعل عملية التنبؤ البعيد المـدى على شىء من الصعوبة •

ومع أن معرفة المستقبل عملية غير مؤكدة بطبيعتها وبالضرورة ، ومع

أن كل محاولة للتنبؤ بما سيحدث ستواجه قطعا قدرا من الفشل والاخفاق ، الا أن **علم اجتماع المستقبل** أصبح فى السنوات الأخيرة واحدا من أهم ميادين البحث فى علم الاجتماع كله • فالفعل الاجتماعى هـو فى حقيقته فعل موجه نحو المستقبل ، وهناك كثير من الأفعال التى تتم أمامنا لانستطيع أن نفهمها أو نستوعبها الا فى ضـوء تصورات أصحابها عن المستقبل ، لأنهم يستهدفون بها تحديد مستقبلهم أو التأثير عليه على نحو معين • فالناس الذين ينشئون مدرسـة ، أو يشترون وثيقة تأمين على الحياة ، أو ينشئون مقبرة ، أو يزرعون مجموعة من الأشجار ، أو يشتركون فى حزب سياسى ، أو ينتمون الى احـدى الحركات الاجتماعية أو السياسية ، أو يجمعون طوابع البريد أو قطع الأثاث العتيقة ••• كما أن أولئك الذين يؤدون امتحاناتهم فى المدارس والجامعات ، أو يتزوجون أو يهاجرون يمتد تأثير فعلهم الى المستقبل : فلا يمكننا أن نفهم معنى ما يفعلونه الا اذا أخذنا فى اعتبارنا تصورهم عن المستقبل تنبؤاتهم به • وتنبؤاتهم تلك هى فى العادة استخلاصات عامة وتقريبية لاتجاهات التطور فى حياتهم وحياة من حولهم التى لاحظوها وأدركوها عبر المـاضى • فالزوجان الشابان اللذان يتزوجان اليوم يفترضان أن مستوى معيشتهما سـوف يرتفع خلال الفترة التى ينمو فيها أطفالهما • (على أساس أن ظروف معيشتهما وقت بـدء الزواج قد لا تسمح باعالة طفلين أو ثلاثة ، ولكنها سـوف تتحسن فى المستقبل مع مجىء الأطفال ونموهم) • وهم بذلك يستقرئون اتجاهات تطور حياة آبائهم أو أقاربهم الكبار • وغنى عن البيان أن مثل هـذه الاستنتاجات قـد لا تكون رشيدة ، أو حصيفة ، أو دقيقة تماما ، **ولكننـا لا نملك أن نمشى فى الحاضر دون أن نفكر فى المستقبل على ضـوء اتجاهات المـاضى** • وكل منا يجب أن يتحرك فى هـذا السبيل بما تحت يديه من معلومات وبما يملكه من قدرات وامكانيات تحليل هذه المعلومات واستيعابها •

ويختلف الأمر بالنسبة للباحث الاجتماعى المتخصص ، فهو يستطيع أن يمحص عملية استقراء اتجاهات المـاضى واستخلاص سماتها واسقاطها

على المستقبل ، وذلك بتجويد أساليب جمع المعلومات وتحليلها وتطويرها تطويرا متصلا • فمن الطبيعى أن تتميز نظرته الى الواقع الاجتماعى بالمرونة والدقة ، فالنسق الذى يلاحظه لم يكن ، ولا يمكن أن يكون ، كيانا مغلقا على نفسه ، وانما هو كيان متحرك دائم التغير ، ومن ثم يتعين أن تتميز عملية الاسقاط على المستقبل بقدر كاف من المرونة •

واللافت للنظر حقا أن رواد النظريةالاجتماعية العظام : كونتوماركس وسبنسر قد استبعدوا تماما عنصر المفاجأة فى الواقع الاجتماعى عندما حاولوا تفسير كافة أنواع وأشكال التغير الاجتماعى فى الماضى والحاضر فى ضوء مفاهيم كبرى كالتطور الاجتماعى ، والمادية الجدلية • وقد أقدم على نفس المحاولة فى العصر الحاضر علماء آخرون ، أمثال توينبى وسوروكين ، دون أن يحققوا نجاحا أفضل كثيرا من أولئك الرواد • ولعل سبب ذلك أن النظريات التى صاغها أولئك المفكرون الكبار كانت على نطاق أوسع من أن يدلنا على شىء عن المستقبل القريب ، أو أنها صيغت بمصطلحات غامضة تعجز عن تفسير وتوضيح أحداث اجتماعية معينة • ويعتمد علماء الاجتماع المحدثون اليوم على البيانات الاحصائية لاستقراء اتجاهات الحركة الاجتماعية فى الماضى ، والاستعانة بها فى رؤية المستقبل ، ومع ادراكنا لقصور هذه الأداة ، الا أنها تظل مع ذلك أفضل وسيلة متاحة للانفتاح على عالم المستقبل •

* * *

الاتجاهات البعيدة المدى :

هذه الاتجاهات استخلصها وقدمها لنا كابلو فى كتابه عن علم الاجتماع ، وهو يقصد بها تلك الاتجاهات التى ظهرت واستمرت طوال مائة عام ماضية على الأقل ، ومن ثم يمكن اسقاطها على المستقبل بشىء من الاطمئنان والثقة [1] • وهو يضع لتحقق تلك الاتجاهات فى المستقبل بعض الشروط ، منها :

(أ) أن تظل الأمور كما هى دون تغير كبير ، محتفظة بخطوطها وملامحها العامة على الأقل •

---

(١) كابلو ، المرجع السابق ، صفحة ٦٢٩ وما بعدها .

(ب) ولا يتعرض مسار التاريخ لتغير عنيف أو حاد أو مفاجىء ، كوقوع حرب ذرية أو وباء عالمى شامل أو غزو من الفضاء ، أو اطالة متوسط عمر الانسان بشكل كبير ، أو غير ذلك من الأحداث والتطورات الكبرى التى يمكن أن تفسد هذه التنبؤات وتعدل من حركة المجتمع فى المستقبل بعيدا عن اتجاهات الحركة الماضية •

ولن يتسع المقام لدراسة كل اتجاه من هذه الاتجاهات على حدة ، فذلك يخرج عن حدود هذه المقدمة ، ولكننا نكتفى بذكرها كرؤوس موضوعات تحتاج الى تأمل والى مزيد من البحث • وقد أشرنا الى أن كلا من الاتجاهات الخمسة عشر الماضية ظل مستمرا فى الماضى لأكثر من مائة سنة ، وبعضها أكثر من المائة سنة ؛ وهى :

١ ــ التقدم التكنولوجى •
٢ ــ انتشار التكنولوجيا •
٣ ــ زيادة كمية السلع المنتجة •
٤ ــ زيادة الخدمات •
٥ ــ زيادة الرموز والصور •
٦ ــ نمو السكان •
٧ ــ التخصص المهنى •
٨ ــ تقليل المجهود المبذول فى أداء العمل •
٩ ــ المساواة بين الجنسين •
١٠ ــ التحضر ونمو سكنى الضواحى •
١١ ــ الحراك المكانى المكثف •
١٢ ــ تحلل واضمحلال الثقافات التقليدية •
١٣ ــ نمو الحكومات •
١٤ ــ ازدياد وحشية الحرب وقسوتها •
١٥ ــ تناقص استقلال البيئة الطبيعية •

اذا تأملنا القائمة السابقة يتضح لنا جليا أنها تنصب على جوانب مختلفة ومتعددة لحركة تاريخية واحدة ، ومن ثم فانه ليس من الصعب اطالة هذه القائمة كثيرا دون أن تتغير طبيعة الصورة التى تقدمها لنا •

كما نلاحظ أن أى اتجاهين من تلك الاتجاهات يرتبطان بشبكة كاملة من الروابط والصلات المباشرة وغير المباشرة • فالتحضر — على سبيل المثال — يعتمد على التقدم التكنولوجى ، والتقدم التكنولوجى نفسه لا يتيسر تحقيقه الا بفضل التحضر ، وكلا الاتجاهين التحضر والتقدم التكنولوجى سبب ونتيجة لاتجاه آخر هو التخصص المهنى • ومع ذلك فكل اتجاه من تلك الاتجاهات الخمسة عشر يمثل موضوعا كبيرا ومستقلا يحتاج الى دراسة موسعة •

* * *

الاتجاهات غير المؤكدة :

ومع أن الاتجاهات الخمسة عشر السابقة تتميز كما أشرنا بقدر من الصدق ونستطيع — فى ضوء المعلومات المتاحة — أن نطمئن الى استمرارها فى المستقبل ، الا أن استمرارها هذا ليس أمرا حتميا (حتى ولا فى المستقبل القريب) ، فالتاريخ ملىء بالمفاجآت • ولكننا نقول انها ظلت قائمة لأكثر من قرن من الزمان ، وأصبحت سمات عامة لا تقتصر على مجتمع دون غيره ، ولا على اقليم دون اقليم •

ولكن هناك الى جانبها طائفة من الاتجاهات غير المؤكدة التى وردت فى كتابات بعض الاجتماعيين وغيرهم، وتكررت الاشارة اليها ، ولكن الشواهد على وجودها واستمرارها ليست بنفس دقة ويقين البيانات التى استوحينا منها الاتجاهات المؤكدة البعيدة المدى • والسبب فى ذلك اما أن البيانات المتاحة قليلة ، أو غير مرضية ، أو أنها لا تدل على استمرار تلك الاتجاهات فى الماضى لفترات زمنية طويلة ، أو لأنه ظهرت اتجاهات مناقضة لها فى أجزاء أخرى من العالم ، مما يفى أنها ليست بنفس درجة عمومية وشمول الاتجاهات السابقة •

ومن أبرز الاتجاهات غير المؤكدة ، التى يعتقد أنها سادت فى الماضى ، بدرجات متفاوتة ولفترات متباينة أيضا ، والتى يحتمل أن تستمر فى المستقبل ، هى :

١ ــ ازدياد القلق •
٢ ــ انهيار القيم الاجتماعية •
٣ ــ ازدياد حالة الأنومى (اللامعيارية) •
٤ ــ ازدياد الانحراف •
٥ ــ ازدياد العنف السياسى •
٦ ــ تدهور الأسرة (*) •
٧ ــ ضعف الشعور الدينى (*) •
٨ ــ تقارب مكانات الأفراد •
٩ ــ ازدياد درجة التجانس الثقافى •
١٠ ــ زيادة الاعتماد الدولى المتبادل •
١١ ــ ازدياد معدلات حدوث التغير الاجتماعى •

* * *

وبعــد ••

فاننا نرجو أن تكون تلك الموضوعات ، وغيرها مما سيثيره كتابنا هــذا ، دافعا لاثارة الاهتمام بدراسة التغير الاجتماعى بمختلف جوانبه ، ونرجو مخلصين أن تتاح لنا فى المستقبل فرصة تطوير هــذا العمل وتنميته ، كما نحرص دائما ، من أجل خدمة العلم الاجتماعى فى وطننا العربى •

والله ولى التوفيق •

محمد الجوهرى

(*) اثبتت دراسات معاصرة ودقيقه ان الأسرة لا تتعرض لأى تدهور فى الحاضر ومن غير المحتمل أن تتعرض له فى المستقبل وانما هى تمر بأزمات ، وكذلك الشعور الدينى . انظر بالنسبة للاسرة :

علياء شكرى ، الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

وبالنسبة للدين : انظر : عبد الله الخريجى ، علم الاجتماع الدينى ، دار الشروق ، جــدة ، ١٩٨٢ .

الباب الأول *

نظريات التغير الاجتماعى

الفصل الأول : الماركسية وجدل التغير الاجتماعى .

الفصل الثانى : التوازن والتغير الاجتماعى : الاتجاه الوظيفى عند مالينوفسكى .

الفصل الثالث : التحليل النفسى للشخصية والبناء والسياسة والتغير الاجتماعى .

الفصل الرابع : التغير الاجتماعى والفعل الاجتماعى .

الفصل الخامس : نظريات التغير الاجتماعى . تحليل مقارن .

(*) ترجم الباب الأول بفصوله الخمسة الدكتور على ليلة عن المصور التالى :

John Mcleish : The theory of social change, four views conidered. London. Routled ge & Kegan Paul. 1972.

الفصل الأول

الماركسية وجــدل التغير الاجتماعى

تهتم الماركسية أساسا بالتغير الاجتماعى : اذ يكمن اهتمامها الرئيسى فى اكتشاف أساليب التحول الفعالة فى العلاقات الانسانية • ففى بداية حياته كمفكر ــ حيث كان مايزال طالبا ــ كتب ماركس (*) فى احــدى

(*) ولــد كارل ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) فى بروســيا Prussia ابنا لمحام يهودى تحول الى البروتستنتية حينما كان ماركس طفلا . وبعد حياة مدرسية وجامعية متفوقة (مدرسة ترير Trier العليا وجامعة بون Bonn وبرلين Berlin ، حيث حصل على الدكتوراه فى ١٨٤١) ، وجد كارل ماركس انه من المستحيل ان يحصل على وظيفة جامعية بسبب آرائه المتطرفة واصوله اليهودية . وبعد حياة قصيرة كمحرر فى عدة جرائد اوقفت على التوالى بواسطة الرقبــاء Censors ، وبعد أن استبعد من فرنسـا ، استقر ماركس فى لندن حيث توفى فى ١٨٨٣) .

ومن حيث آرائه النظرية يعتبر ماركس اول الشيوعيين المحدثين ، حيث اسس النظريات المتميزة والرئيسية عن الحتمية الاقتصادية ، والثورة الاجتماعية ونهاية التمييزات الطبقية . وتتمثل المؤثرات الأساسية فى تفكيره على التوالى فى : فلسفة الجدل الهيجلية ، الاشتراكية اليوتوبية الفرنسية ، والاقتصاد السياسى الانجلــيزى (آدم سميث Adam Smith ، ريكاردو Ricardo وآخرين) وقد كان ماركس لسنوات كثيرة محرضا للحركة الثورية فى معظم البلاد التى بها طبقة عاملة مستقلة وجاهلة . (المــانيا ، فرنسا ، روسيا) ، وقد حاول قيادة جماهير البروليتاريا فى كل الاقطار نحو الثورة من خلال الدولية الأولى التى اسسها فى لندن ١٨٦٤ . وقد أدى دورا هاما فى تفسير والهام وتبرير ثورات ١٨٤٨ ، وكميونة باريس فى ١٨٧١ التى اعتبرها نموذجا مصغرا للثورة الشيوعية وبشيرا بالمجتمع الجديد) . ويعتبــر ماركس المسئول الأول عن النظرية والممارسة الشيوعية فى كل اقطار شرق أوربا والصين ، وكوبا حيث =

مذكراته عبارة ذات ابداع متميز (نترجمها بتصرف) : (حتى الآن غـير الفلاسفة تفسيراتهم للكون فقط ، مع أن الأهم هو أن نغيره [1]) •

ومنذ ذلك الحين يمكن اعتبار القدر الأساسى من الكتابات الماركسية ليس الا محاولة جادة لفهم متضمنات هذه العبارة •

وتتبلور قضية تقديم الماركسية كنظرية فى التغير الاجتماعى حـول حقيقة غياب الاختيارات المحورية ، التى تتخـذ شكل محاولات تطبيق النظرية الأساسية على حالات محـددة • ويبـدو أن الاهتمام الرئيسى للمفكرين الماركسيين يتمثل فى تأسيس الدور القيادى للقوى الاقتصادية فى دينامية التغير الاجتماعى بطريقة عامة للغاية • اذ يبدو أنهم مهتمون أساسا بالتاريخ والمجتمع أكثر من اهتمامهم بالتغيرات المحلية أو الجماعات البشرية المحددة التى يمكن أن تشكل اختبارا له سنده العلمى للنظرية (حيث تتضاءل مكانة مؤلفـات هيجـل (عالم الروح **World Spirit** والفكرة المطلقة Absolute Idea الى درجة التهديد بفقد قيمة حروفها الأساسية) • ويؤدى استمرار غموض وعمومية الجدل الهيجلى فى الكتابات

= وقعت الثورة الشيوعية . ويعيش الآن عدد يتراوح بين ثلث ونصف البشر يوافقون ضمنيا على آرائه باعتبارها تشخيصا صحيحا للحقيقـة ولظروفهم الاجتماعية .

وقد عمل خلال حياته فى رفقة متينة مع فريدريك انجلز Friedrich Engels المؤسس المشارك للماركسية — بما فيها نظرية المـادية الجدلية ، والثورة الاشتراكية ، والاشتراكية العلمية . وبرغم أن ماركس قد الح على الفـاء (الزواج البرجوازى) فقد عاش حياة زواجية سعيدة مع جينى فون فستفالن Jenney von Westphalen (ابتـداء مـن ١٨٤٣) وهـى مـن سـبط الايرل التاسـع لأرجيـل 9th Aarl of Argyll (أرشبالد كامبل Archibald Compbell الـذى أعدمـه جيمس الثانى) (James II حاكم استكلنده فى ١٦٨١ . وقد استطاعت عائلة ماركس (أبوه ، أمه ، ابنتان وخادم مثس) التى عاشت فى لندن حياة بائسة للغاية الحياة عن طريق رهن الطبق الفضى لأرجـل Argylll .

(1) Engels, F., Ludwig Feurbach (1941), p. 73 (Appendix A Consists of Mars eleven ctheses on Feuerbach).

الماركسية الأولى الى الميل نحو تمييع التفسير الحقيقى لديناميات التغيرات التاريخية والاجتماعية المحددة ، حيث سلم بذلك انجلز (*) الذى كتب :

(ان نشأة التصور المادى المتعلق بمثال تاريخى واحد كان عملا علميا تطلب سنوات من الدراسة المتأنية ... [١]) .

(*) ولد فريدريك انجلز Friedrich Engels (١٨٢٠ — ١٨٩٥) فى بارمن Barmen بمنطقة الراين بالمانيا German Rhine Land . وقد كان ابنا لصاحب مصنع قطن . وقد اصبح رجل اعمال قادرا بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية فى مؤسسة ايرمان وانجلز Erman and Engles التى امتلكها ابوه . وقد عاش انجلز فى مانشستر Monchester ابتداء من ١٨٤٢ حتى ١٨٦٩ حينما رحل الى لندن . والى جانب انه مارس حياة عمل ناجحة حتى ١٨٦٩ ، بالاضافة الى الخروج المنتظم فى رحلات للصيد . فقد عمل عن قرب شديد مع ماركس فى تنظيم حركة ثورية فى خارج انجلترا . وقد كتب كثيرا من المقالات والكتب عن نظرية الاشتراكية ، وعن الاستراتيجية العسكرية للثورة ، وعن الفلسفة ، والقضايا الاجتماعية ، وقد اصبحت هذه النصوص من الكلاسيكيات الهامة ، منها : حالة الطبقة العاملة فى انجلترا عام ١٨٤٤ ، المسألة العسكرية والطبقة العاملة الألمانية (١٨٦٥) ، المانيا : الثورة والثورة المضادة (١٨٥١) .

وقد استطاع انجلز مثل ماركس ان يقرأ ويكتب بلغات عدة . وبسبب عمله فى الحركة الثورية الدولية فقد زود نفسه ليس فقط بالمعرفة عن التكتيكات العسكرية (حيث اعتبر أن صيد الثعالب يعتبر اسلوبا أمثل للحفاظ على اللواء General المتعلم والقادر) . غير انه تحمل معاناة تعلم معظم اللغات الاوربية لكى يستطيع اداء دوره كمفسر فى المؤتمرات والندوات السرية التى يعقدها مع اللاجئين السياسيين فى انجلترا . وقد اشترك انجلز مع ريتشارد فاجنر Richard Wagner فى حركة العصيان المسلح فى بادن Badin سنة ١٨٤٩ بيد أنه من ناحية اخرى لم يقدم انجلز مساهمة فعالة فى المعارك الثورية للقارة .

وقد تخلى انجلز تماما — مثل ماركس — عن فكرة أن الطبقة العاملة الانجليزية تستطيع ان تحقق الشيوعية بالثورة المسلحة ، برغم ان اهتمامه بهذا الامكان قد أعيد احياؤه بسبب اندلاع اضراب لندن London Dock Strike فى ١٨٨٩ . وقد عاش انجلز سنوات كثيرة مع فتاة ايرلندية تدعى ليزى بيرنز Lessle Burns تزوجها فى ١٨٦٤ . وفى بعض الفترات الصعبة =

(1) Ibid., p. 94.

حيث تشير طبيعة الأوضاع المحددة الى عدم استكمال هذه المهمة • اذ لم يتم تناول ذلك بجدية من قبل مؤسسى المـادية التاريخية • وتمثل كتابات ماركس الخلافية عن التاريخ الفرنسى (ثورة ١٨٤٨ ، كميونـة باريس) أقرب الأمثلة التى حاول فيها مؤسسو الماركسية الاقتراب من هـذه المهمة •

وفيما يتعلق بالماركسية نجـد أنفسنا فى مواجهة نظرية سوسيولوجية تتسم بكثير من ملامح الحكم القبلى • اذ تبدو النظرية مؤكدة بواسطة مؤشرات امبيريقية محددة • غير أن تأسيسها لم يتم بشكل تفصيلى عن طريق التطبيق الدقيق للمنهج الاستقرائى الـذى تتميز به البحـوث السوسيولوجية • ومن ثم فهى فى ملامحها الرئيسية استنباطية أكثر منها استقرائية •

ويوضح تاريخ نظرية ماركس عن التجديد الاجتماعى هذه الطبيعة القبلية ، وان كان هيجل هو نقطة البداية لذلك ، بل لقد حاول من قبله المفكرون الدينيون (على سبيل المثال أوغسطين) تأسيس النمط فى التاريخ ، وطـور الكتـاب الكلاسـيكيون النظريـة الدوريـة Cyclical theory فى بلاد الاغريق لتفسير الأحداث التاريخية • وان كان هيجل هـو المفكر الأول الذى حاول تأسيس نظرية عامة ومفصلة عن تطور التاريخ وتماسكه

= بالنسبة لعائلة ماركس نجـد ان انجلز كان يزودها باحتياجاتها حتى يتفرغ ماركس لكى يكتب مؤلفـه الهـام رأس المـال Kapital وعنـد وفـاة ماركس كرس انجلز نفسه لمهمة تحرير وكتابة بعض اجزاء المجلد الثالث مـن هذه الاشتراكية الكلاسيكية . وبرغم أن انجلز كان له فى الحقيقة تأثير ضعيف على نشاة الأحزاب الثورية (غير المشروعة) فى القارة الأوربية فى أثناء حياته ـ وربما كان اقل تأثيرا على الحركات السياسية البريطانية ، الا ان افكارهم أصبحت الآن تمثل مذهبا فى كل الأقطار التى استولت فيها الحكومات الشيوعية على السلطة وذلك بعد ان طور هذه الافكار حوارى ماركس وانجلز الروسى الجنسية فلاديمير ايليتش اليانوف (لينين) .

الداخلى . وفى هذا الصدد يتمثل اسهام ماركس فى استكمال تحـويل التفسير المسيحى للتاريخ ، الذى بقى كامنا فى تصـور هيجل عن تطور الكون [١] Cosomos ، الى تفسير له ملامحه العلمانية . حيث نظر ماركس الى الكون Universe كنسق من الأجزاء المتداخلة والمتغيرة أبدا (المـادة فى حالة حركة) باعتباره الأساس الوجودى الحقيقى للتاريخ البشرى بكامله وباعتباره الشرط الرئيسى للتطور الاجتماعى . وبديلا لتقديم فكرة هيجل المطلقة (كبديل لفظى نيوتونى لكلمة اله) على مراحل ، نجد لدينا فكرة عن التقدم التى تؤدى فاعليتها من خلال الصراع الجدلى الذى يعتبر مبدأ شاملا يستند اليه الكون ، حيث الوجود المـادى يعتبر أساسا له . فهو تطور من الأكثر بساطة الى الأكثر تعقيدا . فوفقا لوجهة نظر ماركس يوجـد باعث داخل المـادة ذاتها يقدر كل شىء نحـو التغير . حيث يتحـدث ماركس عن التوتر Tension والروح الحية Vital Spirit بل نجـده منساقا لاستخدام لغة ذات طابع صوفى برغم مدخله العلمى ، لكى ينقل جوهر المسألة . فالمـادة هى الآن كما كانت فى حالة تحريف ، وعلينا ــ لتجاوزه ــ أن نقفز من أحد مستويات التطور الى آخر . ويقتبس ماركـس عن دون سـكوتس Duns Scotus الثيولوجى موافقـا على التساؤل الذى طرحه فى بداية القرن الثالث عشر ويتعلق بما اذا كان ممكنا للمـادة أن تفكر [٢] . وعلى حسب الماركسية يعتبر هذا الجدل الداخلى أو هذا التناقض الواضح القوة المحركة ، التى تشكل أساس الحقيقة التى تقود الى التغير ، فالتغير يشكل جـوهر الأشياء والعلاقات بينها .

ولا ينبغى أن تعوقنا القوانين العامة للتطور الكونى التى نقلها ماركس عن هيجل فى هـذا الصـدد . اذ علينا أن نتذكر قوانين التحول من الكم الى الكيف ، والتناقض كأساس للتغير ، ونفى النفى ، وما الى ذلك .

---

(1) Engels, F., Ludwig Feurbach (1941)., p. 85.
(2) Ibid., p. 85.

وبالتأكيد تؤدى هذه القوانين وظيفتها فى النظريات الاجتماعية لماركس • لأنه يعتبر التطور الاجتماعى مجرد أحـــد المستويات الخاصـــة للتطور الكونى • وان اتخذ شكلا خاصا فى السياق المحدد للمجتمع الانسانى • وعلى هذا المستوى يبدو الأفراد كبشر أو جماعات انسانية ، فى أى مرحلة تاريخية كوسائل غير واعية بالعملية التاريخية • اذ يظهر الباحث للتغير موضوعيا ــ خارج الوعى أو القصد الانسانى (فالمـــادة فى حركة) وان انعكست هذه البواعث نحـــو التغير ، وظروف التغير فى الوعى الانسانى كأفكار ، ومشاعر ، وغرائز وارادات ذلك هو النشاط البشرى المحسوس الذى تحدث ماركس عنه فى بيانه أو أطروحته الأولى عن فلسفة فويرباخ Feurbach [1] •

حيث اعتبر هذا النشاط الانسانى أيضا شكلا (للمادة فى حركة) • بيد أنه عادة ما يكون للعوامل الموضوعية للتغير ، بانعكاسها فى الوعى ، تحيزا ذاتيا مفروضا عليها ، يمكن وصفه بمصطلحات مثل (الأيديولوجيا) (الميول المثالية) (الوعى الزائف) ــ وهى تشير الى الفجوة بين الادراكات الانسانية والواقع الاجتماعى القائم • ويسلم ماركس بوجود مجموعتين من القوانين تتحدان من حيث الجوهر ، وان اختلفتا بدرجة ملحوظة من حيث أسلوبهما فى التعبير • وتتصل المجموعة الأولى من هذه القوانين بتطور العالم الخارجى ، على حين تتصل المجموعة الثانية بقوانين الفكر البشرى • وذلك يعنى أنه على حين يؤسس البشر التغيرات الاجتماعية ، فان على هذه التغيرات ، لكى تصبح مؤثرة ، أن تتطابق هى والقوانين الكامنة التى تؤدى دورها خارج نطاق ارادة وقصد وحتى وعى البشر • وفى الغالب بينما تبدو التجديدات الاجتماعية من كل الأنواع ، كنتاج للقصد البشرى ، فانها فى الحقيقة تعد نتاجا لعدد لا حصر له من الارادات البشرية التى

---

(1) Marx - Engels, Correspondence (1846 - 1895) (1936) pp. 310 - 11, 475, 518 : Cf. Kanst antinov, F. V (1950, 1954, 1955).

قد تدخل الى حـد ما فى صراع كل مع الأخرى ، ومن ثم يتسم حاصل التجديد بالطابع المفاجىء أو الصدفة التاريخية • وكما يبدو فى شكلـه النهائى ، فان أى تجديد لا يكون مقصورا من قبل أى شخص ، ومن ثم فهو ليس موضع قبول كامل من قبل أى من الفاعلين الاجتماعيين • وتتضمن التغيرات من أى نوع فى العادة بعض مظاهر السعادة والبؤس والمفاجآت وبرغم ذلك فهى تتحقق واقعيا كنتيجة لضرورة تاريخية ، أو كمتتالية لفاعلية قوانين صارمة • وفى هـذا الصـدد يقول هيجل (ما هو حقيقى عقلانى ، وما هو عقلانى حقيقى) • ويعيد ماركس التعبير عن هذه القضية غـير المحددة بمعنى أن ما هو ضرورى لابد أن يتحقق ، وينبغى أن يمـوت كل شىء استنفذ امكان التطور الأكثر [١] •

وتستقر القـوى الحقيقية الدافعة للتغير بالنسبة للماركسية فى الأسس الاقتصادية للمجتمع • اذ يقال ان مستوى القوى المنتجة فى مجتمع معين من شأنه أن يحدد المستوى العام للثقافة ، والمعرفة والأيديولوجيا [٢] • فالأولوية للتغيرات التى تقع فى الأساس الاقتصادى • وهى تعتمـد على القوانين العلمية ذات الطبيعة السببية والحتمية • فالأولوية للتغيرات الاقتصادية من حيث الزمن والأهمية ، ثم تتبعها التغيرات فى البنـاء الفوقى • وتتصل فاعلية التغيرات فى البناء الفوقى بالأفكار كالدين والقانون والفكر والنظرية • فهى مجرد انعكاسات للتغيرات فى الأساس • فالنظام الاقتصادى صارم فيما يتعلق بطبيعة ومعـدل التغير فى أفكارنا •

ويعتبر الصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى الحـديث الوسيلـة الرئيسية للتجديد الاجتماعى ، أعنى صراع هؤلاء الذين يعيشون من بيع

---

(1) Marx - Engels, Correspondence (1846 - 1895) (1936) pp. 310 - 311, 475, 518 : Cf. Konstantinov, F. V. (1950, 1954, 1955).

(2) Marx, K., Critique of political economy (1904), pp. 11 - 14; Cf. Marx K. and Engels. F., The German ideology. (1940) pp. 28 - 9.

قوة عملهم ضــد هــؤلاء الذين يستغلون عمــل المعدمين have-nots وتعتبر القــوة ، فى هــذا الاطار ، وسيطا للتغير الاجتماعى ، أو هى الحــكم بين الطبقات الاجتماعية (١) • ويؤدى العقل والقصد البشرى دورا ضئيلا فى تحــديد نتاج المواجهات التاريخيــة : وتعتبر الظروف الموضوعية المتنامية تاريخيا ذات أهمية أكثر فى هــذا الصدد • وبصفــة خاصة تعتبر العلاقة بين (قوى الانتاج) فى المجتمع (وعلاقات الانتاج) ذات دور حاسم • وفى هــذا الاطار ، يؤكــد ماركس تحديد الحصيلة النهائية للصراع التاريخى ، الذى يعتبر العامــل الجــوهرى فى التغير الاجتماعى ، بواسطة العلاقات والقوانين السببية التى تقف خارج الارادة والوعى البشرى • اذ تؤكــد هذه العلاقات والقوانين ذاتها فى شــكل الضرورة الخارجية التى ينبغى أن تنحنى لها كل الارادات (٢) •

ويعتبر الصراع الحتمى الذى يقوده الجــديد مع القديم قانونا اجتماعيا أو قاعــدة • ومن الناحية العملية ، فان ذلك يعنى أن المجــدد Innovator يقف فجأة فى مواجهة التناقضات التاريخية والأيديولوجيات غير الرشيدة ، والمصالح المكتسبة ، التى تعمل مجتمعة كقوة محافظة ومضادة للتغير (٣) • وبوسع المجدد الذى كان من حظه أن تقف قــوى التاريخ الى جانبه أن يتجاوز المقاومات للتغير ــ ولكن بأسلوب غــير متوقع أو متصور من جانبه • وبالتأكيد يوجــد تباين فى درجــة وعى المجددين الأفراد بالموقف الموضوعى (الذى يتضمن قوى الانتاج ، علاقات الانتاج ، الصراع السياسى ، والموقف الأيديولوجى والخطوة الجدلية القادمة ، الخ) • وسوف يوجــد أيضا تباين فى درجــة قدرة الأفراد على توحيد أهدافهم

---

(1) Marx, K. and Engels, F : The Communist Manifesto (1935), pp. 15 - 20. Cf. Engels, Le Role de la vidence dems L'Histoire (1939) p. 130.

(2) Engels, F. Ludwig Feurbach, op. cit., pp. 54 - 5.

(3) Lenin, V. I. Leninski Sbornik, Vol. 9, pp. 230 - 267.

بالحركة الجدلية العامة للتاريخ • ذلك ما يعنيه ماركس بالوعى الطبقى Class Consciousness حيث يتضمن أن مـدخل المشارك فى النضال يعتبر أساسيا قبل محاولتنا فهم الواقع وأسلوب احداث التغيرات المرغوبة • ويؤكد الماركسيون ، فى معارضة مباشرة للتفكير الليبرالى ؛ أن على الفرد أن يكون متضمنا فى عملية تغيير الواقع قبل أن يكون باستطاعته أن يبدأ فى ادراك خصائصه الرئيسية • وأن على من يسعى الى الفهم أن يبدأ بافتراض موقف يتضمن حكما ـــ قيميا • ويستطيع المجـدد الاجتماعى أن ينجح بصورة أفضل اذا تبنى ـــ عن وعى ـــ موقفا طبقيا ووجهة نظر ملتزمة • وعلى هـذا الأسـاس فقط يستطيع أن يبدأ فى فهم علاقات القـوى الطبقية وأن يكون قادرا على التنبؤ بالحركـة الانبثاقية لعلاقات الانتاج وقوى الانتاج فى فترة تاريخية محددة [1] •

وفيما يتعلق بالقضية المحددة التى نهتم بها والخاصة بأسلوب وقوع التغير الاجتماعى ، فان أحـد التساؤلات الأساسية تتصل بطبيعة علاقة المثقفين أو الطبقات المتعلمة بالعملية الاجتماعية • وينبغى أن يقال نفس الشىء فيما يتعلق بهذه القضية ، كما تناولها الماركسيون ، وهو ما قيل بالفعل فيما يتعلق بالنظرية العامـة للتغـير الاجتماعى • حيث سقطت العلاقة التفصيلية بين الفرد والتجديد المحدد الذى يعتبر نفسه مسئولا عنه فى غموض الصياغة العامـة المجددة للكتاب الماركسيين • ذلك برغم تأسيس بعض المؤشرات المتعلقة بطريقة الاجابة على هذه القضية •

ويتحدد التمييز بين الأساس والبناء الفوقى • وهو التمييز الـذى أعلن بعبارة ماركس الكلاسيكية :

(تشكل مجموعة علاقات الانتاج البناء الاقتصادى للمجتمع ، حيث

---

(1) Lenin. V. I., Sochineniya, 4th edit., Moscow, 1947, vol. 14, p. 343.

هو الأساس الحقيقى الذى يستند عليه البناء الفوقى ، القانونى والسياسى • والذى تنتمى اليه أشكال محددة للوعى الاجتماعى ، وبصورة عامة يحدد أسلوب انتاج وسائل الحياة المـادية العمليات العقليـة والسياسـية والاجتماعية للحياة) [١] •

ذلك هـو مذهب المـادية التاريخية التى تؤكد أن كل الأفكار والنظم والخصائص الخارجية للنسق الاجتماعى تتحدد بواسطة الأسلوب الذى يحصل به البشر على عيشهم ، أعنى ، أسلوب الانتاج السائد • وكنتيجة مباشرة ، فقد أصبح واضحا أن جوهر الانسـان فى أى فترة تاريخية ينتج عن علاقته بعملية الانتاج • فالجوهر الانسانى ليس تجريدا كائنا فى كل فرد بمفرده • وانما يتكون فى حقيقته من مجموعـة العـلاقات الاجتماعية [٢] • ويمكن تفسير معنى ذلك بضرورة أن يظل المثقف الذى لم يشارك بشكل مباشر فى عملية الانتاج الواقعى ، مشاركا فى مناشط تنتمى أساسا الى البنـاء الفوقى • وهـو كفاعل اجتماعى ينتج فقط بصناعة الأيديولوجيا ونقلها • غير أن هـذه الحقيقة لا تستبعد بالضرورة اعتباره مجددا اجتماعيا • ومن المبادىء الهامة فى هـذا الصدد أن البناء الفوقى ليس مجرد انعكاس سلبى للأساس الاقتصادى • وانما هـو قوة فعالة ، يستخدمها الجميع كأداة فى الصراع الطبقى • فهـو من ناحية فعال فى الدفاع عن العلاقات القائمـة ، ومن ناحية أخرى ينظم السرعة فى الاتجاه نحـو تغيير علاقات الانتاج [٣] • ويعين لينين Lenin للأفكار شرف مكانة القوى المـادية • اذ يقول : (تصبح النظرية قوة مادية عندما تسيطر على الجماهير) • وحينما يقول ماركس أن العلاقات الاقتصادية أولا ، فى حين أن الأفكار والمشاعر والارادات مشتقة وثانوية ، فان هذا لا يعنى

---

(1) Marx, K., Critique of political Econmy (1904), pp. 11 - 13.
(2) VIth Thesis On Feurbach, in Engels, F., op. cit.
(3) Stalin, J. V. Concerning Marxism in Linguistics (1950), p. 4.

أن الأخيرة غير هامة • هــذا الى جانب أنه لم يستبعد امكان التفاعــل المزدوج بين الاقتصاد (الأساس الانتاجى) والأفكار (البنــاء الفوقى الأيديولوجى) • حقيقة أن المثقفين Intelligentsia كمجموعة اجتماعية أقل أهمية بالنسبة لماركس من العمال أو أصحاب العمل (فهم لا يشكلون طبقة) ففى قــدرة المجتمعات البشرية أن تعيش بدون الكثير من الفكر المجدد : غير أنها لا تستطيع أن تحيا كلية بدون الطعام والانتاج أساسا • غير أن ذلك لا يستبعد امكان أن يكون فكرا معينا ، فى لحظة معينة مــن الزمن أكثر قيمة بالنسبة لاستمرارية الحياة فى المجتمع من صاحب العمل أو العمال كأفراد ، ومن الآلة أو عملية الصناعة ، وهم الذين يشاركون فى الانتاج الأساسى للحاجات الضرورية للحياة • وقد سلم ماركس بهــذه القضية :

(يعتبر تبادل الأفكار ضرورة حيوية ودائمة : فبدون ذلك يصبح من المستحيل أن نؤازر أفعال البشر فى النضال ضــد قوى الطبيعة أو فى الصراع لانتاج القيمة الضرورية المادية ، والتى بدونها ، يصبح من المستحيل تأمين نجاح النشاط المنتج للمجتمع ، ومن ثم يصبح الوجود الأســاسى للانتاج الاجتماعى مستحيلا [١]) •

فى حين يكون من الضرورى التأكيد على أن الماركسية تؤكد أن الحياة الاجتماعية هى حياة عملية أساسا • فان ذلك يجب ألا يعنى تشويه سمعة النظرية • اذ يعتمد التأكيد على السياق • وحينما يرفض الماركسيون أى ميل نحــو المثالية فان ذلك لأنهم يصرون على أولوية الفعل • غــير أنهم حينما يواجهون بالمــادية الميكانيكية نجدهم يؤكدون على أهمية المثل ، والفكر المجدد ، والنظرية كموجه لنشاط الانسان المتحول فى المجتمع [٢] •

---

(1) Ibid., p. 16.

(2) Engels, F. Anti - Dühring (No Date), Chapter. 12.

وعلى حسب الماركسية ، يعتبر التناقض أساس كل التغيرات • يعتبر قانون التناقض الذى يعرف بعنوان وحدة المتناقضات هــو القانون الأكثر أساسية فى الجــدل الماركسى • وعلى حسب لينين : (يعتبر الجــدل فى أكثر معانيه ملاءمة دراســة للتناقض فى اطار الجوهر الأساسى للأشياء) • وفى مذكراتــه الفلسفية ، نجده يقتبس عن فيلو ألكسندرينوس — Philo - Alexandrinus ، الذى حدد فعلا ، فى العصور الكلاسيكية القديمــة أسس الماركسية أو الأسلوب الجدلى فى التفكير :

(حيث يتساءل أليست الوحدة هى التى تتركب من نقيضين ؟ • ذلك أنه من طبيعة الوحدة أنها اذا انقسمت الى اثنين ، يظهر النقيضان • أليس هــذا هو المبدأ الذى سلم به هيراقليطس Heraclitus فيلسوف الاغريق العظيم والمشهور باعتباره حجر الزاوية فى فلسفته ، ومن ثم فقد تباهى به كاكتشاف جديد ؟ [1]) •

وتوافق الماركسية مع هيراقليطس على أن التناقض يكمن فى جوهر الأشياء : وهو شامل ومطلق • اذ يوجــد التناقض كأساس للتغير فى كل العمليات منذ بداية وحتى نهاية تطور الأشياء • وفى مناقشــة الحالات الواقعية للتغير الكونى أو الاجتماعى أو الفردى ، تتكون الطريقة الماركسية من تتبع حركة المتناقضات (انقسام الواحد والمعرفة بأجزائه المتناقضة •• والمعرفة بوحدة هذه الاضداد) [2] •

وفضلا عن ذلك ، ينبغى ملاحظة أن المتناقضات ليست بالضرورة متضادة فى طبيعتها • وتعتبر الماركسية أساسا نظرية فى التغير من خلال الصراع ، غير أنها تسلم بنوع آخر من التغير الــذى يقع مستندا الى

---

(1) Lenin, V. I. Filosofskiye Terrady (1947), p. 263. (Editions Sociales, 1955, p. 279).
(2) Mao Ise - Tung, Selected works (1954), vol. 2. p. 50.

المتناقضات غير المتضادة • وقد سلم ماركس بذلك مبكرا منذ ١٨٤٥ ، حينما كان عمره ٢٧ عاما • غير أن المسألة التى أقرت بوضوح كامل فى العصـــور الحديثة بواسطة أحد مريديه تعنى أنه :

(يعتبر ركلا من التناقض والصراع شاملا مطلقا • غير أن الطريقة التى نتبعها لحل التناقضات ، وبعبارة أخرى ، أشكال النضال ، تختلف على حسب الاختلافات فى طبيعة المتناقضات • حيث تتميز بعض التناقضات بوجود العداء الصريح ، على حين أن أخرى ليست كذلك • وحينما نهتم بالتطور الواقعى للأشياء فان بعض التناقضات التى ليست عدائيـــة فى الأساس تتغير وتصبح عدائية • وبعض التناقضات العدائية فى الأساس تتغير لتصبح ليست عدائية) [1] •

وحينما نفكر فى التغير الاجتماعى ونحاول تحديد الأسباب ، فان التناقضات الرئيسية التى ينبغى أن نبحث عنها تنقسم الى ثلاثة أنواع :

١ ـــ التناقضات بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج •

٢ ـــ التناقضات بين الأســـاس الاقتصـــادى ، والبنـــاء الفوقى الأيديولوجى •

٣ ـــ والتناقضات التى قد توجـــد داخل البناء الفوقى ذاته •

وعلينا أن نتذكر أيضا أن قانون التناقض له فاعليته داخـــل نطاق التفكير الانسانى • وذلك يوفر لنا مجالا رابعا للبحث • ويعمل المنهج المـــاركسى فى دراســـة التغير على تحديد التناقضات الرئيسية • وذلك يوفر الأساس الذى يساعدنا على تفسير وفهم كل حركة برؤية ماركسية • وفى نفس الوقت ينبغى أن نكون على حساسية بحقيقة أننا نلاحظ عملية

---

(1) Text of Speech of Febrauany 27th, 1957, p. 2.

دينامية أو متغيرة أبدا . وذلك يعنى أن علينا أن نتوقع أن يكون التناقض الرئيسى من النوع الذى يســود لفترة محددة ، حيث ستظهر أشــكال للصراع داخل الحقيقة التى ندرسها ، وسنؤكد وحــدة الأضداد ذاتها ، وبنفى النفى ذاته ، ويخضع الجــديد للانقسام . الى عناصر جديدة ، وستمهد التناقضات العدائية الطريق الى التناقضات غير العدائية ؛ ويكون هناك انسياب أبدى على هذا النحــو . وبالاقتباس عن المذكرات الفلسفية للينين نجــده يقول :

(يدرس الجدل كيف تتحــد الاضداد ،وكيف تصبح متحدة وكيف تتغير ، وكيف تصبح متطابقة) ــ وتحت أى ظروف تحــول نفسها كل الى الآخر ومن ثم تصبح متطابقة ــ ولمــاذا لايرى العقل البشرى هذه الاضداد كأشياء متصلبة وميتة أو يرى فيها ذاتيات قابلة للتغير حية وجيدة ، تحــول نفسها كل الى الآخر) [١] .

وفى مجموعة الخطابات التى كتبت فى ١٨٩٠ ، ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ أسهب انجلز فى تحديد المبادىء الرئيسية التاريخية التى قام ماركس بصياغتها قبل ذلك . ففى خطابات أرسلها الى شمــيدت Schnidt ، ومهــرنج Mehring وستاركينزرج Starkenburg نجــده يحــدد بدرجة أكثر دقــة أنواع التفاعل والعمليات التى لها دورهــا فى انتاج الأيديولوجيا [٢] . وينبغى ادراك هذا المفهوم الرئيسى قبل أن نستطيع استيعاب وجهة النظر الماركسية بكاملها فيما يتعلق بالحقائق الاجتماعية . حيث كرر انجلز فى هذه الرسائل ذكر التمييز بين الأساس الاقتصادى والبنــاء الفوقى . ولم يلغ القانون الأساس الذى يؤكد أن وسائل الانتاج هى التى تحدد فى النهاية المفاهيم الفلسفية والدينية والفنية والأدبية ، وان كانت قد أضيفت اليه

---

(1) Lenin, V. I., op. cit., p. 76 (Fnench edit., p. 90). Cf. Engels, F., Dialectics of Natwe, 1940.

(2) Marx - Engels, Correspondance, p. 477 - 84, 510 - 12, 516 - 19.

تعديلات عـــدة وهامة • وتعتبر هذه التعديلات أساسية للغاية حتى أنها تتضمن تأكيدا جديدا تماما • وتتبنى نظرية المــادية التاريخية فيما يتعلق بهذه المسألة درجة من المرونة والمراوغة الملائمـــة لتعقد التفاعلات فى الجماعات الانسانية •

ويبدأ تحليل انجلز بأسلوب الانتاج • ويعنى به العمليات الانتاجية المحددة ، والآلات ، وقوة العمل ، ومستوى التطـــور الفنى ، وأسلوب التوزيع السائد ، وكل العلاقات المــادية الأخـــرى التى تتعلق باشباع الحاجات الفيزيقية لمجتمع بعينه • ويشكل أسلوب الانتاج بتحديده على هـــذا النحو الأساس الاقتصادى • وتوجـــد مجموعة معينة من القوانين التى تؤدى فاعليتها على هذا المستوى مستقلة تماما عن الارادة والوعى البشرى • وتحدد هذه القوانين بالاضافة الى علاقات الانتاج فى النهاية طبيعة كل العلاقات الشخصية والاجتماعية الأخرى •

وتظهر الى الوجود فى المرحلة الأولى من هـــذه الحتميات السببية بعض الأفكار والانعكاسات للأساس الاقتصادى • اذ يمكننا أن نجد أولا داخل أسلوب الانتاج ذاته فى مرحلة مبكرة ؛ تطورا محددا لتقسيم العمل الذى سوف يؤدى الى تباين المصالح • غـــير أن هناك فى نفس الوقت وظائف اجتماعية عامة ينبغى انجازها من أجـــل أن يبقى المجتمع حيا • بحيث تؤدى هذه الحاجات الاجتماعية الأساسية الى ظهور طبقة من الموظفين المنتقين ، أو الذين ينتقون أنفسهم ، لكى ينجزوا هذه الوظائف العامـــة فى اطار السياق الاجتماعى لتقسيم العمل • وفى هذا الصدد يشير انجلز الى وظائف مسك الدفاتر الاجتماعية ، وحسابات التقديم الزمنى لتنظيم الفصول ، وحماية عرف الجماعة الدينى والعلمانى ، وما الى ذلك • وبرغم ذلك فمن الحتمى أن يطور هؤلاء الموظفون العموميون مصالح تنفصل عن مصالح الجماعة المنتجة • وتصبح المهمة التى يعينونها لأنفسهم أن يظهروا أنفسهم كمستقلين (سياسيا) عن هؤلاء الذين منحوهم وظائفهم • وبهذه

الطريقة حسبما يذهب انجلز ، تظهر الدولة الى الوجـود • حيث تعتبر الدولة هى الانعكاس الأولى للأساس الاقتصادى • وربما أن كلمـة انعكاس لسـوء الحظ (وهى كلمة رئيسية فى فلسفة المعرفة الماركسـية ونظرية العمليات الاجتماعية) ، ليست محددة بدقة • وفى هـذا الاطار يوضح انجلز أن (انعكاسات) الأساس الاقتصادى تماثل الانعكاسات فى العين البشرية • اذ تنتج الصـورة فى شبكية العين بواسطة الضـوء المار خلال العدسات المجمعة • وهـذا يعكس الصـورة ويظهر الحقائق مقلوبة ، بحيث تبدو الأشياء مستقرة على رءوسها • وبذلك يصبح النسق العصبى (الذى يعمل فى مجال الرؤية الانسانية على اعادة قلب الصورة) مفقودا فى العملية الاجتماعية • ويقصـد انجلز بهـذا الاعلان البسيط الـذى يتحـدى به التفسير العلمى والموضـوعى ، أن ينقل فكره أن العـلاقات الحقيقة بين الدولة والانتاج (أعنى اعتبار أن موظفى الدولة طفيليون على المنتجين الأساسيين) تعيد المسار الخاطىء الى صوابه • وبعبارة أخـرى تبدو الدولة • كما لو أنها أساسية ، وأن العمليات الانتاجية ثانوية ، ويبدو ذلك صحيحا بالنسبة للمشاركين ليس فقط باعتبار أن الوظيفـة موضع الاهتمام ولكن أيضا بالنظر الى النتائج التاريخية • وبالتحديد يعتبر هذا الانعكاس الوهمى هو ما نعنيه بكلمة أيديولوجيا •

ويكشف صراع المصالح الذى يظهر فى هذه المرحلة المبكرة بين المنتجين الأساسيين وموظفى الدولة قبل كل شىء عن نفسـه فى شـكل الصراع السياسى • غير أن هـذا الصراع تكون طبيعته محددة بوضوح ، لأنه يظهر بشكل منعكس ومقلوب • ويتحول الصراع المباشر الى السيطرة على وسائل الانتاج ، ومن ثم يتحول الصراع الذى ظهر الآن بين طبقتين الى صراع سياسى • ويعتبر هـذا الصراع السياسى مجرد انعكاس وهمى معكوس للصراع الطبقى الـذى يقع على المستوى الأساسى للانتـاج الاقتصادى • ويعتبر الصراع السياسى على الأقل عند هذه المرحلة من التطور الاجتماعى نوعا من الملاكمة الوهمية •

واجمالا تشق الحركة الاقتصادية طريقها ، وان كان عليها أن تعانى بعض الآثار المرتدة عليها من الحركة السياسية التى أسستها والتى دعمتها بنوع من الاستقلال النسبى : فهى قد تأثرت بحركات قوة الدولة من ناحية ، وتأثرت بالتناقضات التى ولدتها من ناحية أخرى [1] •

وعلى حسب تصور انجلز يمكننا أن نميز فى نطاق التتابع المنطقى نفس نوع التطور الطبيعى الذى يلقى فى اطاره بمجالات مستقلة كالقانون والدين والفلسفة والعلم فى مسار هذا الصراع • وبرغم أنها تعتبر فى الأساس انعكاسات للأساس الاقتصادى ، فانها تبدأ فى تأسيس حياة مستقلة نسبيا ، بحيث يتبادل كل منها التأثير فى الآخر ويتأثر به • هذا الى جانب أنها تتفاعل أيضا مع الأساس الاقتصادى • وبمرور الزمن تتغير طبيعة ونوع التفاعلات بين الأجزاء المختلفة للبناء الفوقى ، وبين البناء الفوقى والتحتى ، وبين الأجزاء المختلفة للأساس الاقتصادى ، ولا يستطيع المرء أن يحدد مقدما ما هى الأقسام التى سوف تتفاعل بالتحديد • وأيضا لا يكون فى قدرتنا أن نتحدث عن مصادر التأثير الممكنة ؟ وما هو الناتج المحتمل بالتحديد ؟ • اذ ينبغى دراسة كل حالة واقعية باستخدام الطريقة الماركسية ، وينبغى اصدار قرارات محددة ، وانجاز أفعال ملائمة كمواطنين مشاركين • فالحركة العامة للتاريخ واضحة ؛ والتحتم النهائى للأيديولوجيا بواسطة العلاقات والعمليات الاقتصادية مسألة مؤكدة • غير أنه من المناقض للجدل أن نسلم باعتبار الأساس الاقتصادى والبناء الفوقى الأيديولوجى كمتضادات متنافرة لا تتغير ، كما أنه لا ينبغى أن نشكل فكرنا بصورة مطلقة بالنظر الى السبب الرئيسى أو النتيجة الناتجة •

وتستمر العملية بكاملها فى شكل التفاعل (الذى برغم كونه بين القوى

---

(1) Marx - Engels, Correspondence, p. 480.

غير المتساوية أساسا ، فان الحركـــة الاقتصادية تصبح هى الأقـــوى والأكثر أساسية وحسما) [1] •

ومن الطبيعة الرئيسية للأيديولوجيا (ســـواء أكانت دينية أم فلسفية أم علمية أم دينية أم فنية أو تتصل بالوعى المشترك) أن العلاقات بين الظواهر تظل مجهولة • وكما اتضح لنا ، تظهر هذه العلاقات بشكل معكوس فى العادة • اذ تعتبر الأيديولوجيا عملية شعورية وان كانت تستمر على أساس من الوعى الزائف • فمن خصائص انتاج المـــادة الأيديولوجية أننا نشارك فى التفكير بدون أن نكون على وعى بالعمليات البعيدة التى تحدد فى الحقيقة مضمون فكرنا • وطالمـــا أن المحددات الحقيقية للفعل الاجتماعى ينبغى أن تبقى مجهولة الى الأبد بالنسبة للأيديولوجى ، فانه كتعويض لذلك نبتكر محددات زائفة • وبعبارة أخرى ، يمكن ادراك مصادر التجديد الاجتماعى فى اطار تفكير وهمى معكوس رأسا على عقب بدرجة أكثر أو أقل • ولذلك تشترك مثل هذه التصورات الدينيـــة والأفكار الفلسفية ، والنظرات الأدبية العميقة ، والتعبير الفنى والنماذج العلمية فى خاصية أنها تنال احتراما زائفا من قبل هؤلاء الذين يتمسكون بها كذوات لا تتطلب أى تبرير أكثر من مجرد وجودها • ويسلم انجلز بأن البناءات الأيديولوجية تمتلك استقلالا نسبيا خاصا ، وهى قـــد تؤثر فى الحقيقة على العمليات الاقتصادية • غير أنها تكشف فوضى أساسية كامنة فى حقيقة كونها مجرد انعكاسات اقتصادية ، حيث كل شىء مقلوب رأسا على عقب • ومـــن الحقائق الثابتة أن الأيديولوجيا لها رد فعل على الأساس الاقتصادى لتعدل منه : غير أنه من المهم للغاية أن نلاحظ أن أسلوب الانتاج عنصر رئيسى فى التحليل النهائى ، أما الأيديولوجيا فهى ثانوية ، وأن الأساس الاقتصادى ســـوف يكون له طريقه • ويعتبر معرفة هذه الحقيقة والتسليم بها هـــو ما يميز النزعة الخيالية عن العلم •

---

(1) Marx - Engels, Correspondavce, p. 484.

ويمكننا أن نكتشف فى اطار الأيديولوجيا ذاتها بعد الحقيقة اللاحقيقة reality - irreality • حيث يسمو الدين والفلسفة كثيرا على العلم والسياسة والقانون • وذلك لسببين : أن العلاقة المتبادلة بين الدين والفلسفة من ناحية وبين الحقيقة الاقتصادية من ناحية أخرى أكثر غموضا ، حيث ورثت (كما يعبر انجلز عن ذلك) الفلسفة والدين مخزونا كبيرا من مستودع ما قبل التاريخ • وفى هذا الاطار نجده يقدم مفهوما غير واضح اذ يؤكد أن التصورات الزائفة فى الدين والفلسفة (الأرواح ، القوى السحرية ، والأفكار الخاطئة فيما يتعلق بالطبيعة ووجود الانسان) تظهر فى فترات ما قبل التاريخ بالنظر الى أساس اقتصادى سلبى [1] • وتميل هذه الأفكار الزائفة الى التأثير فى الانتاج سلبيا ، اذ تعمل على الحفاظ عليه فى مستوى أدنى ، وقد يعنى ذلك تحول الموارد الانتاجية من الاستخدام الاجتماعى الى اشباع آلهة محددين ، أو لتجهيز المستقر النهائى للملوك • ومن الصعب أن نفهم ماذا يعنى (الأساس الاقتصادى السلبى) اذا لم تتحدد طريقة انجلز هذه فى القول بأن المقولات الكثيرة للسحر الأرواح والآلهة تتخلق تلقائيا • وتعتبر هذه الأفكار متناقضة بصورة مطلقة مع التصورات الرئيسية للماركسية • ومرة أخرى نجده يصوغ تأكيدا آخر يبدو متناقضا مع افتراضاته الأساسية حيث التأكيد على أن محاولة تحديد الأسباب الاقتصادية لكل هذا اللغو البدائى الفارغ [1] قد يصبح نوعا من الحذلقة •

وبرغم التأكيد على الطبيعة غير الرشيدة للأيديولوجيا ، تصر الماركسية على أن المجتمع يتشكل من الفاعلين الواعين الذين يعملون بترو وعاطفة نحو تحقيق أهداف محددة [2] • اذ لايعتبر التغير نتاجا لقوى ليست شخصية عمياء • وانما هو نتاج لتقابل الارادات والأفعال البشرية التى لا حصر

---

(1) Ibid., p. 482.

(2) Engels, F. Ludwig Feurbach. op. cit., p. 58.

لها • اذ لا يقع شيء بدون غرض نشعر به أو بدون هدف بشرى مقصود • غير أنه ينبغى أن يلاحظ أن ارادة البشر بعينها هى التى تحـدد قوى الاحـداث ، وذلك هو الذى يجعل التغيرات الاجتماعيه فيما يتعلق بهـا تبدو ذات طبيعة عرضية أو متقلبة • اذ تعتبر الارادة العامـة نوعا من القرار الوسط الذى قد لا يقبله أى فاعل بمفرده [١] • وحينئذ تبـدو الصدفة وكأن لها السيادة • وان كانت الصدفة ذاتها تتأسس من عديد من الأسباب المتنوعة وغالبا المجهولة ، والتى يسهم كل منها بقدر يسـير فى النتائج ، اذ تسـود السببية ، وان ظلت طبيعة قوانين التطور الاجتماعى مجهولة بالنسبة للمشاركين • فهم يكونون على وعى فقط بالتناقض بين مقاصدهم والنتيجة العامة [٢] • وينبغى أن تتحدد العلاقة السببية بين الواقعة والأسباب المحتمة لها أساسا عن طريق تحليل كل موقف بعينه • وتساعدنا الماركسية لكى نقول بطريقة عامة أن التحليل سـوف يكـون مفيدا الى حـد كبير اذا نحن بدأنا من تطور قوى الانتـاج • وتعتبر طبيعة العلاقات الطبقية ، والعلاقات بين التأسيسات الأيديولوجية ، وبين هذه التأسيسات والأساس الاقتصادى ، والتوازن بين القوى الطبقية ، العناصر الأكثر أساسية بالنسبة للموقف الكلى الذى ينبغى أن يتجه الانتباه اليه عند كل مرحلـة • وينبغى النظر الى المشاركين الاقرار فى العمليـة الاجتماعية كممثلين للطبقة • اذ قد يكونون على وعى بدرجـة أكثر أو أقل بتحالفهم أو مصلحتهم الاقتصادية ، غير أنهم يميلون فى ذات الوقت الى كل أنواع أوهام البناء الفوقى • بحيث تعمل هذه الأوهام على تعقيم طبيعة العلمية الاجتماعية التى يشاركون فيها • ثم هى أيضا تهتم ، بدرجة أكثر أو أقل ، العلاقة بين الأفعال الاجتماعية والمصلحة الطبقية [٣] •

وتعتبر النظرية الماركسية للتغير الاجتماعى أداة عقلية هائلة ، فقـد

---

(1) Marx - Engels, Correspondence, p. 518.
(2) Cf. Letter to Bloch, Ibid., pp. 475 - 7.
(3) Cf. Letter to Bloch, Marx - Engels, Correspondence, p. 511.

دفعت الى ظهور جــدل كبير ، حيث ظهر النقد من وجهات نظر أخلاقية ، وفلسفية ، تاريخية وسياسية وجوانب أخرى كثيرة • وليس من المفترض أن نفصل فى هذه الانتقادات ولا أن نقيم النظرية من أية وجهة نظر عاماً • وبدلا من النقد فقد يبدو أكثر فائدة بالنسبة لهذه المرحلة من تطور النظرية الاجتماعية أن نوافق على الماركسية كنموذج فعال للتغير الاجتماعى ومن ثم يمكن الاستفادة منها • ويمكن انجاز ذلك عن طريق اختيار المــدى الذى تسير فيه الماركسية الفهم الشامل لتحديد اجتماعى أو موقف اجتماعى بعينه • وبعبارة أخرى فانه من الملائم أن تعتبر النظرية اسهاما فى العلم الاجتماعى بدلا من نقدها بشكل عام باعتبارها مذهبا سياسيا • وحينئذ يصبح من الضرورى اختبار الى أى مدى تكون المفاهيم والفروض العامة صادقة فى أمثلة بعينها • فاذا قمنا بهذه المحاولة فاننا بذلك نوافق على مسلمة أساسية تتعلق بأن العلم الاجتماعى ، كأى علم آخر ، يتقدم عن طريق اثبات زيف الفروض من خــلال الاختبارات الامبيريقية وليس كنتيجــة للنقــد الفلسفى •

الفصل الثانى

التوازن والتغير الاجتماعى :

الاتجاه الوظيفى عند مالينوفسكى (*)

تفترض نظرية الاتجاه الوظيفى التى أسسها مالينوفسكى أن كل العمليات الاجتماعية محددة سببيا • وتبرز أهميـــة الاتجاه الوظيفى فى الفكر الاجتماعى من حقيقة كونه يطبق مبدأ السببية على كل عناصر الثقافة بلا استثناء • اذ ينبغى فهم الثقافة بالمعنى الأنثروبولوجى على أنها تتضمن العادات والتقاليد والمصنوعات المادية ، والرمزية وعلى حسب نظريـــة مالينوفسكى لا ينتمى الى هذا النسق أى شىء ناتج عن الابتكار العشوائى • فكل عنصر له تبريره السببى • وعلى هـــذا النحـــو ، ينبغى أن يشبع أى

(*) ولـــد برنســـلاو مالينوفسكى Bronislaw Malinowski (١٨٨٤ - ١٩٤٢) فى كراكو Cracow ببولندا Poland . وقد نال تدريبا فى الكيمياء الطبيعية قبل قدومه الى لندن . غير انه تحول الى الأنثروبولوجيا الثقافية تحت تاثير عـــالم النفس الألمـــانى فلهلم فـــوندت Wilhelm Wundt • وقـــد أنفق فترات طويلة ، خلال توليه لمنصب استاذ كرسى الأنثروبولوجيا فى جامعـــة لنـــدن (بمدرســـة الاقتصـــاد بلندن London school of economics) يجرى بحـــوثا ميدانيـــة فى ماليزيـــا Melanesia وغينيا الجـــديدة New Guinea وقـــد درس أيضـــا هنـــود الهوبى فى اريزونـــا Houi Indians in Arizona وبعض القبائل الأستراليـــة ، وجماعات الشـاجـــا Chagga فى شرق أفريقيا وهنود الزاتوك بالمكسيك Zatopec Indians of Mexico وقـــد منحـــه بحثـــه عن سكان جزر التروبرياند Trobriand Islanders ، الذين نشر عنهم كثيرا من البحوث المتميزة ، بصفة خاصة سمعة عالمية كملاحظ عن قرب لحياة وثقافة الشعوب البدائية .

وقد انفق بعض وقته فى أمريكا ، يحاضر فى كثير من جامعاتها ، وقد تم نشر عدد من مؤلفاته النظرية من مخطوطاتها الأصلية بعد وفاته .

شيء جديد حاجة انسانية معينة قبل تضمينه فى النسق الثقافى ، وقد تكون الحاجة بسيطة لكونها مشتقة بشكل مباشر عن طبيعتنا ككائنات عضوية حية ، وقد تصبح حاجة مشتقة أكثر تعقيدا وحينئذ يعتبر ظهور أى تجديد فى النسق الثقافى واستمراره جزءا من نفس العملية الشاملة التى تخضع للقانون [١] ، الذى يربط فى نفس الوقت الكواكب بأفلاكها والذى يفرض على الرجال فى الغرب أن يلبسوا رباط عنق أسود مع لباس السهرة .

ويعتبر قانون البقاء Systematic أكثر المحددات أهمية ، وفى ذلك ليقول مالينوفسكى :

(ليس فى مقدور أى نسق محورى من المناشط أن يستمر بدون أن يكون مرتبطا بالحاجات الانسانية واشباعها بشكل مباشر أو غير بماشر . ومن ثم ينبغى أن يتضمن فهم أى عنصر ثقافى تحديد علاقاته الأدائيـــة والمباشرة باشباع الحاجات الأساسية ... وبايجاز يؤدى نقص الانجاز الفنى أو مخالفة قواعد التعاون ، أو اساءة معاملة البشر والموضـــوعات الى عقاب صارم للكائن العضـــوى قـــد يوقف التتابع الأدائى [٢] .

ويمكن تشخيص ذلك كنظير لنظام الطبيعة عند روسو بحيث يلائم كل جوانب السلوك الانسانى . أو أنه تعميم للمبـــدأ الداروني المتعلق بالانتخاب الطبيعى بحيث تكون له فاعليته على المجتمعات بكاملها ، وعلى كل عنصر منفرد من عناصر ثقافة الجماعة . أو أنه توسيع لمبدأ المنفعة لبنثـــام Bentham لتفســـير البقاء المستمر للمقتنيات art facts الثقافية فى الحياة الاجتماعية أو توضيح اختفائها حينما تستنفد فائدتها .

ومن وجهة النظر العملية تكمن أهمية الاتجاه الوظيفى فى أنه يقدم

---

(1) Malinowski, B. (1960), p. 142.
(2) Malirowski, B. (1960), pp. 53, 141; Cf. Malinowski, B. (1945).

اطارا تحليليا يمكننا عن طريق استخدامــه أن نجــرى تحليلا منظما Systematic لأى مجتمع ، أو لأى نظام اجتمــاعى • ويعتبر الاطار التحليلى لمالينوفسكى فى هــذا الصــدد هام وشامل • حيث يمكن استخدام المقولات التحليلية لتحليل الأنساق الاجتماعية الساكنة والديناميــة • وأيضا توضيح تشريح وفسيولوجيا النسق الاجتماعى • حيث يجــد كل عنصر مكانه فى الاقتصاد الكلى للنسق الاجتماعى •

ويعتبر مالينوفسكى النظام [1] وحدة التحليل الثقافى • وذلك يعنى أن تحليل الثقافة يمكن أن يبدأ بالتسجيل الكامل للنظم التى يمكن أن توجد بها ــ هذه النظم كالتنظيم العائلى ، وجماعات العمر ، والجماعات الثقافية وأنساق الطائفة ، تنظيمات المدينة ، والمجتمعات السرية ، وما الى ذلك • اذ يمكن تناول هذه النظم باعتبارها تشكل الجزئيات الاجتماعية • ويمكن أن يقدم لنا التحليل الأكثر عمقا باستخدام الاطار الوظيفى صورة أكثر اكتمالا للمجتمع الفعال وظيفيا ــ شريطة أن يتضمن ذلك وصفا للعلاقات الداخلية لهذه النظم الكثيرة داخل النسق الاجتماعى • اذ يعتمد وجود أى نظام على الاتفاق بين أعضائه حــول مجموعة من القيم • هذه القيم عادة ما تكون ذات طبيعة تقليدية (كما هى الحال مثلا فى الأسرة) حيث تتجمع القيم كأحد أساليب تحديد الأهداف والأغراض التى يرتبط من أجلهــا البشر بالنظام الاجتماعى • وذلك يعنى أن الأفراد موضع الاهتمام يدخلون فى علاقات محددة كل مع الآخر ، وأيضا مع الجوانب الفيزيقية للبيئة [2] •

ويمكن تحليل كلّ نظام بالنظر الى المقولات التى نصل اليها استنادا الى بعض الافتراضات المنهجية : فاذا تناولنا هــذه الافتراضات مــع بعضها فانها تضيف نوعا من السلوكية الاجتماعيــة • ويحــاولْ الاطار

---

(1) Ibid., pp. 52 ff.; (1945), p. 50.
(2) Ibid., pp. 162 - 72, 110.

التحليلى المشتق من هذا المدخل العلمى للثقافة أن يستبدل العوامل الموضوعية الحتمية بالعوامل الذاتية • ومن ثم فهو يهتم بالفعل الاجتماعى والنتائج الموضوعية للفعل ، ولا يهتم اطلاقا بالدوافع الفردية • ويبحث الباحث الوظيفى عن القوانين العامة التى تضم أكبر عدد ممكن من الحقائق مع بعضها بعضا • ولا تكتشف هذه الحقائق عن طريق التأملات الفكرية المتعلقة بالمعطيات الاستيطانية ولكن عن طريق الملاحظة والتجربة فيما يتعلق بالسلوك الشائع فى منطقة محددة • وتصبح المشكلة الرئيسية والهامة فى هذا النوع من الممارسة العلمية هى أن نكتشف طريقة معينة لتحديد وضبط المعالجة الأكاديمية • ويصبح هدف عملية الضبط هى التأكيد على أن النتائج المستنتجة سوف تستند على العمل الامبيريقى المنظم الذى يصف حقيقة خارجية دون أن يعتمد على البلاغة الأدبية الرقيقة التى تفتقد أية مراجعة واقعية • وفى هذا الاطار يذهب مالينوفسكى :

(ينبغى أن تبدأ كل نظرية علمية من الملاحظة وتعود اليها • وينبغى أن تكون استقرائية ، يمكن التثبت منها عن طريق التجربة • وبعبارة أخرى ، ينبغى أن تشير النظرية الى الخبرات الانسانية التى يمكن تحديدها والتى عادة ما تكون شائعة بطبيعتها ، أعنى أنها فى متناول أى باحث ملاحظ • والتى عادة ما تكون متكررة ، ومن ثم مليئة بالتعميمات الاستقرائية أعنى أنها ذات قدرة على التنبؤ [١]) •

ويمكن تفسير هذه الفقرة لتعنى أنه فى حالة وصف ثقافة بالاستعانة باطار تحليلى معين ، فاننا يجب ألا نبدأ بالعناصر الغريبة أو المثيرة ــ وهى الطريقة التى قد لا تكون مدخلا علميا برغم أنها قد تكون صالحة لقصة رحالة أو للطريقة الصحفية • بل ينبغى أن نبدأ بالاشباع العادى اليومى لمعظم الحاجات الأساسية للانسان • وتصبح مهمتنا هى أن نحدد علاقة

---

(1) Malinowski, B. (1960), p. 67.

هــذه الحاجات واشباعها بالسلوك المنظم للبشر فى الموقف الاجتماعى السائد (فالانسان لا يحيا بالخبز وحده ولكنه يحيا بالخبز أساسا [١]) .

فاذا ابتعدنا عن نقطة البدء هذه ، فان علينا أن نهتم بعــد ذلك بالحاجات المشتقة غير المباشرة والأكثر تعقيدا . وهى بالتحديد لازمــة كالحاجات البيلوجية الأساسية . وبرغم أنها قد تكون من الناحية المنطقية ثانوية ، وأنها قد تكون مشتقة بصفة كاملة من الناحية التاريخية ، غير أن طريقة العلم تتكون من تأكيد علاقة هذه الحاجات الروحية والاجتماعية والاقتصادية (واشباعها) بالحاجات الأساسية ، وعلاقتهما معا بنســق من القوانين العامة ذات الطبيعة التفســيرية [٢] . ولا يتضمن ذلك على الاطلاق أنه مفروض علينا أن نرجع اللزوميات الاقتصادية والاجتماعية والروحية الى الحاجات البيلوجية المتعلقة بالمأكل والمشرب والنوم والاتصال الجنسى وقضاء الحاجة de Faecating . وعلى العكس ، ترتبط الحاجات البيلوجية والأساليب المتبعة لاشباعها بشبكــة من الأشكال والتقاليــد والعادات والأساطير والجزاءات الاجتماعية ، وما غير ذلك . وعلى حسب وجهة نظر مالينوفسكى ليس هناك نطاق للسلوك البشرى تلقائى دائمــا (بمعنى كونه طبيعيا) : فنحن نأكل ونشرب وننام وما غير ذلك على حسب أساليب معينة أصبحت شائعة فى نموذج مجتمعنا . ولا يدعى المدخــل الوظيفى أن يتنبأ بطريقة حل أى مشكلة فى أى سياق ثقافى بعينه ، كمــا تستطيع البيلوجيا أن تتنبأ بالطريقة التى ســوف تشبع بهــا الحاجات الأساسية بواسطة كائنات أو حيوانات معينة فى حالة الطبيعة . فما يذهب اليه المدخل الوظيفى يتمثل فى أنه ســوف يمكن حل المشاكل الانســانية والاجتماعية من حيث طبيعتها الأساسية ، بواسطة الاستجابات الثقافية طالمــا أن هــذه المشكلات شاملة وعامة . وتشتق اللزوميات الثقافية

---

(1) Ibid., p. 72.

(2) Malinowski, B. (1960), pp. 85 ff., 120 ff.

من ثلاثة مجموعات من الشروط : الضرورة البيلوجية ، البيئة ، والاستجابات الثقافية القائمة فعلا • ولم يكن قصد مالينوفسكى أن يرجع كل المعطيات الثقافية الى اطار فج من الدوافع البيلوجية البسيطة والملحة • الى جانب أنه لم يحاول أن يفصل الجوانب المادية للسلوك الاجتماعى عن الجوانب الرمزية • فقد كان يميل نحو التسليم ببعض المسائل كالوعى ، والأفكار والحقائق الروحية ، والقيم ، والمثل ، والمعتقدات وما الى ذلك — غير أنه أكد أيضا أن هذه المسائل يمكن تحديدها بدقة كى يمكن اثباتها بشكل صريح ، أو بعبارة أخرى فى السلوك الملاحظ (١) • وتكتسب الرموز حقيقتها من خلال متتالياتها الاجتماعية فقط • اذ لايمكن أن تصبح الفكرة الجميلة أو الأغنية أو الحديث موضعا لاهتمام البحث العلمى برغم بقائها غير منطوق بها أولا يغنيها أو يقرؤها ولا يسمعها أحد • حيث لا يتضمن أىّ منها حقيقة ثقافية من أى نوع •

وفى أعقاب تحديدنا الافتراضات المنهجية الأساسية لمالينوفسكى . نهتم الآن باطاره التحليلى • ومن المنطقى أن نبدأ بالنظام طالما أنه الوحدة الاجتماعية • ومن المقنع أن نبدأ فى تحليل أى نظام بميثاقه Charter (٢) • حيث يحدد هذا الميثاق القيم (الأهداف والمقاصد) التى ينظم بها البشر التجمع ويشاركون فيه فى اطار النظام • اذ لايستشار الفرد فى معظم الحالات حقيقة ، عما اذا كان يرغب فى المشاركة ، بل عادة سوف تطبق الجزاءات عليه اذا هو قد حاول العزوف عن المشاركة • ويمكن أن نستشهد بالأسرة كمثال فى هذا الصدد • اذ يحتوى ميثاق الزواج عادة (الذى يتوقع من الأسرة بمرور الوقت) على تحديد الوقاع الجنسى ، وانجاب الأطفال ، وحقوق الثروة وما الى ذلك • ويحتوى نظام العائلة ارتباطا وثيقا بأعضاء آخرين • ويتضمن ذلك المعاشرة ، وطقوس

---

(1) Ibid., p. 23.
(2) Ibid., pp. 52, 140, 162.

الاحترام وأشكال المخاطبة المحددة بين الأجيال الكثيرة داخل الجماعـة ، وما الى ذلك . ومن الصعب أن يخضع أعضـاء النظام متضمنات هـذه المواثيق العديدة لنوع من الفحص الدقيق . أو يصادقون بشكل تام على الشروط المكلفة التى لم يشـاركوا فى صياغتها . فنحن لا نطلب أن نولد : وليس لنا خيار فيما يتعلق بالتراث الثقافى الذى ينقله آباؤنا . وغالبا ما يحـدد اختيارنا لرفيق الزواج ، حيث يفرض علينا التقليد الاجتماعى بأساليب غير مرئية بعد اصدارنا القرار المتعلق بذلك ، أن ندخل فى علاقـة تعاقدية . ومن المؤكد أن يعتبر نموذج الأسرة التى نولد فيها ، أردنا أم لم نرد ، هى تلك التى تشبع حاجاتنا الأساسية ، فى الأحـوال العادية ، وسـوف نعمل أيضـا على خلق حاجات جديدة ، وتأسيس أساليب جديدة ومعتادة لاشباعها . بحيث تقع هـذه العمليات الى حـد كبير خـارج وعينا . ومن ثم ، يميل كل منا فى الحقيقة الى اعتبار الأشكال المحـددة والخاصـة للنظم الاجتماعية التى تغذينا على أنها تلقائية وطبيعية .

وتتعلق المقولة التحليلية الثانية بالأشخاص [1] . اذ تنتظم كل جماعة انسانية مستندة الى السلطة . حيث يوجـد تقسـيم معين للوظائف ، ونمط لتوزيع الامتيازات والواجبات . وسيكون من الطبيعى أن تترابط العناصر البنائية بشـدة . كأن يمتلك نموذجا معينا للأسرة بناء محددا يستند الى تدرج الحقوق والواجبات . ترتبط أنواع محـددة من المكافآت والالتزامات بمكانة الفرد الناتجـة عن التقسيم الوظيفى الذى يسـاعد المجتمع ونظمه على البقاء . وتدعم الجزاءات ، التى ترتبط عادة بأى انتهاك للقواعـد المألوفة للنسق ، المحافظة عليه من تأثيرات التغـير الراديكالى . وتطبق هـذه الجزاءات عـادة بشكل مختلف ، بحيث يستند ذلك على مركز الشخص فى التدرج النظامى . ويمتلك كل مجتمع ، أو ينبغى أن يمتلك ميكانيزمات محـددة لكى يؤمن بقاءه كجماعة من جيل

(1) Ibid., pp. 52 - 66.

لآخر • ويتحقق ذلك عن طريق التأكيد على بناءات محـــددة بالنظر الى تقسيم العمــل ، والسلطة ، والحقوق والواجبات ، التى تتولد من خلال التغير المستمر للأشخاص • وتشبه الحياة الاجتماعية الى حــد كبير حياة الكائن العنصرى المعقد • اذ تمون الخلايا الفردية ، لكى تستبدل فى الحال وباستمرار بخلايا جــديدة تتولى القيام بوظائف الخلايا التى توقفت • وتعمل عمليات البناء والهــدم مع بعضها بعضا لتأمين استمرار بناءات الكائن العضوى وأدائه الوظيفى فى بيئته بدون أى تغيير رئيسى •

وتتكون المقولة التحليلية الثالثـــة المحـــددة للنظام من القواعـــد والمعايير [١] • وهى تضم المعايير الفنية المكتسبة ، والعادات والمعـــايير الشرعية والأوامر الأخلاقية ، وقواعد السلوك وما الى ذلك ، تلك التى يوافق عليها أعضاء النظام ، أو تلك المفروضـــة عليهم • اذ لا يوجـــد نظام اجتماعى بذاته : فكل مجتمع مضمن فى بيئة اجتماعية وطبيعية • وعليه أن يحصـــل على الموارد من البيئة لكى يشبع حاجات أعضائه • وهـــذا يتضمن المهام والمهارات التى تنفذ على حسب الطقوس والتسلسل الأدائى التقليدى • وتعتبر الثقافة فى جوهرها جهازا معقدا يضع البشر فى وضع أكثر ملاءمـــة من حيث قدرتهم على التعامل مع المشكلات الواقعية لبيئتهم • وتعمل الثقافة بالطريقة التى تســـاعد على تحـــويل اشـــباع الحاجات بدرجة أكثر وأكثر الى عملية روتينية • وتعمل هذه الصياغـــة الروتينية لاشباع الحاجات على المحافظة على الطاقة الانســـانية : اذ يمكن أن تتحقق ويحافظ على بقائها اذا أسهم كل شخص فقط بنصيب من الجهد على حسب القواعد التقليدية والمتفق عليها • ويعتبر تحـــديد الطرق القائمـــة لانجاز الأشياء وظيفة القواعـــد والمعايير : حيث تحدد ، بشكل صريح أو ضمنى ، حقوق وواجبات الشخص داخل بناء النظام [٢] •

---

(1) Malinowski, B. (1960), pp. 52 - 66.

(2) Ibid., pp. 53, 110.

ورابعا : توجد المناشط [١] • ولهذه المناشط أنواع كثيرة ، وهى تمثل النماذج الواقعية للسلوك الذى تؤكده القواعد ويصـــدق عليـــه ميثاق النظام • وتنحرف المناشط على حسب مالينوفسكى ، بشـــكل ثابت عن القواعد • وذلك بسبب أن الانجاز الواقعى يعتمـــد من جانب على قـــدرة الأعضـــاء ، وقوتهم وأمانتهم وارادتهم الخيرة • وتحدد القواعـــد الانجاز المثالى فى حين تمثل المناشط التجسيد الواقعى لمـــا هو مثالى • غير أن الواقع ينبغى أن لا يبتعد كثيرا عن المثال • ويتحدد الفاصـــل بالنقطة التى يتم الفشل عندها لانجـــاز التتابع الأدائى • وقد ينتج ذلك حيثما يوجـــد فشل مطرد فى الدقة التى تعكس بها الرموز الحقائق : أو قد يعزى الفشل الى حقيقة أن الحاجات ظلت غير مشبعة • وتحافظ الجماعة من خـــلال نشاطها على حيوية تراث المعرفة ، والقانون والأخلاق التى يعتمد عليها استمرارها •

وتعتبر وظيفة النظام [٢] هى المقولة الخامسة فى التحليل التصّورى • وهى تعنى النتيجة المكملة والموضوعية لمناشط الجماعة المنظمـــة • وتعتبر وظيفة السلوك فى أكثر جوانبها بساطة وأساسية هى اشباع الدوافـــع البيلوجية بواسطة الأفعال المناسبة • وتشبع حاجات الانســـان فى اطار الثقافة (وهى غير الحاجات التى يكون فيها الانســـان مجرد حيوان) بواسطة بعض المناشط التى يتعاون البشر فى اطارها ، يستخدمون الآلات ويستهلكون السلع • وترتبط الوظيفة ــ بقوة ــ بالحاجات • وتتصـــل الحاجات بدورها بالغايات أو القيم • ويكرر مالينوفســـكى دائمـــا أن البقاء هـــو القيمة الأكثر أساســا فى كل الثقافات • غير أن مايميز البشر هو أن حاجاتهم الأساسية والوسائل الثقافية لاشباعها ترتبط بحاجات جديدة ومشتقة [٣] تفرض عليهم حتمية جديدة وثانوية • وكما أشرنا سابقا

---

(1) Ibid., p. 53.
(2) Ibid., pp. 53, 118 - 19 Passim.
(3) Ibid., Chapters 10 and 11.

لا تشبع حاجاتنا الفسيولوجية بطريقة تلقائية أو طبيعية ولكن على حسب الأنماط الثقافية الجديدة والكاملة • حيث تعمل هذه الأنماط بالطريقة التى توحد بها الانسان ، والمجتمع والثقافة فى وحدة تتجاوز الدافع الحيوانى ، محولة اياه الى لزومية ثقافية • وعند هذا الحد فقد تحدد الوظيفة بأنها الدور الموضوعى الذى يؤديه النظام فى كل النسق الثقافى • ويقترب هذا التعريف من التعريف الذى قد يؤسسه الأنثروبولوجى الزائر للدور الذى يؤديه النظام داخل السياق الكلى للمجتمع الذى يتولى دراسته • ومن ناحية أخرى يشبه الميثاق الفكرة التى لدى الجماعة ذاتها عن النظام • فهو صياغة تفصيلية للأشياء التى يأملونها ويتوقعونها من النظام • ومثلما ينحرف diverge النشاط عن القواعد ، فان الميثاق والوظيفة لايتطابقان أبدا [1] • ويمكن أن يكون الفصل بينهما مصدرا للطاقة المتاحة بالنسبة للمجدد الاجتماعى • وحينما تصبح الفجوة بين مانرجوه وما نتحصل عليه فعلا واسعة ، فانه يصبح من المتوقع أن يشرع بعض أعضاء الجماعة فى تغيير الواقع لكى يقترب من المثال •

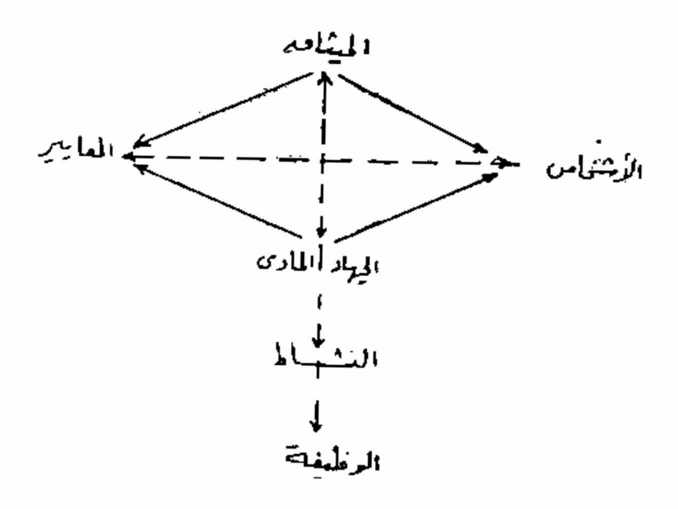
وأخيرا ، يوجد الجهاز المادى Material apparatus ويحتوى هذا الجهاز على كل عناصر الثقافة ، على سبيل المثال الأدوات ، النسق الاقتصادى ، أدوات الزينة ، الأدوات العقدية وما الى ذلك [2] • غير أن الجهاز المادى لا يتكون من مجرد الأشياء الموزعة على حسب علاقات مكانية معينة كل فى مواجهة الآخر وبالنسبة لأشخاص مجتمع معين • اذ تتناول العملية الثقافية الأشياء الطبيعية وتحولها • ومن ثم تكتسب مظهرا معينا من الدرجة الثانية ، حيث انها لم تعد بنفس صورتها التى شكلتها يد الخالق وانما طبعت بالتناول أو المعالجة الانسانية ، ومن ثم تطور عبيرا Aura أو تشيؤا يميزها عن الأداة الطبيعية • ومن ثم تصبح جزءا من

---

(1) Ibid., p. 53.

(2) Malinowski, B. (1960), pp. 36 - 42.

الثقافة : وتفقد طبيعتها الأصلية ، ولاتستعيدها ثانية • ويمكن توضيح العلاقات بين المقولات الكثيرة بالشكل التالى :



ويوجز مالينوفسكى هذه العلاقات كما يلى :

(ينتظم البشر فى ظل ميثاق يحدد أهدافهم المشتركة ويحدد أيضا أشخاصا ومعايير سلوك الجماعة • وبتطبيق هـذه المعايـير عن طريق استخدام الجهاز المـادى يشارك أعضاء الجماعة فى النشاط ، الـذى يسهمون من خلاله فى الوظيفة المتكاملة للنظام [1]) •

وبصورة أفضل يمكن فهم الاتجاه الوظيفى على أنه محاولة تطبيق مبدأ الانتخاب الطبيعى لكل عناصر الثقافة ، بدون استثناء • اذ يتصـل أى نسق من المناشط يشارك فيه البشر بأنفسهم بصـورة مباشرة أو غير مباشرة باشباع حاجاتهم • وعلى أساس من هـذا الفهم ، يعتبر النمط الثقافى نسقا تام التكامل من العادات التى تعمل لكى توفر الاشباع الأمثل

---

(1) Malinowski, B. (1945), p. 43 - Footnote.

فى مقابل الحـــد الأدنى من انفاق الطاقة • ويتحقق ذلك كنتيجة لحقيقة أن المناشط التى تكافأ تميل لأن تصبح محددة كاستجابات معتادة فى مواقف معينة • ومن ناحية أخرى ، فان الفشل فى دعم عادة معينة عن طريق المكافأة بسبب استبعادها من مخزون السلوك الثقافى • فاذا فشلت الثقافة فى اشباع الحاجات الأساسية يحـــدث أمران : امـــا أن يفنى الأفراد ويفشل المجتمع فى البقاء ، أو يعدل النمط الثقافى لكى يؤمن الحـــد الأدنى لاشباع الحاجات الأساسية •

ويعتبر تصور الحاجة need أساسيا بالنسبة لنظرية مالينوفسكى • وهو يعنى بهذه الكلمة مجموعة من الشروط التى تتولد فى الفرد داخـــل اطار الثقافة [1] • ويمكن ادراك الحاجـــة على أنها تعنى مجموعة القيود المحددة والمفروضة من قبل العلاقة بين الفرد ، وثقافته والبيئة الطبيعية • وتعتبر الحاجات العضوية والبيلوجية هى أكثر الحاجات أساسية • ويتصل بهذه الحاجات ؛ حاجات ثانوية مشتقة وأكثر تعقيدا ؛ يمكن تجميعها تحت عناوين الحاجات المتعلقة بالتكامل والحاجات المجددة والحاجات الأدائية • وتتمثل الحاجات الانسانية الأساسية فى الحاجة الى الطعام ، والدفء ، والمأوى ، واشباع بعض الدوافع البيلوجية المحـــددة • ونجـــد تحت الحاجات الأدائية تلك اللزوميات التى تصنف باعتبارها الحاجات السياسية والتعليمية والمعيارية والاقتصادية • ولدينا مثلها اللزوميات المتعلقة بالتكامل : وتحتوى هـــذه اللزوميات على المعرفة (العلم) والدين والسحر • وتتكون المجموعة الرابعة من اللزوميات المجددة كاللعب ، والفن ، والتجمع وما الى ذلك • ويذهب مالينوفسكى فيما يتعلق بهذه المقولات المختلفة الى القول :

(ينبغى أن تبدأ أى نظرية للثقافة من الحاجات العضوية للانسان ؛ فاذا نجحت فى تأسيس علاقة بين الحاجات غير المباشرة والأكثر تعقيدا

---

(1) Malinowski, B. (1960), Passim, but especially pp. 62 - 5, 91 - 131.

وربما ذات اللزومية التامة من النموذج الذى نسميه بالحاجات الاجتماعيه والاقتصادية والروحية ، فانها سوف تمدنا بمجموعة القوانين العامة . تلك التى نحتاج اليها لتأسيس نظرية علمية فعالة [١]) .

وينبغى تفسير هذه الفقرة بمعنى أن الانسان اذا ما تحرر من حتمية الطبيعة التى تضم كل الحيوانات الأخرى ، فانه يصبح ضحية وفى نفس الوقت وسيلة حتمية أخرى : هى حتمية الثقافة . وترتبط الثقافة ذاتها فى اطار نسق من القوانين الحديدية . اذ ترتفع حتمية الطبيعة الى قوة أعلى . ويبطل قانون الانتخاب الطبيعى طالما أن الانسان هو موضع الاهتمام . غير أنه يعمل الآن على مستوى النسق الاجتماعى والثقافى الذى يتضمن الانسان فى اطاره . ويؤدى أى فشل فى تتابع النشاط المعتاد ، كالفشل فى التعاون مثلا ، أو الفشل فى نقل الظواهر الاجتماعية والطبيعية الى رموز الجماعة ، أو الفشل فى توفير الأدوات ، حتما الى الفناء التدريجى لجهاز الثقافة بكامله ومعه الجماعة الانسانية [٢] . وذلك يعنى أنه لفهم أى من عناصر الثقافة فان علينا أن نحدد علاقته بالنسق الذى يتولى اشباع الحاجات البشرية داخل جماعة معينة حيث تعتبر الثقافة جهازا هائلا ، ماديا فى جزء منه ، وسلوكيا فى آخر وروحيا فى ثالث ، وهى تتأسس لكى تساعد الانسان على التكيف مع المشكلات الواقعية والمحددة المفروضة فى اطار الحياة داخل بيئة معادية . ومن خلال البيئة الطبيعية المعادية يحاول الانسان أن يخلق بيئة ثانية أكثر ودا : وهذه هى الثقافة ذاتها . فهى تساعده بذلك على التعامل مع الطبيعة لكى يدبر أساسيات حاجاته البشرية . وفى نفس الوقت تخلق الثقافة مطالب جديدة ، وفى الوقت نفسه تؤكد أن هذه الحاجات سوف تشبع أيضا [٣] .

---

(1) Ibid., pp. 72 - 3.
(2) Malinowski, B. (1960), p. 144.
(3) Ibid., pp. 68 - 9.

وعلى هذا النحــو تعتبر الثقافة انجازا فريــدا ومتمما للكائنات البشرية • وتعتبر كل ثقافة كاملة ، ومكتفية بذاتها طالمـا أن عليها أن تشبع مجموعة حاجات الفرد والجماعة • وتزودنا الثقافة بالقــوى والملكات التى تتجاوز امكانياتنا كأفراد منعزلين • غير أنها تفرض بعض القيود على خبراتنا ونشاطنا ، وهى قيود غريبة على أسلافنا الأول الشبيهين بالانسان والذين عاشـــوا حالة الطبيعة • وبهذه الطريقة يتحقق الاستقرار الاجتماعى وتستطيع الجماعة أن تنجز المناشط الضرورية للبقاء (انتاج وتغذية الجيل الجديد ، ثم نقل نمط الثقافة ، عن طريق الاختزال الصــارم لتلقائيـــة الفرد فقط) • حيث يخضع الحضور الكامل للارادة الحرة داخل الحدود القائمة للاهتمام بالتوازن والاستقرار •

وحتى هذا المستوى ، تشير نظرية مالينوفسكى الى نزعة اجتماعية محافظة • اذ يبدو أنه ليس هناك موضع للتغير فى نسقه النظرى • وقد أشارت الانتقادات لهــذا الفشل المفترض للاتجاه الوظيفى ، بدون أى اعتبار لحقيقة أن هذا العيب الواضح كان واضحا أيضا بالنسبة للعقول المدركــة فى المدرســة الوظيفية • حقيقــة أن المجتمعات التى تناولهــا مالينوفسكى فى بحثه الميدانى الأول كانت ثابتة نسبيا [١] • ومن ثم يصبح الاتجاه الوظيفى هاما بصفة خاصــة فى تفســير سبب استمرار هــذه الجماعات فى انتاج نفسها بأدنى قدر من المتغيرات على مــدى أجيال كثيرة • غير أنه حتى المجتمع الماليزى بتعقده ، وطبيعته المتكاملة يشهــد على تاريخ معقد من تجديدات المــاضى ــ ومن المستحيل أن نوافق ، ولو استنادا الى سلطة الأساطير Myths وقصص البطولة أن أى ثقافة قد ظهرت كاملة من ثقافة قديمــة تنتمى الى الله أو الى أى بطل • ويمكن معالجــة قضية التغير الاجتماعى فقط بالنظر الى الحتميات السببية : وذلك هــو أساس الجهــد لفهم الواقع الاجتماعى • وفى حالة الاهتمام

---

(1) Malinowski, B. (1937) and his other worts on Malanesian Society.

بقضية التغير الاجتماعى فى ضــوء الاتجاه الوظيفى فان علينا أن نبدأ بالاشــارة الى أن النظرية ليست مستبعدة أو انتقائية • فهى تســلم بالاضافة الى مبدأ الوظيفة مبدأين آخرين : التطور evolution والانتشار diffusion • حيث تعتبر هــذه العمليات عمليــات أســاسية يحــاول الاتجاه الوظيفى أن يضمها فى مركب واحد [١] • وفيما يتعلق بالتطور : يوافق مالينوفسكى على مفهوم الأصــول والتطور كمفهوم رئيسى لفهم التغير الثقافى • فهو يؤكد أنه لا يمكن أن يحــدث تجديد أو ثورة أو تغير اجتماعى أو عقلى أو نظام جديد أو نسق جــديد للعقيدة الا لكى يشبع حاجات جديدة • وبعبارة أخرى ، هناك عملية تكيف مستمرة تواجه فيهــا الثقافة الحاجات المتجددة للفرد والجماعة • وتنقح التجديدات الثقافية من خلال مصفى الانتقاء • وتبقى فقط تلك الأكثر ملاءمة لمواجهة الاحتياجات المحددة للموقف الثقافى • وتتمثل الثقافة عناصر جديدة أو تلفظها اذا لم تلائم احتياجات النسق القائم • اذ تعتبر الثقافة كلا متكاملا [٢] ، أو هى كل جشــتالطى Gestalt يتغير باستمرار لكى يتوافق مع الحاجات المتغيرة للجماعة وأيضا مع البيئة الطبيعية المتغيرة • حيث ينبغى تنظيم أى فكرة جديدة أو وحى دينى ، أو مصنوع ، أو وسيلة أو مبدأ أخلاقى قبل أن تكون له أية أهمية ثقافية أو اجتماعية • وهذا يعنى أنه ينبغى تناوله كجزء من نسق دينامى ، اذ ينبغى أن يصبح صراحة ملكية جماعية اجتماعيــة بعينها ، يؤثر على سلوكها ، قبل أن يعتبر اضافة حقيقية للثقافة • وهذا هو الجانب الآخر للانتقاء : اذ ينبغى أن ينال الشىء الجديد الموافقــة الاجتماعية • وذلك يعنى التأكيد على أنه ينبغى أن يشبع التجديد الثقافى حاجة مشعورا بها : وعلى هذا الأساس فقط يستطيع أن يكسب واقعية وحياة وموضوعية •

---

(1) Malinowski, B. (1960) pp. 17 ff., 24, 213 - 14.

(2) Ibid., p. 150 Malinowski, B. (1945), pp. 14 - 19. 20, 31, 74 ect. Malinowski, B., (1960), pp. 41, 215, 218.

ويعتبر مفهوم الانتشار أساسيا أيضا • وتتحدد هذه العملية بأنها استعارة لوسائل وأدوات ونظم ومعتقدات عـدة من ثقافة أخرى • ومن غير الممكن فى التحليل النهائى أن نميز بين التطور والانتشار • اذ تنتشر عناصر من ثقافة لأخرى على أساس أنها تشبع حاجاتها وتؤمن بقاءها • ويعمل الانتشار على أساس الاتصال بين الثقافات • ولكن هذا الاتصال لا يتوقف على فعل الاستعارة فقط • ولكنه يعتبر عملية مكملة ينبغى أن تنطبق عليها المقولات التحليلية للاتجاه الوظيفى [١] • ومن الواضح بالنسبة للوظيفى التطابق التام بين الانتشار والتطور : فكلاهما يهتم بالأصول • حيث يتركز الاهتمام فى الحالة الأولى على الأصول الناتجة عن الاتصال بثقافة أخرى ، أما فى الحالة الثانية فالاهتمام يتركز على الأصول عن طريق الابتكار • ولسوء الحظ لم يسهب مالينوفسكى فى الحديث عن العملية الثانية ، وانما قصر تحليله على حالة اتصال الثقافة وسجل فقط أنه يمكن أن تظهر التجديدات الثقافية من خلال المبادأة التلقائية أو من خلال عملية النمو • وهذا فى الحقيقة الجانب التطورى للتجديد • ولدينا فى اطار اتصال الثقافة عملية أكثر تعقيدا ، حيث تبقى من خلالها بعض النظم أكثر أو أقل تغيرا ، على حين تتعدل نظم أخرى ، ويوجد أيضا تطور تدريجى لنظم جديدة •

ويستند كل من التطور والانتشار على قدر من المرونة الموروثة فى الطبيعة البشرية [٢] • وتعتبر هـذه المرونة أساس الحاجات الجديدة • وهى تؤدى الى ظهور التطور (التلقائى) وأيضا الى ظهور الاستعارات الثقافية • وسـوف يؤدى موقف الاتصال ذاته ، حيث تتجاور ثقافتان وتختلطان فيزيقيا ، الى ظهور حاجات جديدة ، وتتعدل النظم القديمة • غير أن الاتصال الثقافى ليس عملية أخـذ وعطاء غير مفيد • وانما هو

---

(1) Malinowski, M. (1945), p. VII.
(2) Ibid., p. 8.

عملية توجه بضغوط وقوى محددة ، هــذه القوى تواجه بقوى محــددة للجمود الثقافى Cultural inertia التى تنبثق عن النسق ككل [١] .

ويصف مالينوفسكى تتابع التغير كما يلى [٢] . حيث توجــد ثلاثة مراحل للاتصال الثقافى . قبل كل شىء لدينا مخزون من النظم والمعتقدات والعادات الداخلية . وعادة ما يكون مركب الثقافة هــذا سلبيا ، ساكنا نسبيا ، وفى حالة من التوازن المستقر . تؤثر عليها ثقافة ثانية نشيطة ومن المحتمل أن تكون ضارة بها . وللثقافة الثانية اهتماماتها ومقاصدها ونظمها المتميزة . وثالثا ، هناك عملية الاتصال والتغير ، ويمكن أن يتخذ ذلك أى من الأشكال الثلاثة : الصراع ، التعاون ، المصالحة . وكنتيجة لذلك تحدث التغيرات التى تؤثر على كل من الثقافة الداخلية والدخيلة .

وتعتبر النظم هى وحدات التحول [٣] . حيث تشرع فى اتخاذ أشكال ووظائف جديدة طالمــا أن حاجات جديدة تظهر فى موقف الاتصــال . وتخضع كل العملية للقانون العلمى . وقــد يذهب الى أننا نتناول نسقا يتكون من كيانين معقدين . هــذا النسق انهارت حالة توازنه الأصلية . ووقعت تكيفات معينة داخل النسق فى اتجاه تحقيق مستوى أمثل مــن اشباع الحاجات . ومن ثم يستقر النسق فى حالة جديدة من التوازن [٤] . وعادة ما تكون التغيرات التى تقع داخل النسق متعلقة بتعديل أو الغاء النظم أو تنشيطها من جديد . حيث تشكل هذه النظم وحدات النسق . ويكون الناتج النهائى هو تكامل جديد ليس خليطا بسيطا مــن العناصر ولا هــو مجرد تجاور عناصر جزئية منتشرة . حيث تنمو حاجة جديدة

---

(1) Ibid., p. 19.
(2) Ibid., p. VII.
(3) Ibid., p. 19, pp. 15 ff., 26, 27, 74.
(4) Ibid., p. 27.

التكامل فى موقف الاتصال الثقافى ، وينمو موقف جديد متكامل لاشباعها • ويعمل النظام الجديد بالنظر الى وظيفة محددة من جديد •

ويختلف مالينوفسكى عن الانتشاريين الكلاسيكيين كراتزل Ratzel ، جرابز Graebner ، شمدت Schmidt وآخرين • فهو لم يؤكد على هجرة السمات traits أو مركبات السمات Complexes التى ترحل وتصبح متضمنة كنطاقات غريبة ومحاطة فى اطار محيط ثابت groundmass وتعبر صورته عن عملية من التبادل الدينامى بين شكل مهاجر مبنى structured بغزو محيط groundmass مبنى structured • ومن هذا الارتباط يظهر بناء أو وحدة أو كل جديد • ويعتبر ذلك حقيقيا حتى بالنسبة للمصنوعات المادية • فهى تكتسب نكهة جديدة ، وبالتأكيد وظيفة جديدة داخل الثقافة المستقبلة • فقد لا يتميز فيزيقيا لباس الأرداف لفتاة الكورس عن ريش الراقص الافريقى القبلى أو المظهر الاعلانى لعجيزة قرينته الافريقية • غير أن رقصهما له دلالة مختلفة ، وينجز السياق الطقوسى الذى يقع فيه الرقص (قد يتعلق مثلا بزعيم مهنى business tycoons يشاك فى نوع من الاستهلاك المتطرف) وظيفة مختلفة تماما فى مدينة ميتروبوليتانية اذا قورنت ببيئة الكرال Kraal الافريقية •

ولهذه الأسباب يتجنب الاتجاه الوظيفى دراسة تفصيلات الثقافة المنعزلة • فهو يعلن عن ضرورة أن يستعيد التحليل حقيقة النسق صاحب الأداء الوظيفى • والا حدث تحريف يفسد النظرية ويضلل الممارسة العملية • حيث يشبه ذلك اختلافا بين التشريح والفسيولوجيا ، بين الاستقرار والدينامية • اذ تشبه عملية الاستعارة الثقافية الى حد كبير عملية الهضم • اذ تفتت مضغة الطعام وتحول الى مواد تدمج فى بناءات جديدة وكما يذهب مالينوفسكى :

(لا يعتبر التغير الاجتماعى ناتجا مستقرا ••• ولا هو نسق من التكامل المؤقت أو الوحدة المتناغمة ••• ولا هــو خلط ميكانيكى • • • وانما تعتبر ظواهر التغير حقائق ثقافية جديدة ••• [1]) •

وبالنظر الى هذه الاعتبارات يصــور الاتجاه الوظيفى مسألة التغير الاجتماعى •

(1) Malinowski, B. (1945), p. 26.

الفصل الثالث

التحليل النفسى للشخصية والبناء والسياسة والتغير الاجتماعى

أجـبر سيجمـوند فرويـد Sigmund Freud (*) نتيجة لحقيقة منهجه فى تحليل العصاب neurotics (التداعى الحر Free asrociation) ، الـذى يتطلب ضرورة تحليـل أحـلام المريض ، علـى أن يؤسس

(*) ولـد سيجمـوند فرويـد Sigmund Freud لوالـدين يهـوديين بفرايبرج Freiberg . وهى مدينـة صغيرة فى مورافيـا Moravia ، التى كانت حينئذ جزءا من الامبراطورية النمساوية الهنغارية Austro - Hungarian Empire . وبعد ان امضى سنوات مدرسية ناجحة ، درس الطب فى جامعة فيينا Vienna ، وتخصص فى علم النفس . وبرغم ان مكتب البحوث بالجامعة وفر له فرصا للعمل فى علم الأعصاب neurology ، غير انه لسـوء المكافاة النقدية قرر فرويد الاتجاه الى العلاج الطبى كمعالج للامراض النفسية والعصبية وقد درس الهستيريا Hysteria والتنويم المغناطيسى فى باريس لمـدة سنة ٪ وبعد رجوعه الى فيينا ابتكر طريقة (التداعى الحر Free - association) التى حددت بداية حركة التحليل النفسى .

وبرغم الرفض العميق لرفاقه فى مهنة الطب ، فقد استمر فى بحث الحياة الجنسية والأوهام للمرضى العقليين الذين وفدوا اليه بأعداد كبيرة . وعلى مدى فترة تزيد على الثلاثين عاما درس مشاكل كثيرة تتعلق بالحياة النفسية والف كتبا كثيرة توضح وجهة نظر التحليل النفسى فى العصاب ، الحضارة ، التقشف ، ما قبل التاريخ والحرب ، الدين ، ومجالات كثيرة واخرى هامة .

وقد اعتقل بواسطة النازية فى معسكر الاعتقال كعدو للحضارة فى ١٩٣٨ . وقد وافق جورنج Göring على رشوة قدرها مليون دولار فضة دفعتها احـدى اتباعـه المخلصين (الأميرة بونابرت Pincess Buonaparte) وسمح لفرويد بالهرب الى لندن حيث توفى فى ١٩٣٩ .

اهتماما مهنيا بعمليات الابـداع • حيث تتحـدد البدايـة من اهتمامه بخيالات العلم : فقد كان عليه أن يبتكر منهجا لتفسير هذه الخيالات على حسب نوع من الاجراء المقنن [١] • بحيث يتضمن ذلك فهما للميكانيزمات المختلفة التى تحول فيها المـادة الخام للحياة اليومية الى نمط متماسـك بدرجة أكثر أو أقل (المضمون الظاهر للعلم) • وتفصل العملية الابداعية التى اكتشفها ، وبخاصة فى الرسم والحفر والفنون التخيلية الأخرى ، والأدب بالابداع فى الأحلام [٢] • وبالنظر الى ميله الشديد للنظر الى أى مسألة فى سياقها الشامل ؛ فانه قد اتجه بسرعة نحـو النظر الى الابداع كمشكلة عامة [٣] • فقد كان مهتما بكيف يمكن أن تتصل هذه النتيجـة بالعمليات اللاشعورية التى يدعى وجودها وراء الاشارات العصبية •

وفى أكثر المستويات عمومية ، يدرك فرويد أن كل السلوك البشرى يظهر من صراعات اللاوعى [٤] • وهو يعتقـد بامكان اكتشـاف جذور الصراع فى الطفولة المبكرة • اذ يظهر الصراع فى الحقيقة ، أساسا من دوافع اللاوعى المتعلقـة بالعدوانيـة agression والحب Love بين الطفـل وأبويه • وبالنسبة لفرويد تمثل قوة الصراع الأوربى Oedipus Conflict وطريقة تصريفه أكثر المصـادر قوة وتحتما بالنسبة لشخصية البالغ [٥] • حيث توجه الاكراهات Compulsion التى تنشأ عن الحاجات والرغبات الاوديبية السلوك عند الطفل • وتقدم الوسائل البيئية كوسائط بتوجيه دوافع اللاوعى أو اعاقتها أو تحويلها •

وبنفس القدر تنطبق نفس المبادىء على السلوك الفنى أو المبدع كما

---

(1) Freud, S. (1900), Die Iraumdeutung, 1953 ed., Chapter 2.
(2) Ibid., Chapters 5 and 6.
(3) Freud, S. (1905), 1908, 1910, 1914); Cf. Getzels, J. W. and Jackson P. W. (1962) pp. 88 - 93.
(4) Raeff, P. (1959), pp. 56 - 64.
(5) Mcleish, J. (1963) Chapter 11 For a Criticism of this View.

تنطبق على السلوك اليومى الشائع • اذ يتطلب السلوك الفنى تفسيرا بنفس المصطلحات الدقيقة وعلى حسب نفس المبادىء مثله مثل كل الأنواع الأخرى للنشاط البشرى • فبالنسبة للتحليل النفسى ، من غير المهم أن يميز المجتمع بين السلوك العصابى والاجرامى والسوى ، أو أية أنواع أخرى للسلوك • وأساسا ، ليس هناك تمييز بالنظر الى الأصول أو الميول المحتمة • ويذهب فرويد : الى أن القوى الدافعة للفنان هى نفس الصراعات التى تدفع البشر الى العصاب [1] • وتعتمد الطريقة التى يصنف بها الملاحظ ناتج هذه الصراعات على أنها (ابداعية) أو (عصابية) على الأسلوب الذى اتبعه اللاوعى فى حل مشكلة التوتر النفسى المتزايد على الدوام وهو التوتر الذى ولدته الغرائز • والى المدى الذى يكون فيه نموذج العملية العقلية ، والأهمية الواقعية للناتج بالنسبة للحياة النفسية للفرد موضع الاهتمام ، فان الابداع الفنى يتبع بدقة نفس المسار الذى اتبعه ابتكار الأعراض • اذ يعتبر كلا من الابداع العصابى والفنى ذا وظيفة دفاعية [2] • وتصرف الطاقة الشعورية الحبيس للدوافع الأوديبية بنفس الفاعلية عن طريق العرض العصابى أو الابداع الفنى • اذ ينكر كل من الفن والعصاب ادعاءات الواقع • وكلاهما يشير الى انتصار (مبدأ اللذة Pleasure) ويكمن الخلاف الرئيسى بينهما فى أن العصاب عدوانى ومدمر من حيث ميوله على حين أن العمل الفنى ايجابى وبناء • وبرغم أن المرض يؤدى دورا دفاعيا أساسا ، الا أنه لا يتيح تحقيق الامكان الكامل للمريض • ويعتبر العصاب معطلا ، فهو بمعنى ما مدمر للذات طالما أن المريض هو موضع الاهتمام • فى حين أن تخفيض التوتر من ناحية أخرى من خلال الابداع الفنى يكون فى اتجاه التقدم • ويحرر الابداع الطاقة فى الوسط الخارجى على كل مستويات النفس : حيث تنهار العوائق الداخلية ، ويرسى الأساس لنمو النفس فى المستقبل [3] •

---

(1) Freud, S., Collected papers, Vol. 4, pp. 178 - 80.

(2) Ibid., Vol. L, pp. 59 - 75.

(3) Ibid., Vol. 4, 181 - 2.

ولقد اعتقد فرويد أيضا فى وجود علاقة تطورية بين لعب الطفولة ، والابداع أو الحلم اليومى ، ولقد اهتم بهذه العلاقة من خلال وجهة نظره فى أن الصراعات الأوديبية تجد تعبيرا عنها من خلال كل من هذه المناشط ، التى تساعد على تقليل التوترات التى تولدها هذه الصراعات • وتتبع هذه العلاقات أيضا حقيقة أن المضمون الظاهر للانتاج الفنى ، أعنى ، ما يبدو أن الانتاج الفنى يتعلق به ، يشير صراحة الى خبرات ورغبات الطفولة المكبوتة •

وعلى حسب نظرية التحليل النفسى ، تعتبر الأمراض العصابية (محددة بصورة متطرفة Over - determined) • وذلك يعنى أن نقول ان الصراعات الشائعة تعلو على الخبرات المبكرة المؤلمة فى نوع من التتابع المستمر الذى يمتد الى الماضى وحتى الطفولة المبكرة • وعلى ذلك ، وبنفس الأسلوب ، لايعتبر الانتاج الفنى مجرد استجابة للخبرة الشائعة : وانما نجده يرتبط بصدى الخبرات المبكرة ، بما فيها خبرات الطفولة بصفة خاصة • ومثل الحلم اليومى ؛ يعتبر الابداع الخيالى استمرارا للعب الطفولة • وهو مثل اللعب يعتبر علاجا مسهلا • فهو يساعد على تفريج المشاعر التى تؤدى الى الانهيار حينما تكبت وربما الى العصاب • و (تتقولب) تلقائية الفنان استنادا الى حياة الطفل غير المنعكسة • وتتولد الطاقة النفسية ذات الأهمية بالنسبة للابداع فى اللاوعى • ويتلاءم القصد الفنى للوعى مع بعض الدوافع المكبوتة بشكل مؤقت • بحيث يتم التفريج عنها من خلال قناة محددة (انتاج الفن) بنفس الطريقة التى يعبر فيها الأطفال عن الرغبات المكبوتة من خلال اللعب ، أو البالغين من خلال الحلم • ويكون المراقب Censor خارج المراقبة فى الفن كما فى الحلم لأن الرغبات الأوديبية تحتال لكى تقدم اشباعا زائفا (مدمرا أو خاصا بسفاح القربى incertuous ، أو يأكل لحوم ، البشر Cannibalistic ، أو داعرا Obsceve) • ولأن الرقابة النفسية الداخلية تخدع خلال النوم عن طريق تحويل المضمون

الكامن الى رموز فى الحلم [١] • فان رمزية الفن على ذلك تساعد الدوافع المماثلة على الهرب متخفية الى النطاق العام •

وبالنظر الى هذا الارتباط المحدد ، الذى يسميه فرويد (بالتناغم Syntonicity بين الأنا واللاشعور) فان الاثنين يقعان فى خط واحد بالنسبة للفنان [٢] • ويجعل هذا التناغم (يعتبر انسجام القصد harmony of itent طريقة أخرى لوصفه ، ماعدا أن ذلك يتضمن عنصر التفكير الشعورى القريب على هذه النظرية) من الممكن تحقيق انجازات خلاقة ، ومحددة ، وكاملة حيث يكون اللاوعى قادرا على فرض دوافعه المكبوتة بأسلوب مفرط فى قوته على (الأنا) الذى يقاوم عادة من قبلها : فهو مفوض باكتساح كل معارضة فى طريقه ، طالما أنه يمتلك الدعم ، بالنسبة لهذه المناسبة ، بدلا من المعارضة النشطة (للأنا) • وتتمثل العملية السوية فى حياتنا النفسية فى كبت (الأنا) للأفكار (التلقائية) أو (الحرة التخلق) ويخنق النقد الذى يعتبر واحدا فقط من بين الميكانيزمات الكثيرة العدد ، التى فى متناول (الأنا) ليدافع عن نفسه فى مواجهة اللاشعور ، الفكرة عادة عند الولادة • أو أنه قد يجر الفكرة على التخفى ، ومن ثم يمنعها من الارتباط الحر مع الأفكار الأخرى التى لها علاقة بها • وبذلك تعاق هذه الأفكار المتصلة بها ، ومن ثم تفشل فى التعبير عن نفسها ويخنق الابداع • ويقهر العقل الخيال الى الدرجة التى يتأسس عندها عقم التفكير ويقتبس فرويد عن شيلر Schiller الذى يدعم فكرته :

(يبدو لى أنه فى حالة العقل الخلاق ، كما لو أنه قد سحب حراسه من على الأبواب : حيث تندفع الأفكار فى عجلة ، وحينئذ فقط نستطيع أن

---

(1) Freud, S., Die Traumdeutung (1953) edit, pp. 310 - 38, 339 - 404.
(2) Freucl, S., Collected papers, vol. 4, p. 121.

نستعرض ونفحص هذه الوفرة من الأفكار ، أنت تستحق النقد ، أو أنكم ، أيا كانت الصفة التى تطلقونها على أنفسكم ســوف تخجلون من الجنون المؤقت أو الدائم الذى يوجد عادة لدى المبدعين الحقيقيين • يعتبر دوام هذه الحال بدرجة أكثر أو أقل هــو الذى يميز تفكير الفنان من تفكير العالم • ومن ثم فتذمرك من العقم : أنك ترفض بسرعة ، وتميز بشدة)[1] •

ويعتقد فرويد أن الدافع البحثى يرتبط بحب الاستطلاع فى الطفولة ، وبخاصة فيما يتعلق بالأمور الجنسية وينمو هــذا النوع من حب الاستطلاع فى مرحلة مبكرة ، فى حوالى السنة الثالثة فى معظم الحالات • وترى نظرية التحليل النفسى أن حب الاستطلاع الجنسى يرتبط بقوة بقلق الطفل فيما يتعلق بالعلاقات القائمة بين الأم والأب • وفضلا عن ذلك ، تتجه كل قوى الكبت ضــد رغبة الطفولة هذه ، مثلما هى فى الحقيقة ضد أى تعبير تلقائى عن المسائل الجنسية خلال مرحلة الطفولة وتظهر ثلاثة احتمالات كنتاج لمرحلة الحضانة هــذه بين قوى الطبيعة وممثلى الحضــارة • الأول • أنه يمكن أن يقابل حب الاستطلاع الجنسى نفس المصير الذى لاقته الاظهارات الجنسية الأخرى للطفولة • حيث تخضع للقضاء عليها [2] • فاذا كانت • النتيجة على هذا النحو ، تم القضاء عليها كلية ، فســوف يتضاءل النشاط الحر للفرد بالنسبة للحياة ، وبذلك سيتم الغاء كل من الأصالة والشــعور الجنسى • وينتج هــذا الانجاز ، الذى يتحقق بجدية كاملة ، فى العادة نتيجة للترابط بين ميكانيزما فردى قوى للقهر • وبعض التحريمات الدينية والتعليمية والأبوية الهزيلة • وفى الاحتمال الثانى ، يصبح التطــور العقلى للفرد متقدما الى الدرجــة التى يستطيع عندها مقاومة قوى القهر غير أنه لا يمكن التغلب على هذه القوى تماما ، برغم أن النفس تنجح فى تخليص النتائج الضارة من قوتها الخانقة ويجبر الدافــع البحثى الى

---

(1) F. Schiller writting to Korner on 1 × 11 1788, quoted, Freud, S., interpretation of Dreams.

(2) Freud, S. Essays on sexuality (1963), vd. 4. p. 103.

الكمون ، حتى يتيح له ترابطه القوى التعبير عن ذاته • غير أن هذا الأسلوب من التعبير ســوف يتخذ فى العادة شكل البرهنة الملزمة • وتظل ابداعية الفرد عند مستوى متدنى نسبيا • ويتعثر الدافع نحــو التجديد ، وان لم يلغ كلية • وتحتاج الدوافع التلقائية التى تبقى أن تتحالف مع العقل النقدى والتحليل اذا كان لها أن تحيا على الاطلاق • غير أنه من الصعب أن تستمر هــذه الوحدة حية بين العقل والتلقائية : حيث ينبغى التضحية بالتلقائية • ويقدم الاحتمال الثالث النتيجة الأكثر تطورا من وجهة نظر الانجاز الفنى ، حيث تتحول الطاقة فى هذه الحالة ، تلك التى ارتبطت بطبيعتها بحب الاستطلاع الجنسى فى الطفولة • وتفقد هذه الطاقة أو التى قــد تعرف بالليبيــدو Libido ، طبيعتها الجنسية عن طريق عملية التسامى Sublimation • وبعبارة أخرى ، ينفصل الليبيدو كلية عن أصوله ويصبح متحــولا الى حب استطلاع • وبذلك ينقى الدافــع الجنسى البحثى فى الطفولة من العناصر الشهوانية ، ولا يصبح القهر ضروريا • وتصبح كل الطاقة (الوجدانيــة Cathexis) التى كانت فى متناول حب الاستطلاع الليبيدى ، موضوعة الآن بدون اعاقة أو حجز ، تحت طوع الدافع الفنى أو أى دافع ابداعى آخر • وحين ذاك يفقد الدافع الابداعى تلك الطبيعة العصابية والقهرية التى وجــد أنه يرتبط بها فى الحالة الثانية ، طالما أنها الآن قد حررت تماما من المؤثرات المعوقة للقهر • ويرتفع الابداع الى مستوى جديد ، أعلى من مستوى الجنسية الطفلية : اذ تبدو الى حد كبير وكأنها تلقائية وأصالة انسانية شاملة [1] •

ويعتبر ذلك صياغة موجزة لوجهة نظر فرويد فى النشاط الابداعى ، الذى يعتبر أساسا ضروريا لفهم نظرية التحليل النفسى الخاصة بأصول

---

(1) Freud, S., Leonardo de Vinci, pp. 46 - 50.

التغـير التاريخى [1] • وتعتبر محاولـة تيلور G. H Taylor (*) من أكثر التناولات احكاما لهذه القضية • اذ تعتبر آراؤه أكثر التفسـيرات شمولا وتماسكا بالنسبة للعملية الاجتماعية التى طرحها رواد هذه النظرية ، وقد نالت هذه التفسيرات حقها من الاهتمام ، وذلك لأن لها أساسها فى المعطيات الامبيريقية ، ولأنها تتسق والنظام العقلى فيما يتعلق بالمنهج أو الحقيقة • وتحاول نظرية التغير الاجتماعى لتيلور أن تكمل النقائص التى شعر بها كثير من علماء النفس فيما يتعلق بالمدخل التاريخى للتاريخ • وتتمثل هذه النقائص : فى الطبيعة الساذجة للافتراضات السيكلوجية التى على أساسها تنسب الدافعية للشخصيات التاريخية البارزة ، والاعتمـاد غير المتدبر من قبل المؤرخ على التحيزات والأحكام القيمية التى سادت جماعته أو فترته التاريخية ، والطبيعة غير المتماسكة نسبيا والمتناقضة ذاتيا للتفسيرات المتعلقة بالحركات والميول التاريخية ، وافتقاد التحديد السيكلوجى فى تمييز الاتجاهات الفردية والتاريخية • وتناقضات التفسيرات المتعلقة بالأحداث المتشابهة أو المتضادة • والفشل حقيقة فى تفسير أى ارتباطات مدعاة بين الشخصية والأحداث [2] • غير أن نقد المؤرخ كان مسألة عرضية فقط بالنسبة لمهمة تيلور الأساسية • هذه المهمة التى يراها على أنها توفير المفاهيم والتفسيرات السيكلوجية التى تحتاج اليها للتغلب على التفسيرات القائمـة للتغير الاجتماعى •

وينبغى أن يكون واضحا أن تيلور قد تحرك فى تقديمه لهذه المفاهيم

---

(1) Taylor, G. R., The Angel Makers (1958. Cf) Also Sex in history (1954).

(*) يعتبر ج . رتـارى . تيلـور G. Rattary Taylor كاتبا تخصص فى تقديم المعرفة العلمية الحديثة للقراء المتعلمين . ومن بين كتاباته مؤلفـه (الجنس فى التاريخ Sex in History) (وكاتبى الانجيـل Angel - Makers) . بالاضافـة الى بعض الكتـابات فى عـلم البيولوجيـا . وقـد تخصص أخيرا فى كتابة بعض المقتطفات العلمية لمحطة تلفزيون ب . ب . س . B. B. C. TV.

(2) Taylor, G. R., The Angel Maker (1958) p. 342.

داخل اطار مجال اهتمام التحليل النفسى • وهو لم يهتم بأنواع أخرى من التحليل النفسى • حيث تمثل قصده الأساسى فى تأسيس الصلات بين التحليل النفسى والتاريخ • غير أنه ينبغى أن يقال أيضا أن استخدام تيلور للحدس يختلف عن استخدام فرويد له • اذ اهتم بالحدس المنظم والدقيق فى عملية تصفية ركام الحقائق الامبيريقية المتضمنة فى الوثائق والملاحظات والدوريات والصحف التاريخية وأيضا الكتب المتعلقة بهذه الفترة • وعلى خلاف فرويد ، يحاول تيلور أن يؤسس الصلات التاريخية الحقيقية بدلا من استبدالها بالتوارد المتماثل للتفكير والتفسيرات النفسية المستندة الى التداعى الحر بدرجة أكثر أو أقل (١) • وبالتأكيد استندت الصياغات الأساسية التى استخدمت فى تفسير التغير الى مدرســة العقيدة الفرويدية الذائعة الصيت بوسط أوربا • وان كان ما قيل ينتمى الى الامبيريقية الانجليزية •

وتتمثل نقطة البدء فى بحث التغير الاجتماعى فى نظرية التوحدات الأبوية (٢) • فالطفل على حسب نظرية التحليل النفسى يظهر وهو على صدر أمه ، الشعور الجنسى • وتعتبر هذه الفترة من النمو المرحلة الأولى أو المرحلــة الفميــة Oral من الناحية الجنسية (٣) • اذ يكون الطفل غــير واع بأنه موضوع منفصل عن الموضوعات الأخرى فى العالم (٤) • وتعمل حالته العقلية اللاشعورية على دفعه بأنه عن طريق الرضاعة Suking فانه يتمثل أمه لذاته • وحينئذ فهو يتوحد مع أمه بأسلوبين ، الجنســية Sevuality ، وأكــل لحــوم الشر Connibalism (٥) • ويعتبر التوحد هو الرابطة الشعورية الأولى مع العالم الخارجى • غير أن هــذه الرابطة

---

(1) Cf. Mcleish, J. (1963), Chapter 11.

(2) Taylor, G. R. (1954) and (1958), pp. 148, 171 - 7, 200 - 5, 258 - 9 ect.

(3) Heafy, W. and Bronner, A. F. (1949). p. 110.

(4) Freud, S. Three Essays on sexuality, 1953 edit. pp. 171 - 200.

(5) Healy, W. and Bronner, A. F (1949). p. 8.

الشـــعورية ليست حبا ــ لموضـــوع object - Love كمـــا قـــد تفهمه ، وانمـــا يعتبـــر التوحـــد Identi Fication نوعا خاصا من حب الذات Self - Love • لا سيـــلم بحـــدود (للأنا) تفصلنا عن بقيـــة العـــالم • ولا يستطيع التوحـــد أن ينفصل عن موضوع الحب بالأساليب التى يعبر فيها عن ذاته • وان كان حب الطفل للأم فى حقيقته له أصوله النرجسية •

وتتميز عملية التوحيد بصورة دقيقة للغاية عن نوع ثان من الميكاينزم الدفـــاعى الـــذى يســـمى بالتقمص Introjection فارتباطا باللبن ــ كمادة ، يتمثل الطفل بعض الخصائص السيكلوجية للأم • وتلك هى عملية التقمص : حيث تتصل برغبة الطفل فى تملك واستحواذ واستيعاب الموضوع المـــادى الذى يخشى الطفل خطر افتقاده • فالتوحـــد هو تعبير عن الرغبة فى أن تصبح الموضوع • على حين يمثل التقمص من ناحية أخرى محاولة لا شعورية لنقل الموضوع داخل الذات عن طريق استيعابه • ويظهر المتوحد بالأم mother - Identifiu فى الحـــالة العـــادية ، كل الخصـــائص المرتبطة بالأم المحبـــوبة Loving - mother • وتعمـــل العمليتان التوأمان ، التوحد والتقمص ، على توفير اللطف Softness ، والاهتمام بالرفاهية ، والتعبير عن الشعور التلقائى عند الطفل الذى ينمو •

وفى مرحلة متأخرة يواجه الطفل ، أباه كموضوع لاهتمام خاص • وعلى أساس من شعورهما المشترك نحـــو الأم ، والرعاية التى يوفرها الأب له (وهى مماثلة أو بديلة للرعاية التى بذلتها الأم للطفل فى الماضى) فان الطفل يتوحد مع الأب • ويعبر ذلك عن نفســـه فى شـــكل رغبـــة لا شعورية فى أن يصبح شبيها له ، أن ينمو مثله ، أن يتخذ مكانهبأساليب كثيرة • ويصبح التوحـــد مع الأب ، على حسب النظرية الفرويدية متركزا حول الرغبة المحددة فى أن ينمو ويحتل مكانة جنسيا مع الأم • وذلك هو أســـاس عقـــدة أوديب •

وتقـــدم رغبـــة غشيان المحـــارم Incestuous عنصرا عدائيا فى

العلاقة بين الأب والطفل اذ يصبحان بوعى أو بلا وعى عدوين متنافسين • حيث يعبر الطفل عن الرغبة فى الموت وكل الدوافع العدوانية الأخرى نحو أبيه بشكل مباشر وصريح • وتصبح الحياة النفسية للطفل معقدة بسبب مشاعر متناقضة تحتوى على اتجاهات الحب والكراهية الموجهة ليس نحو الأب فقط ، ولكن نحـــو الأم أيضا [١] •

وفى حالة الآباء المحبين والموافقين على الطفل ، فانه يعاد توجيه الدوافع الهدامة المنطلقة من العقدة الأوديبية ، خلال عملية النمو ، نحو تصريفات ابداعية • وطبيعى أن معظم الأطفال ســـوف يتقمصـــون عناصر من آبائهم : ســـوف تنحصر الدوافع الهدامة بواسطة بعض المكونات موضع الاهتمام والتى يوافق عليها كلا الأبوين • وسوف ينمو غالبية البشر حتى البلوغ طالمـــا أن هناك تأكيدا على نوع الشخصية المتوازنة ، التى تتحقق اذا حدث اهتمام بالخصائص الأبوية والأموية • غير أنه من المحتمل أن تقع تطورات متطرفة ، تعتمد على عوامل عدة ، منها التكوين الفيزيقى ، وممارسات تربية الطفل ، والخصائص غير السوية للأبوين •

وهناك حالتان يعتبرهما تيلور ذات أهمية خاصة • فى الحالة الأولى مجموعة الاتجاهات والأحداث التى تولد الاعتقاد اللاشعورى فى أن الأم ليست الا خائنة غير محبوبة • حيث انه قد يعقب الفطام الحاد تطرفا فى التبول • وقد تصاحب المعاقبة الخشنة للطفل تفضيلا ملحوظا ومعبرا عنه بوضوح لحب الأب • وقد تصبح علاقة التوحد ، كنتيجة لذلك ، متحولة بشكل حاد الى الطرف النقيض ، الرفض • اذ يتحول الحب الذى هـــو بطبيعته الأساسية متأرجحا فى كل حالة الى كراهية عميقة • ونجد تعبيرا لذلك فى أنواع كثيرة ومختلفة من السلوك والاتجاهات اللاشعورية • وبذلك فان التوحيد يصبح الآن كاملا مع الأب • وبتعبير تيلور (منقولا عن

---

(1) Freud, S., Complete Works, Standard edit. vol 11, 1957, pp. 46 - 8; Ibid., vol. 19, 1961. 31 - 9, 48 - 9.

فلوجـــل Flugel) تصبح الأبويـــة Patrism الاتجاه اللاشعورى الغالب • ويعبر هذا الميل الأساسى عن نفسه فى أنواع كثيرة من الممارسات والاتجاهات • ونمطيا ، يلتزم الأبوى أو متقمص دور الأب الذى قد يكون من كلا الجنسين) بنظام سلطوى فيما يتعلق بقواعد السلوك • وتعتبر المرأة من وجهة نظر الأبوى من مســـتوى أدنى تكوينيا • فهى الجنس الأضعف وذلك يعنى اعطاء اهتمام كبير لطهارتهن وعذريتههن • ويتصرف الأبوى فى حديثه أو سلوكه (كلا الجنسين) تحت اعتقاد أن تأثير المرأة ينبغى اضعافه بشكل منظم عن طريق اصدار القانون ، أو بتوفير تعليم أدنى ، أو حرمانهم من التعليم على الاطلاق ، أو باستخدام كل أساليب المعتقدات أو الأشكال والأساليب ، كالفن والملبس والدين والأخلاق [١] • ففى اطار النظـــام الأبـــوى Patrist regime تتكاتف كل هذه العناصر لكى تشير الى دونية المرأة بالنسبة للرجل •

ومن ناحية أخرى فقد يدرك الطفل والده ليس كنموذج ، ولكن كمتطفل Interloper حيث تعتبر الأم مصـــدرا للشـــعور الرقيق بل يعد الاهتمام برغبات الطفل ضد الأب الكاره مصدرا للراحة فى بيئة سيكلوجية عدائية • حيث تقود هذه الاتجاهات الى عملية التوحـــد التام مع الأم أو الأموية Matrism • وينمو التوحيد مـــع الأم على أســـاس من النظام الحر فى التربية التى تتضمن فطاما بطيئا ومتساهلا Lenient ، وتدريبا مريحـــا على التبول ، وتنشئة اجتماعية بلا قيود واستعدادا من قبل الأم للمشاركة فى عالم لهـــو وخيال الطفل • حينئذ يميل الأمـــوى الى فرض تأكيد كبير على الرفاهية ، ونادرا ما يفرض تأكيدا على الثورة ، وهو يعتبر اللـــذة وليس الواجب ، الهدف الرئيسى فى الحياة • فهو يقوم السعادة ، وهـــو يعمل من أجل مساواة المرأة ، وأيضا فى مواجهة عديد من الأسباب الاجتماعية

---

(1) Taylor, G. R. (1958), pp. 171 ff.

التى تهدف الى القضاء على المعاناة ، وازالة القيود التى فرضها المجتمع على الترابط الانسانى •

وقد كان تيلور مهتما فى تأسيسه لنظريته بانجلترا فى القرن الثامن عشر (١٧٠٠ — ١٨٥٠) • وفى هذا الصدد لم يجد تيلور صعوبة فى تأكيد وجود أنواع متطرفة للسلوك والاتجاهات المرتبطة بالوالدين والأموية • حيث يتكون هذا الجانب من نظريته من مجرد اعطاء أسماء لظواهر كانت معروفة فعلا • وقد أوضح أن هناك ارتباطا داخليا بين كل أنواع الخصائص والاتجاهات ، التى كانت موجودة فعلا قبل أن يشير اليها • غير أنها اعتبرت ببساطة كمناذج واضحة للتمركز حول الذات ، أكثر من كونها موضوعا للتفسير التاريخى • وعلى سبيل المثال ، أوضح تيلور ، كيف ترتبط النزعة السلطوية بشدة بعبادة الاله الذى على غرار الأب Father deity • وقد تواجدت هذه النزعة مع النزعة المضادة للمرأة والاتجاه البدائى المقيد للأمور الجنسية • وتعبر الأبوية عن نفسها فى اتجاهات متماسكة نحو الفن ، والبحث العلمى والثروة • وتهتم بأفكار تتعلق بالعقاب الصارم عن الانتهاكات الجنسية وبخاصة — العادة السرية Masturbation والجنسية المثلية ، حيث ينظر اليها باعتبارها أكثر الأعمال الشريرة شناعة [1] •

ومن ناحية أخرى تعبر الأموية عن نفسها فى شكل اتجاهات ليبرالية فى السياسة والدين والمسائل الاجتماعية • وهى ترتبط أيضا باعطاء اعتبار كبير للطبيعة التى تشخص غالبا كامرأة وقد وجد أن من خصائص الأموية ارتباطها عادة بالدفاع عن المرأة فاذا قارناها من الناحية التاريخية بالأبوية ، نجدها تتبنى اتجاها أكثر تفهما للضعف الانسانى العام ، اذ تظهر تعاطفا أخويا مع المضطهدين • ويميل المتوحدون مع الأم الى الاهتمام المبالغ فيه

---

(1) Taylor, G. R, Sex in History, 1954.

بغشيان المحارم Incest كمشكلة اجتماعية وشخصية • ومن النادر أن تهتم بالجنسية المثلية موضع التركيز الجوهرى بالنسبة للأبوى المحافظ •

ويحاول تيلور أن يبرر وجهة نظره القائلة بأن التغير الاجتماعى يخضع لقوانين سببية كامنة • فهو يسلم بحركة معينة للتاريخ ذات طبيعة مرحلية Phasal فخلال بعض المراحل تسود الأبوية ، تتبعها فترات يسود فيها الاتجاه الأموى • فى هذه الفترات التاريخية نلاحظ وجود تطورات اجتماعية متطرفة • اذ يعتبر كل من الأمويين والأبويين نماذج غير متزنة لكنها ليست عصابية • فهى تميل لأن تتعلق بشدة بصراعاتها الاوديبية ، حتى أنه يصبح من الصعب عليها تأسيس أى اسهام فى الحياة الاجتماعية [1] • ومع ذلك فالمتوحد مع الأم يميل الى أن يصبح مجددا اجتماعيا ، أكثر من الأبوى • وذلك لأن الأبوى مقتنع بأن أى تغير يعتبر نقدا لجيل الآباء الأول غير أن الأموى أيضا لن يكون مسئولا عن تغيرات كبيرة ذات قيمة • وفى أكثر الحالات عادية ، فسوف يكون مشغولا بالسعى من أجل اللذة ، واشباع حاجاته الذاتية ، وبالتالى لن يكون قادرا على تكريس نفسه لهدف عقلى واحد يتمثل فى التغيرات الاجتماعية المرغوبة وحينما يكون المجتمع عند نقطة التوازن ، حيث يكون مكونا من الأفراد ذوى التوحدات الأبوية المختلطة ، فان التغيرات الهائلة سوف تقع ، بما فيها الانجازات الاجتماعية [2] •

ولا تعتبر نظرية التوحدات الأبوية سوى جزء يسير من القصة • حيث تشير الأموية ــ الأبوية الى أهم ثنائية ساعدتنا على التمييز بين الأفراد فى النماذج المختلفة • وقد حمل هذا التصنيف معه أكبر قدر من التنوع الفردى فى الجوانب السلوكية والفنية والدينية والاجتماعية وكما قيل ، تعتبر الأموية والأبوية • تطرفات مستقطبة ، ويقع معظم

(1) Taylor, G. R. (1958), pp. 234 - 5, 348, 353.
(2) Taylor, G. R. (1958), pp. 204. ff.

البشر فى النطاق المتوسط ، مظهرين توحدات أبوية مختلفة • فاذا قمنا بتصنيف الأفراد كأبويين وأمويين ، فانه سـوف يكون هناك الكثير الذى يقال قبل أن تتوفر لدينا أية صـورة مفصلة عنهم كأشخاص واقعيين • لقد كان تيلور مشغوفا بالنماذج ، ولكنه كان مهتما أيضا بالخصـائص الفريدة لأفراد محـددين • المتطهر Puritan والرومانسى Romantic والكلاسيكى Classicist والمتحرر Libertive والمرتعد Quaker وآخرين يبرزون بوضوح على صفحاته • ولقد ذهب تيلور الى أبعد من مجرد التنميط فى محاولته فهم الخصائص المحددة لهؤلاء الأفراد مثل جون هووارد John Howard ضامـور Hannahmore ، لورد بايرون Lord Byron شافتسبيرى Shaftesbury وغيرهم كثير • وبصفة عامـة فقد اختار أفرادا محتلين للدراسـة ، أعنى هؤلاء الذين اثروا على جماعات كبيرة •

ويتمثل منهج الاختبار الذى استخدمه فى محاولة تفسير الأفراد والنماذج الكثيرة فى تأسيس علاقة بين بناءات شخصياتهم المحددة وخبرات الطفولة والتنشئة المبكرة [1] وقد كانت المشكلة الرئيسية فى هذه الفترة من التاريخ ـ القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ـ تكمن فى تفسـيرسبب موافقة الطبقة الحاكمـة على اتجاهات ومعايير الطبقات الوسطى التجارية • ومن ثم فقد اهتم تيلور قبل كل شىء بتفسير أصل الاتجاهات والعواطف التطهرية ، والطريقة التى نالت بها الموافقة كأخلاق اجتماعية سائدة • حيث نظر الى هذه العواطف والاتجاهات باعتبار أنها ناتجة عن خبرة التربية • وتعلقت التساؤلات التى أثارها فيما يتعلق بالهوس Obsession (التطهرى) المتعلق بالذنب واهتمامهم الشديد بالموت ، وأخلاقهم الصارمة ، وطبيعة الحدود الضيقة لحياتهم الارادية والشاعرية • ولقد وجـد تيلور أساس هذا المركب المحدد للسمات فى عديد من ممارسات التنشئة المنتشرة فى هذه الجماعة : كالسماح للأطفال

(1) Ibid., pp. 310, 323 - 33.

بالصراخ من الأعماق Cry-itself-out — وهى الممارســة التى كانت فى القرن الثامن عشر ، والقمط الضار بالأطفال عن طريق لفهم بأربطة محكمة تحــد كل الحركة • والتأكيد التام من قبل الآباء على النتــائج الضارة للعادة السرية غير المشروعة ، وممارسة التدريب الصارم علــى التبول من قبل الآباء ، وتأكيدهم العام على النظافة الشخصية ، والفطام المفاجيء والمبكر لهذه الجماعة ، وتحريم أى مظهر الحب أو التعلق الأموى ، واحباط الاشباع الفمى الناتج عن ارتباط محدد بين الفطام المبكر والتغذية الزائدة عن الحــد ، والمطالب الشاقة المفروضة على الطفل خلال سنوات الحساسية فيما يتعلق بالتعليم الاستظهارى ، والتأكيد المصاحب على العظات والصلوات والتوبة والموت ، وأخيرا العقاب المتطرف الذى يواجهه الطفل منذ طفولته المبكرة ، مرتبطا فى العادة بالاقناع بالرعب غير الرشيد للعقوبات العيبية • حيث وضحت هذه الوسائل لتربية الطفل بتفصيل موثق عن المــادة البيوجرافية • حيث يختتم تيلور قائلا :

(ســوف يتضح أن هذه العوامل الكثيرة تعمل لكى تؤكد كل منها الأخرى • اذ تساعد التحريمات العامــة General Taboos على خلق التثبيت الاستى g . and Fixation • ويدفــع التثبيت الاستى على الكبت الى استخدام الروابط القامطة ، بحيث تسهم هذه بدورها فى مخزون العدوان • ويقوى العدوان بالتالى الرغبة فى الموت ، وهذه تقوى الذنب • ويؤمن الذنب انتقال التحريمات الوثنية ، وهكذا تكتمل الدائرة • وسوف تطرح حلقات أخرى ذاتها : فالتشوه العاطفى الناتج عن الدمار الشامل Aphanisis (*) هو الذى يساعد الآباء لكى يصبحوا أكثر قســوة ، على

(*) يعنى التدمير الشامل Aphanisis (كما يذهب ابرنست جونز Ernest Jones) حالة من الاستنزاف العاطفى تحدث لدى الأطفال الــذين يسمــح لهم بالصراخ للتعبير عن ذاتهم Cry themselues out او الصراخ بعمق على حسب ابرنست جونز يرتبط هــذا الاستنزاف العاطفى بالعجــز الدائم عن الشعور العاطفى بشكل مطلق •

حين تخلق الاحباطات الكثيرة الموقف الذى تدعم فيه الدمار الشامـل Aphanisis • وما يصدمنا فى هذا المثال ، كيف أن الجماعة التطهرية لم تمارس هذه الأفعال فقط ، مثل ترك الطفل يصرخ من أعماقه والتى تهدف فى معظمها لتحقيق نتائج مرغوبة ، ولكنهم هاجموا أيضا تلك الأفعال الخاصة بالطبقة العليا مثل ترك الأطفال على سجيتهم والتى من المحتمل أن تؤدى الى خلق نتيجة مضادة • ولم يكن ذلك عرضا • فمثلا ، لأن قيم التطهرى ذات طبيعة كبتية فاننا نجده يستخدم الأربطة القامطة ، وبسبب ولكونه معاقا من الناحية العاطفية ، فاننا نجده قادرا على ملاحظة الطفل وهو يصرخ مستنفدا ذاته دونما حراك ، فى حين أنه قـد يندفع الشخص الأكثر استجابة نحـو التدخل ، وعلى النقيض ، فان الشخص المتطرف الحساسية قد يتدخل بسرعة ومن ثم يفسـد الطفل [1] •

ويوضح هذا الوصف تسلسلا دائريا للأسباب والنتائج الذى قد يـؤدى ــ اذا لم يوقف ــ الى السـوداوية ــ Melan - Cholia أو الانتحار • وفى الحقيقة كانت هذه الظواهر ذائعة الانتشار فى انجلترا فى ظل هذا الأسلوب للتربية • ويمكن كسر السلسلة بأساليب أخرى غير الانتحار أو المرض العقلى • حيث يعتبر الجنون التام وحدة (كالشيزوفرينيا Schizophrenia والهـوس الـدينى Religiou3 Mania) أو الهدايـة Conversion [2] • أسلوبا مشتركا لبدء حياة جديدة •

وقد ارتبطت الهداية Conversion كوسيلة سيكلوجية مـن الناحيـة التاريخية بالمسيحيين الميثوديين والانجيليكانيين ، النشيطين فى هذه الفترة • وتكمن الأهمية السيكلوجية للهداية فى الاعتقاد التام بأن المسيح قد مات من أجل الخلاص الشخصى للفرد الذى استيقظ من جديد • ومن الشائع

---

(1) Taylor, G. R. (1958), p. 333.
(2) Ibid., pp. 154. ff.

أن يسبق ذلك ، كما فى حالة حنا مور ، مــوت الأب أو أى من الأقارب الحميمين • وعادة ما تتبع الهداية فترة حياة من القهر الذى سببه احساس عميق بالذنب ، وفترة من الانهيار والخوف من الــه غاضب • وعــادة ماتصاحب هذه الخبرة ، أو هى تتكون كلية من الاشراف الكامل للأرواح ، والتحرر من الخوف من الموت ، وعقاب الآخرة ، وعاة ما يرتبط ذلك بتوقع ممتع فى الحصول على حياة خالدة • وعلى حسب تيلور ، أو فى ضـــوء بحث كنزى Kinsey ، يبدو أنه من المحتمل استناد الاعتقاد المبالغ فيه فى كل من الادانة الشخصية وقهر الروح ــ وهو الاعتقاد المميز لهــذه الجماعة ــ الى ذنب العادة السرية [١] • وبتأكيد كبير يؤدى تزاوج التفكير المتعلق بالآثار الروحية والعقلية والفيزيقية لهذه العادة غير المشروعة مع الطرق التى يستخدمها الآباء بثقة لايقاف هذا النوع من الانغماس الذاتى من قبل الأطفال [٢] ، الى تخلق عدد هائل من الممارسين للعادة السريـــة قهريا ، محصورين يعبىء الخطيئة والخوف من الموت ، غير أنهم عاجزين عن الكف • ويمكن كسر هذه الدائرة المفرغة • حيث تؤدى المزاولة القهرية للعادة السرية ، الى توليد مشاعر الذنب القوية ، التى تدعم القهر لمزاولة هذه العادة عند أكثر حلقاتها قوة عن طريق الهداية الدينية • حيث يهمل عبء الذنب ، ويتولد أمل جديد يجعل من الممكن اصلاح هذا السلوك الجنسى •

ويعتبر السؤال الأساسى الذى قرر تيلور أن يجيب عنه والذى أشرنا اليه سابقا ، واحدا من المشكلات التاريخية الهامــة التى سادت القرن الثامن عشر والتاسع عشر • هذا السؤال : كيف نجحت الطبقات التجارية الوسطى فى فرض أفكارها الدينية والأخلاقية أو المتعلقة بالسلوك الأخلاقى على بقية المجتمع ؟ • وقد اكتشف تيلور فى أثناء بحثه عن المــادة التى

---

(1) Ibid., pp. 326 - 7.

(2) Ellis, A. and Abarnel, A. (edis), Encyclo Paedicr of Sexual Behavior, Vol. 1, pp. 18, 204 - 15; Kimsey, et altra, 1948.

تجيب عن هــذا السؤال أن التوثيق التاريخى لا يوفر دعما للرأى المتعلق بأخلاقيات القرن الثامن عشر والتاسع عشر [1] •حد يث وقع التغير من الاتجاهات الأبوية الى الاتجاهات الأمويـــة مبكرا عن ذلك على خلاف الاعتقاد الشائع (١٧٩٠ ــ ١٨٠٠) ولم يرتبط اطلاقا بآراء أو ممارسات الملكية • وفى الحقيقة يفترض تيلور نظرية أن دافع رجال الأخلاق بدأ يخبو حتى قبل أن تصبح فيكتوريا ملكة [2] • وتبقى المشكلة متمثلة فى أن تغيرا اجتماعيا قد وقع • غير أن انتصار أفكار الطبقة المتوسطة لم يكن قد اكتمل كما يذهب الاعتقاد الشائع ، وهو أيضا لم يقع فى الوقت المعين تقليديا • وبقيت الطبقات الدنيا الى حـــد كبير غير متأثرة كليـــة بواسطة الأفكار الاجتماعية والدينية والأخلاقية للطبقات المتوسطة • ولقد كان لدى الطبقات العليا اعتقاد دينى حقيقى ضئيل حتى فى نهاية هذه الفترة : حقيقة ، تظاهر بعض الأعضاء ، لأسباب كثيرة ، فى الاعتقاد والممارسة ، مع أنهم لم يخبرا أيا منها من داخلهم •

وبقيت الحقيقة الشهيرة فى أن ديانة الطبقة الوسطى ارتبطت بشكل عام فى هذه الفترة ببعض الفضائل التجارية : كالاقتصاد ، والضمير الحى فى السعى اليومى ، ولاضفاء قيمة عالية على الاستفادة من الزمن ، وما الى ذلك • وقد أشار فرويد الى سمات الانتظام ، والعناد ، والتقتير • والهوس بالنظافة الجسمية باعتبارها تنتمى لمـــا سماه بالأخلاق الاستية [3] • وينتمى الاهتمام بالمـــال الذى يميز هذه الجماعة الى نفس بناء الشخصية ويعبر الحب عن نفسه ، شكل منح الهدايا المـــادية بـــدلا مـــن التعبير العاطفى • وذلك يرجع الى أن الشخصية الاستية محددة بشـــدة فيما يتعلق بقدراتها على الاحساس وعواطفها التى تعبر عنها • ومن ثم فقد عبر عن الحب العام والمشاعر الايجابية الموجهة نحـــو الجماعات الاجتماعية

---

(1) Taylor, G. R. (1958), pp. 83 - 6.

(2) Ibid., p. 104.

(3) Freud, S. (1908), Callected Popers, 1949 edit., pp. 45 - 50.

بهذا النموذج المتميز الذى اتخذ شكل الاحسان الانسانى ، والتبرع ، والتفضل • ومن الصعب كلية أن تتدخل المشاعر • اذ لا يحتاج المحسن أن يتعرف على الحاجات الحقيقية لمن يتلقوا احسانه : وفى الحقيقة فان المحسن غالبا ما كان يعبر فى سريرته عن بغضه الشديد لموضوع احسانه أو خيريته • وتلونت المجموعة الاستية باتجاه عام للتملك والثراء الـذى يشكل جوهر بناء هـذه الشخصيـة • وحققت الكراهية ، والاحباط ، والعدوانية المرتبطة هنا بعقدة أوديب مستوى عال من النمـو • اذ تعتبر السادية تجليا مشتركا على المستوى الاستى للجنسية [1] •

ويكمن مصدر الشخصية الاستية ، اذا اتبعنا وجهة نظر التحليل النفسى فى التنشئة • اذ يمر الطفل فى عملية النمو العادية أولا خـلال المرحلة الفمية • وفى المرحلة الثانيـة تستمر بعض اللذات والاحباطات مرتبطة بمنطقة الفم • غـير أن الاست تفوقها كمنطقة ذات حساسية جنسية • ومن ثم تتخذ مكانة الفم باعتبارها المركز الرئيسى للذة والاحباط ويعبر الليبيدو ، أو قوة الحياة ، الذى عبر عن نفسه سابقا فى شـكل الجنسية الفمية Oral Sexvality ، الآن من خلال وظائف التبرز • ويمكن النظر الى التدريب الصارم على التبرز والهوس بنظافة الجسم الـذى ارتبطت بالتنشئة التطهرية باعتبارها نتيجة لثبات الليبيدو عند المستوى الاستى • ويتضمن المنع المطلق الذى يفرضه الآباء المتطهرون على أى تعبير عن الجنسية التناسلية (المرحلة التالية للنمو المعتاد للطفل) نتيجـة مماثلة فى تثبيت أو تقييد الطاقة المتيسرة • فالليبيدو مقيد عند المستوى الاستى : وليس مسموحا له أن يتقـدم طبيعيا وتلقائيا الى المستوى التناسلى • وتتمثل المسألة الرئيسية المؤكدة فى هذه المناقشة فى وجود نمط متماسك يضم معا بعض الخصائص الرئيسية للشخصية التطهرية ، وأن هـذا التماسك ليس عرضا [2] • وبصفة خاصة ، يمكن فهم الفضائل التجارية ،

---

(1) Ibid., Freud, S. (1905), pp. 173 - 243.
(2) Taylor, G. R. (1958), pp. 148, 329.

المتخصصة باعتبارها تنتمى الى مركب من السمات تولدت عن الظروف المبكرة للمستوى الطفلى [1] • ويستكمل التعليم فقط بناء اكتمل حتى قبل أن يتعلم الطفل القراءة ، منذ وقت طويل قبل أن يصبح فى امكان أى مؤثر اجتماعى غير الأسرة أن يؤثر عليه •

ومن الواضح بأنه اذا سلمنا بهذا النمط أو المركب المحدد للسمات (الاهتمام بالمـال ، والمثابرة ، والجدارة) فان القـوة الاقتصادية ، وكنتيجة مباشرة ، القوة السياسية سـوف تسقط بالتحـديد فى أيدى الطبقات المتوسطة • أما هؤلاء الأفراد ، الذين ينتمون للطبقات الدنيا ، والذين لديهم نفس النظرة ، ونفس بناء الشخصية سوف يتحركون الى أعلى • اذ سـوف يميلون الى الصعود اجتماعيا ومن ثم يصبحون أعضاء فى الطبقات المتوسطة • وسوف تقبل الطبقات العليا بالتدريج أيضـا مظهر فضيلة الطبقة ــ الوسطى ، طالما أن الحـكام الجـدد قد أكدو سيطرتهم الاجتماعية [2] • وفى الحقيقة سـوف يتحول أعضاء الط العليا الى الأخلاق والديانة الأبوية patris ، وسوف ينشئون أولادهم بهذه الطريقة • ومن المحتمل أن المحللين النفسيين قـد يسلمون ، بأننا باستطاعتنا عند مستوى فج من التحليل ، تفسير التغيرات الاجتماعية والتاريخية بالنظر الى العوامل الاقتصادية • غير أنه على حسب افتراضات تيلور تعتبر كلا من روح النظام الرأسمالى وأخلاق النزعة التطهيرية نتائج تخلقت عن سبب مشترك • فالرابطة التى أغرق فيبر Weber وترولتشى Troeltsch وتاونى Tawney فى تأسيسها بين البروتستنتية والرأسمالية ليست من نوع علاقة السبب ــ النتيجة • ولا هى ارتباط طبيعىأو حتمى • فالحقيقة هى أن الفضائل التجارية ليست مشتقة عن المسيحية : فقـد ظهرت هذه الفضائل برغم التوجيهات الواضحة ضدها فى العهد الجديد • وانما تعتبر العناصر الاستية anal فى الشخصية التطهرية هى التى

---

(1) Ibid., pp. 161 - 5.

(2) Taylor, G. R. (1958), pp. 334 - 6.

تشكل المصدر الحقيقى (للفضائل التجارية) [١] والتى تعتبر مسئولة عن الطبيعة النازعة الى الأخلاق لهذه (وذلك ليس له أية علاقة حقيقية بالديانة كديانة) • ويعزى العمق الذى تعبر به هذه الأخلاق الدينية — الزائفة عن نفسها فى الشخصية التطهرية الى قوة التوحد مع شبح الأب • ويعتبر تدريب النشئة للطفل التطهرى هو المسئول عن العاملين السببين الظاهرين ، التوحد بالأب والتثبت الاستى • وقد أصبحت الأخلاق الأبوية هى المسيطرة خلال القرن الثامن عشر كنتيجة مباشرة للنجاح التجـارى للطبقات الوسطى التجارية • ومن الناحية التاريخية ، فهم الذين حملوا الرسالة • وتلك بايجاز اجابة تيلور على القضية التاريخية التى طرحت فيما سبق [٢] •

وتظهر الشخصية الاستية افتتانا ملحوظا بالكلمات : وهـذا ينبثق جزئيا عن عناصر الهوس فى بنـاء هذه الشخصية • اذ يمتد النظام الذى يعتبر الخاصية الأساسية والميزة للأخلاق الاستية الى الأمور اللفظية كما يمتد لكل شىء آخر • فمن الملامح البارزة للشخصية التطهرية الأهمية البالغة التى تخلعها على الكلمة المكتوبة أو المنطوقة [٣] • اذ يعتبر الدين بالنسبة لها مسألة تتعلق بكتاب موحى • حيث تتم قراءته بأسلوب غامض وسحرى من أجل الخلاص • ويعتبر مذهب العصمـة الحرفية للانجيل Bible Fundamentalism الشكل المميز للدين التطهرى • اذ يتضمن نسب موسى نفس أهمية الموعظة التى القيت فوق الجبل بالنسبة للخلاص • وتتضمن الموعظة (بمجرد حقيقة القائها) على المتن الانجيلى ، (حينئذ) نفس قيمة موعظة فى المتن تؤكد على (أن يحب كل منا الآخر) بالنظر الى عملية التنوير أو التثقيف • فللعظات جاذبية خاصـة بالنسبة للأبوى الاستى • وليس تيقن أن تنصت لعظتين طويلتين أو ثلاث فى يوم الأحد • وانما يجب تعويضها (بقراءات العائلة) للعظات المكتوبة • وأيضا تعتبر

(1) Ibid., pp. 96, 161, 164.

(2) Ibid., pp. 338 - 57.

(3) Ibid., p. 148.

صلوات العائلة عادية ، أو هى فى الحقيقة ، الجزء الأكثر أهمية للحيـاة اليومية ويعتبر الانسان الدينى على صلاة طيلة اليوم • ويعتبر الأمر الأخلاقى وليس ضرب المثال هو الطريقة الأكثر فاعلية فى تدريب الطفل • وبالعكس تعزى الخلق الشريرة أو السحرية الى اعتبارات ضد الديانة (١) وبصفة خاصـة ينظر الى التجديف على الله Blasphemy باعتباره جريمة نكراء ، تستحق الانتقام من الله • والى أن يتحقق ذلك ، يستحق العقاب من قبل الدولة • وتتسع جريمة التجديف بالله لكى تغطى عددا هائلا من الحالات ، ليس لكثير منها صلة مباشرة باسم الله على الاطلاق • فقراءة الرواية تدان أيضا • حتى لو كانت هـذه الرواية مكتوبة بوعى لغرس الفضيلة والاخلاص الدينى (٢) • (كما هى الحال فى رواية حنا مـور Hannah More ، كولبس يبحث عن زوجة Coelebs in search for wife) • وأيضـا يقـع اللهـو والتسليـة بالقـراءة ، والشـعر ، والأدوات الدنيوية تحت نفس اللعنة الشاملة • وينبغى تنقية مجموعة كلمات الحديث اليومى بشكل دائم من الكلمات التى تضم أى معنى جنسى أو طبيعى • ويمكن السماح فقط بالكلمات الرقيقة المعبرة عن مضمونات سيئة أو الكلمات الأجنبية للتعبير عن الوظائف الجسمية ، الى الحـد الذى يصبح عنده معناها ــ بسبب الاستخدام الشائع ــ معروف الى حد كبير بحيث أنها تشارك الأصل الشرير لنظائرها الأنجلو ــ سكسونية •

وعلى حسب تيلـور ، يجـد المتطهر نقيضـه المتطرف متمثلا فى رومانسية نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر • ويمكن توضيح هذا التناقض فى جدول (٣) •

---

(1) Cf. Freud, S. on (Animism) Mayic and Omripotence of the thouyht - Chapter 3. of Totem and Tabu.

(2) Taylor, G. R. (1958), pp. 171 - 7.

(3) Ibid., pp. 171 - 7.

التطهرى ، أو النموذج الابوى	الرومانسى أو النموذج الأبوى
١ ـ يعتقد فى الطبيعة الشريرة للانسان	ـ يعتقد أن الشر كامن فى البيئة
٢ ـ يعتقد فى الله المتعالى	ـ يعتقد فى الله الخير والمهتم
٣ ـ معاق فى السلوك والحديث	ـ تلقائى وغير مقيد
٤ ـ استبدادى ، يعشق النظام ، لديه احساس بالعزلة	ـ ديموقراطى فى اتجاهاته ، لديه احساس بالألفة مع الآخرين
٥ ـ يعتقد فى خضوع المرأة	ـ يقف الى جانب المرأة من حيث المساواة بين النوعين ٠
٦ ـ لا يثق فى العلم والتعليم العام	ـ يدعم العلم والتعليم العام ٠
٧ ـ ينشغل بموضوعات الجنسية المثلية	ـ ينشغل بموضوعات غشيان المحارم
٨ ـ لا يعتقد فى امكانية التقدم	ـ لديه ميول يوتوبية وساذجة
٩ ـ لديه رعب معين من الطبيعة	ـ يعبر عن حب عميق للطبيعة
١٠ـ لديه كراهية للحيوانات ، والاطفال ويستند الى نظرية فساد الطبيعة	ـ يحب الأطفال ، ويؤكد على طيبة وتلقائية الطفل ٠

ولا تلقى ملاحظة تيلور حقيقة أن بعض الرومانسيين الانجليز البارزين أصبحوا محافظين (أبويين) فى منتصف العمر من حيث اتجاهاتهم الاجتماعية ٠ وهو يفسر هذا التغير برصد عمليتين ٠ أولاهما : هناك عملية التغير العادية ، حيث ترك أساسها غير محدد ٠ والأخرى ، أنه سلم بسمة ثنائية أخرى قد تؤدى الى ظهور تنوعات محتملة أخرى فى اطار

النموذج • فهناك تقسيم بفصل هؤلاء ذوى الأنا واهن الحواجز thin - wolled - egos ، عن هؤلاء ذوى « الأنا » القوى الحواجز thick - walled - egos) [١] • فالنموذج الواهن الحواجز يواجه صعوبة كبيرة فى فصل ذاته عن الآخرين أو عن الطبيعة : محدود أناه his ego غير محددة نسبيا • ويعتبر الرومانسى الألمانى E.T.A. Haffman أفضل الأمثلة لهذا النموذج ــ اذ يتحدث من خلال واحد من أدوار مسرحياته قائلا : (لقد تحلل أناى ، my own ego ، لعبة الصدفة القاسية ، الى أشكال غريبة ، ثم طفا بعيدا بلا حول فوق بحر الظروف) [٢] •

ويعتبر موضوع تمزق (الأنا) واستبداله شائعا للغاية فى أعمال هوفمان وفى أعمال الكتاب الألمان الذين ينتمون للمدرسة الرومانسية • وقد وجد ذلك أيضا فى بعض الجماعات بانجلترا ، التى لا يعتبر أعضاؤها أمويين كما هى الحال بالنسبة للرومانسيين • ويظهر الأفلاطونيون المحدثون بجامعة كامبردج Combridge platonists ى يعتبر هنرى مور Henry More أكثرهم تمثيلا ، هذا الميل (للأنا) الواهى الحواجز بوضوح كامل ، بالرغم من كونهم أبويين فى آرائهم الاجتماعية والأخلاقية [٣] ومن ناحية أخرى ، يظهر التطهرى (أنا ego) له حدود سميكة لا يمكن اختراقها • وعلى ذلك ، نجده يجد من الصعب أن يدخل فى أى مشاركة مع الآخرين ، بحيث يتعاطف معهم ، أو يفهمهم أو يؤثر فيهم فى اطار سياق اجتماعى وانسانى • فاذا افترضنا أن الشخصية يمكن أن تخضع لتغيرات متنامية خلال الزمن كنتيجة لأنواع معينة من الخبرة ، فانه لا تكون هناك صعوبة فى تفسير التغيرات فى الاتجاهات الاجتماعية ، لقفل مثلا ، لكل من واردووت أو كوليردج Wordsworth or Coleridge • وحسب تيلور تنشأ هذه التغيرات من السمك المتنامى لحواجز ــ الأنا • ربما بسبب

---

(1) Taylor, G. R. (1958), 189 ff., 186, 198.

(2) Hoffman, E.T.A. Quoted, Taylor, G. R. op cit., pp. 189 - 93.

Taylor, G. R. (1958), pp. 193 - 203.

موافقة هؤلاء الكتاب على الآراء الأبوية ، وبسبب التغيرات فى التوحدات الوالدية ، وهى التغيرات التى يمكن نسبتها الى التقدم فى العمر ومن الممكن للأفراد بالطبع أن يرفضوا أو يوافقوا على صـــورة الأب • ويمكن أن يحدث ذلك مثلا فى التوبة [١] • وفى الحقيقة ، فان الموقف يصبح غير محدد ودينامى اذا كان الاهتمام ينصب على التوحدات الوالدية • وهذه مسلمة ضرورية بالنسبة لتيلور • والا قد يكون من الصعب أن نفهم امكان تغيير أشكال الأخلاق والدين • فاذا سلمت أساليب تربية الأطفال من جيل الى آخر ، حتى لو أبيح الزواج الداخلى والحراك الاجتماعى ، فانه من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يقع أى تغير أساسى فى الاتجاهات الاجتماعية ، اذا لم يكن الاطار السيكلوجى مرنا بالقدر الذى يستطيع فيه استيعاب أنواع معينة من الدينامية المنتجة للتغيرات البعيدة المدى ••

ويعتبر مفهوم حدود ــ الأنا هام فى مساعدتنا على فهم كيف يمكن للتطهرى والرومانسى أن يقترب كل منهم من الآخر فى جوانب معينـــة لسلوكهم • فأولا كلاهما فردى • غير أن طبيعـــة النزعة الفردية لديهم تعبر عن نفسها فى أنماط حياة مختلفة • ويوضح ذلك بما يلى :

(يعتبر الأبوى ذو الحواجز القوية فرديا ، بمعنى أنه يشعر باحساس العزلة عن رفاقه من البشر ، ومن ثم يساعده ذلك على تأسيس نســق اقتصادى يستند الى افتراض أن البشر يكونون وحدات منعزلة ، وهو يستجيب فقط لقوى السوق ، ولا يتأثر بالعواطف أو التقاليد أو الدوافع غير الرشيدة • وعلى النقيض ، فلدى الرومانسى احساس بالقرابة أو الألفة مع الآخرين ، ويرفض الأطر الاقتصادية ذات الطبيعة التنافسية ويفضل الأطر ذات الطبيعة التعاونية • غير أن الرومانسى فردى بمعنى أنه يعشق التفرد الفردى ، فى حين أن الأبوى يرغب فى أن يتمثل كل البشر لنموذج مثالى • ويمكننا أن ندعى أن الأبوى ذا الحواجز القوية هــو فردى اقتصادى ، فى حين أنه ممتثل أخلاقيا [٢] •

---

(1) Ibid., p. 199.

(2) Taylor, G. R. (1958), p. 233.

ويوضح الفصل أيضا طبيعة الدوافع الانسانية الخيرية للجماعتين • اذ يستجيب الرومانسى بالنظر الى الدافع التلقائى للشفقة بالنسبة لضحية واقعية معينة لسوء الحظ • وهو يهتم باكتشاف ومساعدة الحاجات الحقيقية للفرد الحاضر هنا والآن • وتعتبر نقطة ضعف فيه من حيث كونه عاجزا عن المشاركة فى مشروع خيرى كبير ومستمر موجه لمساعدة الجماعات البعيدة عن نطاق رؤيته • ومن ناحية أخرى ، يعتبر التطهرى الاحسان واجب مفروض عليه بالنظر الى مبدأ مجرد • وهو يشارك فعلا فى مشروعات لأعمال الخير المنظمة واللاشخصية الموجه فى نمطها الأساسى نحو أسباب بعيدة عن حياته اليومية • وعلى ذلك فهو قد يكون من مناوئى Opponent العبودية فى الخارج ، ينظم عملات عامة للقضاء عليها ، لا يدخر جهدا فى هذه المهمة • غير أنه فى الوقت نفسه يظل غير حساس نسبيا للشدائد الأليمة التى يعانيها البشر القريبون للغاية منه ، وربما يعانون من ظروف أكثر سوءا من العبيد الزنوج فى جبال الانديز الغربى West Indies • أو اذا كان مدركا هذه الحقيقة بدرجة كافية ، فانه لا يشعر بأى التزام أخلاقى بفعل أى شىء نحوهم • ومن الحقيقى أيضا أنه حتى اذا تحرك فى النهاية بسبب ظرف لانسان قريب منه فانه لا يهتم بادراك الحاجة الحقيقية التى ينبغى عليه اشباعها • فهو يقدم حجرا بدلا من الخبز — أو ربما يقدم الانجيل كما هو أكثر شيوعا [1] •

ويرتبط الاختلاف فى عمق الشعور بالآخرين والألفة معهم باعاقة الدافع • اذ يعتبر تقييد التلقائية والدافع الطبيعى من الخصائص الرئيسية لتعليم التطهرى ، ربما بصورة مطلقة • وكنتيجة لذلك يظهر التطهرى خواص الحرفية Literalness بدرجة ملحوظة للغاية • حيث يسود ذلك خلال كل جوانب سلوك التطهرى ، الأبوى ، الاستى ، ذى الحواجز

---

(1) Ibid., pp. 247 - 8. يتوارد الى الذهن وليام ولبرفوس William Wilberforce بهذه المناسبة . اذ حدد الـ Hammonds التناقض بين اتجاهاته نحو العبودية الزنجية وبين اجر العبودية .

القوية [1] فالوحى الانجيلى بالنسبة له ليس مسألة معنى لفقرة معينة فقط : وانما يمتد الى الكلمات المقررة وربما الفواصل • ويحتوى الانجيل ، وبصفة خاصة العهد القديم توجيها كاملا لكل شيء ــ السلوك الأخلاقى ، العقيدة الدينية ، تاريخ اليهود ، المعرفة العلمية ، ومشاكل الحياة اليومية ، (التى يمكن أن نجد حلولا لها عن طريق التحوير للفقرة عشوائيا) ، وحياة المستقبل ــ ، كل شيء فى الحقيقة • وينتج هذا الغياب المرضى للخيال والاحساس التلقائى عن هذا النوع من التعليم •

ومن ناحية أخرى ، يزرع الرومانسى الخيال بكل وسيلة متاحة له • وتمثل الحكايات الجميلة ، والقصص ، والروايات ، والاستخدام الحيوى للألوان فى الحياة اليومية ، ومبدأ عدم التمثيل فى الفن ، والملبس المتقن وأساليب التعامل ، والتأكيد على البرية الطبيعية فى زراعة الحدائق ، واستخدام الحلى فى المعمار والتزين الداخلى للمسكن ــ وسائل قليلة يتم غرس الخيال الرومانسى بواسطتها • بل حتى مسموح له أن يحيا على حب رغباته ونزواته • وعلى ذلك توفر درجة التلقائية أو افتقادها بعدا آخر ينبغى أن يعطى اعتبارا فى دراسة التاريخ والشخصية [2] •

وتعتبر العدوانية ، ذات الطبيعة السادية ، منتشرة أيضا بين الأبويين • وقد فسر تيلور ذلك استنادا الى فرض الاحباط ــ العدوان [3] • فالطفل المقيد بشدة فى ملابس القماط ، والذى يفطم بحدة فى اطار أسبوع أو أقل ، ينمو فى اطار بيئة معاقبه ومقيده لكل دوافعه الطبيعية المخنوقة منذ لحظة الولادة ، حيث يمكنه أن يتخلص من قدر من العبء الثقيل للاحباط وعدم السعادة الذى تولده هذه الطرق من خلال الصراخ • غير أن قدرا كبيرا من الكم الكلى للاحباط يجبر الى التحول الى دوافع عدوانية • حيث تجد كثيرا من هذه الدوافع تعبيرا صريحا لها • فمثلا ،

---

(1) Ibid., pp. 89. ff.
(2) Ibid., pp. 89 ff., 211 ff.
(3) Dollard, J. et altera (1944).

يشهد هذا النسق لتربية الطفل على الدوافع السادية والعدوانية عند الآباء • تحت افتراض أنهم يفرضون جزءا من الاحباطات التى عانوا منها أثناء الطفولة • ولقد ساد أيضا العنف الشخصى بين الزوج والزوجة فى هذا القرن • وانتشر العقاب البدنى ، واتخذت الوحشية طابعا طقوسيا ، بالنسبة للضعيف ومن لا عون له ، فى اطار الجماعات الأبوية • وازدهرت [1] أشكال العدوان الكامنة الى جانب العدوان الأكثر وضوحا •

ومن ناحية أخرى يعتبر النظام الأموى للتعليم وتربية الأطفال اباحيا وغير عنيف • اذ تدلل الطبقات العليا أطفالها بكل أنواع اللذات • فمن النادر أن يعاقب الأطفال وقد لا يعاقبون أبدا ، حيث يسمح لهم أن يتعلموا من خلال المعاناة كنتيجة لأفعالهم على حسب مبادىء روسو • ويعتبر تصور الأبوى ، بأن الوظيفة الأساسية للتعليم هى كسر ارادة غريبة على هذا النظام التعليمى الأموى • وحينما يطلب التعبير عن العدوان ، فانه يحدد بدقة من خلال أشكال محددة سلفا ، كالمبارزة • واعتبر الـ Cut direct ليس الا واحدا من العدد الهائل للطرق الرسمية لتفريغ الألم ، والعدوان الصريح ، بالتعبير عنه من خلال حد أدنى من المؤشرات الطبيعية •

وبهذا الأسلوب يفك تيلور أسرار التغير التاريخى • اذ اعتبرت العوامل السيكلوجية سببا ضروريا للتغير الاجتماعى • حيث تعتبر الشخصية الانسانية متغيرا ترتبط به ميكانيزمات اجتماعية لتؤسس تحولات فى عادات واتجاهات الجماعات وفى النسق الاجتماعى • وعلى ذلك • فقد استخدام تيلور ستة متغيرات أساسية للشخصية فى ادراكه للتغير •

١ ــ طبيعة الصور الوالدية المتقمصة ، سواء أكانت أبوية أم أموية •

٢ ــ مستوى تثبيت ليبيدو الطفولة ، سواء أكان فميا أم استيا أو تناسليا •

---

(1) Taylor, G. R. (1958), Passim.

٣ ــ طبيعة حدود (الأنا) ، سواء أكان واهن الحواجز أم قوى الحواجز •

٤ ــ درجة التعبير عن العدوانية الصريحة ، سواء أكان هــذا التعبير متطرفا أم غائيا •

٥ ــ وجود أو غياب الاحساس المغالى بالذنب •

٦ ــ تلقائية الاستجابة فى مقابل الاعاقة المتطرفة للدافع الطبيعى أو السلوك التعبيرى [1] •

ومن الناحية النظرية ، فانه فى امكان هذا التصنيف أن يولد ٩٦ نموذجا للشخصية • فاذا أخذنا فى الاعتبار رافضى ــ الأم ، ورافضى الأب باعتبارهما نماذج خاصــة متميزة الى حد واضــح عن الأمويين والأبويين ، فان التصنيف الموسع ســوف يولد ١٩٢ نموذجا كاحتمالات نظرية • ويبدو أن تيلور لم ينجز هذا الحساب • وان كان لديه ما يقوله فيما يتعلق بالتكرار الذى يحــكم تأسيس نماذج معينة فى الفترة التى خضعت للبحث •

وليس هناك دليل نظرى ، لسبب عدم امكان حدوث كل ارتباط يمكن تخيله بين هذه العناصر فى الحياة الواقعية ، وأن علينا أن نتوقع حينئذ النماذج العديدة التى تظهر بنفس القدر تقريبا • وفضلا عن ذلك ، فبرغم أنه يمكن وجــود أمثلة ارتباط تقريبية كثيرة فى الحياة الواقعية ، فان الشىء الذى يصدمنا ، أن معظم الارتباطات نادرة فى الممارسة : فأحيانا يوجــد مثال واحــد فقط • وعلى النقيض ارتباط أو ارتباطان منتشران تماما • وأكثر من ذلك ، تتغير النسب تدريجيا • اذ يكون التوحد بالأب أكثر شيوعا من التوحد بالأم خلال فترة غير أنه بتقدم الزمن ، يصبح التوحد بالأب المذنب والمعاق مازال أكثر انتشــارا • وبالمثل ، تظهــر الخصائص الاستية بتكرار متزايد • ويعنى أنه ينبغى أن تعمل مؤثرات

---

(1) Taylor, G. R. (1958), pp. 200 - 3.

ثقافية أساسية — الى حد كبير فى مجال بيئة الطفل — لكى تؤدى الى هذه النتيجة [1] .

وقد يكون هاما أن تتخذ مثالا ، كان فيه تيلور عاجزا عن تحديد أى من رافضى الأم على مــد فترة (١٥٠) سنة بكاملها [2] .

ولايجــاز وجهة نظر تيلور : فهو يؤكــد أن أنواعا معينة من العمليات السيكلوجية تعتبر هى التفســير النهائى للظواهر التاريخية . وتعتبر الشخصية ، التى يتم بناؤها من خلال ممارسات تربية الطفل التى يتعرض لها كل جيل جديد ، القوة الحقيقية الدافعة للتاريخ . وفى الفترة موضع المناقشــة ، تتكون العملية التاريخية مــن الانتشــار البطىء ، للمعابد والمعتقدات وقواعد السلوك من الطبقات التجاريــة الوسطى الى أعلى وبقدر ما الى أسفل . ويكمن سبب موافقة المجتمع بصفة عامــة على أخلاق الطبقات المتوسطة وعلى سيطرتها المتزايدة على مالكى القوة . وتعتبر هذه القوة ، وهذا التأثير المتزايد نتيجة مباشرة للامتيازات التى أصبحت حقا شرعيا لها ، بسبب امتلاكها (كجزء من بناء شخصيتهم) الفضائل التجارية ، الخاصــة بالدأب ، والعزم ، والاقتصاد .

---

(1) Ibid., p. 204.
(2) Ibid., pp. 200 - 5.

الفصل الرابع

التغير الاجتماعى والفعل الاجتماعى

الى حد كبير اتبع بارسونز (*) فى نظرية الفعل مسارا ممهدا [1] • حيث اتخذ النسق الاجتماعى كنقطة بداية له • ومن الواضح أن النسق الاجتماعى يتكون من النظم التى تتكون بدورها من الأدوار التى تتولد عن الأفعال • ومن ثم يتحدد النسق الاجتماعى باعتباره أحد الاحتمالات العديدة لأنساق الفعل ، التى يمكن تفسيرها فى ضــوء النظرية العامــة للفعل • وبذلك تعتبر الأفعال الاجتماعية ليست الا واحدة من مجموعة نماذج الفعل المحتملة • وهناك بالاضافة الى المجتمع ثلاثة أنساق أخرى للفعل • وهى تتفاعل وتتداخل كل مع الأخرى • هذه الأنساق هى نسق الطبيعة Nature ، الشخصية Personality ونسق الثقافة Cultural System ويعتبر النسق الاجتماعى مستقلا عن الأنساق الأخرى •

(*) ولد تالكوت بارسونز Talcat Parsons فى ١٩٠٢ . وبعـد ان تخرج من الجامعة فى أمريكا ، نجده درس على كل من هوبهوس Hobhouse ومالينوفسكى Malintowski فى كلية الاقتصاد ــ بلندن . وتركزت أطروحته لدكتوراه التى نالها (من جامعــة هيدلبرج ــ Heidelberg ــ فى ١٩٢٥) حول طبيعة المجتمع الراسمالى . وبعد أن عاد الى امريكا درس الاقتصاد ثم أخــيرا الاجتماع فى جامعــة ايمرست ــ Amherst وهى الكليــة التى تخرج منها ثم فى جامعة هارفارد ــ Harvard ــ . وفى سنة ١٩٤٦ اصبح رئيسا لقسم العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد . ثم انفق سنة (١٩٥٣ ــ ١٩٥٤) كأستاذ زائر بجامعة كامبردج Cambridge فى انجلترا . وقد اهتم بارسونز بصفة خاصة بالجماعات الدينية السرية . برغم أنه كتب مؤلفات نظرية متميزة عن طبيعة المجتمع ، وعن العلاقات بين علم الاجتماع والاقتصــاد وحــول عديد من الموضــوعات اليوميــة . وتحت قيادتــه قدم فــريق متميز مــن الــدارسين اسهامات هائلــة للعــلم ، وبخاصــة فى مجال علم النفس الاجتماعى ، ودينامية الجماعة ، والنظرية السوسيولوجية .

(1) Saurces For Parsons theories are especially : Parsons, T. and Shils, E. A. (1951); Parsons, T. (1952, 1954, 1960); Parsons, T. and Smelser, N. (1957); Parsons, T. et altra (1955 - 1961), Black, M, (ed - 1961).

بمعنى أنه من الناحية المنطقية متميزا تماما ، برغم كونه ، كحقيقة امبيريقية يتكون من الأفراد الذين يشتركون فى ثقافة مشتركة وحياة مشتركة • ويمكننا أن نبدأ بتعريف بارسونز للنسق الاجتماعى :

(يتكون النسق الاجتماعى من جمع من الأشخاص المتفاعلين والمدفوعين بالنظر الى الميل نحو (تحقيق حد أمثل من الاشباع) والذين تتحدد علاقتهم بموقفهم ، بما فى ذلك الآخرون ، فى ضوء نسق من الرموز المشتركة والمنظمة ثقافيا) [١] •

ولاجراء التحليل التصورى ، يمكن تمييز النسق الاجتماعى عن أنساق الشخصية ، والنسق الثقافى ، ونسق الطبيعة العضوية • ويبدو أن بارسونز يحاول عادة أن يتخيل مشاكل الأنساق بالنظر الى هيكل من الصناديق الفارغة التى يصل عددها أربعة فى العادة • وكما نرى يجزىء الواقع ككل فى اطار هذه الصناديق كما فى المثال التالى :

المجتمع (النسق الاجتماعى)	الانسان (نسق الشخصية)
الثقافة (النسق الثقافى)	الطبيعة (النسق العضوى)

وتتداخل هذه الأنساق وتتفاعل مع بعضها البعض ، ولأغراض التحليل فانه ينبغى أن تبقى منفصلة منطقيا • وبالنظر الى حقيقة أن الطبيعة تشكل مجال عمل العالم الطبيعى ، والثقافة بالنسبة للأنثروبولوجى ، ونسق الشخصية بالنسبة لعالم النفس ، فقد يكون تقسيم عمل تقليدى مثيرا للاعجاب اذا تركنا النسق الاجتماعى لعالم الاجتماع •

(1) Parsons, T : (1952), pp. 5 - 61.

ويمكن تعريف النسق بأنه مركب من العناصر التى تعيش فى حالة من التفاعل المتبادل • ولا يحتوى أى من الصناديق الأربعة على الحقيقة ، فهى ليست صناديق مغلقة بشكل كامل • اذ يقبل كل منها مادة من خارجه • فالنسق الاجتماعى مثلا يشارك فى عمليات التفاعل المشترك مع الأنساق الثلاثة الأخرى ، النسق الثقافى والعضوى ، ونسق الشخصية • ومن ثم فهو يتفاعل مع كل من هذه الأنساق • فهى أنساق مفتوحة ، ويعنى ذلك أن كلا منها لها تبادلاتها مع بيئتها التى تتشكل بالطبع من الأنساق الثلاثة الأخرى • كل منها له ما يأخذه من الأنساق الأخرى ولديه مخرجاته بالنسبة لها •

وتتشابه هذه الأنساق الأربعة فى امتلاكها لعمليات تجديد بنائها الداخلى التى تقيها من الانهيار ، ويميل كل منها الى أن يبقى فى حالة ثابتة Steady State كنتيجة لفاعلية ميكانيزمات التوازن والتنظيم الذاتى • وذلك يعنى أنه ليس باستطاعة التبادلات الكثيرة التى تقع على حدود الأنساق أو التغيرات الداخلية التى تقع داخل كل نسق ، أن تعوق على نحو خطير ــ العمليات المستمرة التى تحافظ على حياة النسق العادية • وبصفة عامة توجد عملية التباين التى تنتج عن الزيادة فى درجة تعقد كل من هذه الأنساق بمرور الوقت • وتوجد أيضا زيادة فى درجة النظام داخل كل نسق (برغم احتمالية تعرض الواقع ككل للتناقص [١] ، بمعنى الانهيار التدريجى حتى الفناء) •

ونحن نتعامل فيما يتعلق بالأنساق الثلاثة للمجتمع والشخصية والثقافة مع أنساق للفعل • حيث تنطبق المبادىء المتضمنة فى النظرية العامة للفعل على كل من هذه الأنساق •وتوجد نفس العمليات والمتغيرات العامة فى كل منها • فمثلا ينقسم كل منها الى نفس عدد ونماذج الأنساق الفرعية • ويتحقق ذلك لأنه لكى نؤمن استمرارية النسق فانه ينبغى توفير

---

(1) Parsons, T. et altra (1951). Toward a General theory of action especially Chapter. I.

الضرورات الوظيفية لكل منها • وللتعبير عن ذلك بصــورة أخرى ، نؤكد أنه من طبيعة النسق المفتوح أنه يتطلب توفر شروط محددة اذا كان للنسق أن يبقى • فوفقا لنظرية الفعل تتمثل هذه الشروط فى أن كل نسق يتطلب أن يكون لديه أربعة عناصر أو أنساق فرعية ضرورية • ويتطلب أى نسق للفعل أيا كان ، الطبيعة ، المجتمع ، الشخصية ، الثقافة ، (A) نسقا فرعيا أدائيا يساعد على التكيف أو متحكما فى الموضــوع (G) نسقا فرعيا تعبيريا ، محققا هدف الاشباع (L) نسقا فرعيا كامنا ، يدعم النمط ، ويحقق تكامل المعنى ، وينظم الطاقة ، (I) نسقا فرعيا تعبيريا من خلال الرموز ، ويحقق التكامل (*) ويمكن توضيح هــذا البناء بالشكل التالى :

النسق الفرعى المحقق للتكيف (A)	النسق الفرعى المحقق للاشباع (G)
النسق الفرعى المحافظ على النمط (L)	النسق الفرعى المحقق للتكامل (I)

(*) تشير الحروف الانجليزية فى الشكل السابق الى الاختصارات التالية : (A) اختصار لكلمة (تكيف adaptiue) ، (G) اختصار لكلمة Goal - Grafifi Calion وتعنى هدف الاشباع ، (L) اختصار لكلمة Pattern - Mainteuance Latency وتعنى الكمون ، أو دعم النمط . (I) وهى اختصار لكلمة يحقق التكامل Integratiue بارسونز استراتيجية لتحليل النسق (نسق الفعل او اى من انساقه الفرعية) . الأولى استراتيجية التحليل البنائى وفيها يحاول نسق الفعل من حيث عناصره ومكوناته الأساسية ثم طبيعة العلاقات المتبادلة بين هذه العناصر ، أما الاستراتيجية الثانية فتسمى باستراتيجية التحليل الدينامى ، وفيها يحلل نسق الفعل أو أى من انساقه الفرعية بالنظر الى الأداء الوظيفى الذى يؤديه النسق الفرعى لنسق الفعل من المستوى الأعلى . وفى اطار نسق الفعل يتولى النسق العضوى تحقيق =

وقد تم حل مشكلة المنهج فى نظرية الفعل بمنح علم الاجتماع مكانة العلم • حيث يلائم المنهج العلمى دراســـة الثقافة والشخصية والمجتمع مثلما يلائم دراســـة الطبيعة ، اذ لم يعد ذلك موضوعا للجـــدل • ومما لا شك فيه أنه مازالت هناك بعض القضايا الأساسية التى تتعلق بما اذا كان من الضرورى الاجابة بالاثبات على امكان الاستفادة من الاجراءات المنظمة للعلم ؟ • فقد تستطيع المعالجة الأكاديمية أو المنهج الحـــدسى تقديم الفروض ، غير أنها تفشل دائمـــا فى تقـــديم الحلول التى يمكن الموافقة عليها (١) • ويعتبر منهج التجريد التحليل فى علم الاجتماع ملزما كما هو الحال فى العلوم الأخرى • اذ ينبغى أن تكون التفسيرات النظرية للنسق الاجتماعى بالنظر الى المفاهيم والقضايا المنطقية القابلة للاثبات بواسطة بعض الاجراءات الامبيريقية •

ومن المؤكد استحالة أن يضم هـــذا التحليل كل جوانب الحقيقـــة الامبيريقية • ومن ثم يصبح الانتقاء أساسيا •ولذلك ينبغى أن يكون الاطار العلمى بسيطا ، غير أنه عليه ألا يمارس فاعليته بأى نوع مـــن البساطة • اذ يجب أن يتحقق التجريد عن الواقع وفقا لقواعد أو محكات منهجية ثابتة ، ويجب أيضا أن تكون للاطار التحليلى علاقة بالحقيقة الامبيريقية • وبهذا المعنى ، ينبغى أن يكون تفســـيرا صادقا للظواهر والعمليات التى تقع بالواقع • وبالاضافة الى ذلك ، ينبغى أن يكـــون التفسير محددا بالمثل من الناحية التصورية • بمعنى ضرورة الاقتصاد فى المفاهيم والفروض ، ولا ينبغى أن يكون الاطار تكرارا أو نقدا كلاميا (٢) •

= التكيف ، على حين يتولى نسق الشخصية تحقيق الهدف والاشباع ويختص النسق الاجتماعى بتحقيق التكامل بين مختلف الفاعلين فى تحقيقهم لأهدافهم ، كما يهتم نسق الثقافـــة بدعم النمط ، اى دعم التفاعلات الكائنة بالنســـق الاجتماعى أو نسق الفعل . (المترجم)

(1) Cf. Mcleish, J., Clinical intuition : a tutar' al discussion, Medical World, March, 1963; Cf. Parsons, T. and Smelser, N. (1957). p. 284.

(2) Mcleish, J., The Science of behaviour (1963) Chapter I.

ويتمثل المثال الذى يطمح فيه العلم فى تطوير نسق من القضـــايا التحليلية الوثيقة الصلة ببعضها ، والتى تكون على هذا النحو متساندة منطقيا Interdependant Logically • وبرغم أن ذلك قد لا يكون له صلة بالواقع ، فانه يجب أن يصبح ممكنا استنباط هذه القضايا من مجموعة من المسلمات والتعريفات الأساسية • وهى المهمة التى اهتم بها بارسونز ، برغم تسليمه بأن الاطار الذى قدمته نظرية الفعــل أبعد ما يكون عن الاكتمال • اذ تعتبر التعميمات المبكرة ، كالقول بالمجتمع ككائن عضوى ، أو ميكانيزمى ، أو تجمع من الأشكال الذاتية ، تعميما لا قيمة له فى تحديد مجال علم الاجتماع • فهى ذات ميل اسنادى ، بمعنى أن موضوع بحث علم الاجتماع يتم تصـــوره بالنظر الى فرع آخر للبحث العلمى ، كعلم الأحياء أو الطبيعة •

وكما رأينا يدرك بارسونز النسق الاجتماعى كنسق مفتوح يتفاعل بأساليب معقدة مع الأنساق الثلاثة الأخرى التى تحيط به • وبالنظر الى طبيعته كنسق للفعل نجـــده يتباين داخليا للتزود باللزوميات الوظيفية الأربعة : النسق الفرعى لتحقيق هـــدف الاشباع Sg ، النسق الفرعى المحقق للتكيف Sa ، النسق الفرعى المؤكد على التكامل Si والنسق الفرعى الذى يدعم بقاء النمط Sl ، وهو كما يوضح الشكل التالى ٭ •

Sa	Sg
Sl	Si

وتعتبر الأنساق الفرعية أنساقا مفتوحة أيضا ، لها نفس خصائص أنساق الفعل الأخرى المفتوحة • وتقع التبادلات التى نسميها بالمدخلات

(٭) يشير الشكل السابق الى طبيعة الأنساق الفرعية لنسق الفعل وهى تتشكل من مكون بنائى هو النسق الفرعى أيا كانت هويته (S) ثم مكون وظيفى (A,G,L,I) هو الأثر الذى يقوم به النسق الفرعى بالنسبة للنسق من المستوى الأعلى . بذلك نشير S A الى النسق الفرعى المهتم بالتكيف ، =

Inputs المخرجات Outputs عبر حدود الأنساق الفرعية • وعـادة ما تكون هذه الأنساق فى حالة من التوازن تشبه النسق الكلى فى هـذا الاعتبار ، حيث يؤدى كل منها وظيفته علي حسب مبدأ الضبط المؤكـد للاتزان • وبايجاز يمكن تعريف المجتمع كنسق من التفاعل الاجتمـاعى الشامل والدائم والذى لديه اكتفاء ذاتى • ويتضمن ذلك الحاجـة الى الابقاء على عدد كبير من الأنساق الفرعية والعمليات الأساسية اللازمـة للبقاء الحى الملائم ، ونقتبس ذلك :

(فلأن التنظيم الامبيريقى للنسق هو بؤرة الاهتمام ، فانه ينبغى أن يتحدد المبدأ الأساسى فى تصـور لنسق اجتماعى امبيريقى لديه اكتفاء ذاتى ، فاذا أضفنا الاهتمام بالدوام الملائم الـذى يتجاوز فترة حياة الفرد البشرى العادى ، فان عمليات كالجذب عن طريق التناسل البيلوجى ، وتطبيع الأجيال الجديدة تصبح جوانب هامة لهذا النسق الاجتماعى • ويصبح مجتمعا ، ذلك النموذج للنسق الاجتماعى الذى يوفر المتطلبات الوظيفية الأساسية اللازمة للاستمرار لفترة طويلة من داخل مصادره الذاتية) [1] •

وتعتبر المناشط activities والأدوار Roles والتجمعات Collectiuities هى الوحدات الأساسية المؤسسة للنسق الاجتماعى • وتجـد المناشط أصولها فى حقيقة أن الكائنات البشرية تسعى لتحقيق أهـداف معينة تشبع حاجات محددة • وفى أكثر الحالات بساطة بحث (الأنا) الآخر لانجاز فعل محدد معه • بحيث تجبر استجابة الآخر المتعلقة بانجـاز الفعل ،

= وتشير SG الى النسق الفرعى المهتم بتحقيق هدف الاشباع ، بينما SL يشير الى النسق الفرعى المهتم بدعم النمط ، او بتاكيد ما هو كامن فى التفاعل الاجتماعى ، فى حين أن SI يشير الى النسق الفرعى المهتم بتحقيق التكامل بين الوحدات المكونة للنسق . وهنا نجد ان بارسونز يمارس تحليلا على محورى التحليل البنائى والتحليل الدينامى او الوظيفى (المترجم) .

(1) Parsons, T; (1952), p. 19 Cf. Parsons, T. (1961) pp. 30 - 79.

behavioural repertoire

(الأنا) على تقويم نشاطهما المشترك ومن ثم التخطيط لسلوك المستقبل على أساس ما تم تعلمه من هذه الخبرة • وبالمثل نجـد أنه مفروض على الآخر أن يقوم ليس فقط مبادءات الأنا ، ولكن انجازهما المشترك أيضا • بحيث يتم ذلك بالنظر الى الاشباعات التى تتيسر لكل منهما كنتيجـة للفعل المتعاون • وقد يبدو أن هذا التحليل يستند الى حد كبير على الجانب الادراكى ، غير أن الفعل الاجتماعى Social Act له هدف يتجه اليـه وبعض الجوانب المؤثرة أيضا • وهو موجه نحـو هـدف ، بمعنى أنه يؤدى أو يفترض أنه يؤدى الى تحقيق غاية ذات قيمة ، وهو مؤثر طالما أن الأنا والآخر متضمنان شعوريا أو عاطفيا فى حالة نجاحه أو فشله [1] •

ويؤدى تفاعل (الأنا) والآخر الى ظهور النسق الاجتماعى • وفى شكله الأساسى يتكون هـذا النسق من مجموعـة التوقعات المتبادلة • فمثلما تصرف الفاعل فى المـاضى فانه من المتوقع أن يتصرف كذلك فى المستقبل • ونفس الشىء بالنسبة للآخر • اذ تتأسس مجموعة من التوقعات المتبادلة على أساس من التفاعل الأساسى والمستمر • وتدعم هذه التوقعات على أساس انتقائى لأن الأفعال التى تجازى من المحتمل أن تقع ثانية بدرجة أكثر من الأفعال التى لم تجاز • بحيث تميل الأخيرة لأن تلقى من المخزون السلوكى Ðchavicurac repertoire • ومن ثم فمن خلال التفاعل المستمر بين (الأنا) والآخر ، ومن خلال توقعاتهما المتبادلة يمكن للأدوار الاجتماعية أن تتباين • ويمكن تعريف الدور على أنه مشاركة الفرد المصوغة بنائيا ، والمنظمة معياريا ، فى التفاعلات الواقعية مع رفاق دور واقعيين ومحددين • ويتضمن ذلك أن التفاعل المعتاد بين فردين أو أكثر يؤدى بسرعة الى تأسيس نسق من القواعد التى تحدد أنماط السلوك المتوقعة والمسموح بها • بحيث تنشأ هذه القواعد من الضرورة الاجتماعية الشاملة لتأمين حد أقصى من اشباع الحاجات الملحة •

---

(1) Parsons, T., Op. Cit., Especially 1951, 1952, 1961.

ويصل نسق الواجبات والحقوق المتكاملة نفسه بأدوار معينة • بحيث تنشأ هذه الحقوق والواجبات نتيجة للاشباع المتكرر للتوقعات بالأسلوب الأمثل بالنسبة للمشاركين فى التفاعل • بحيث يمكن تجميع هذه العناصر الخاصـــة فى شكل قواعد ومعايير • وتؤدى القواعد وظائف عدة : فهى تحدد حدود الفعل ، وتعين قواعد الانجاز ، وتقرر المكافآت والجزاءات المرتبطة بانجاز الدور ، ثم هى تحدد المواقف والسياقات التى يتم فى اطارها الفعل • فاذا كان لدينا جمع من الفاعلين يؤدون أدوارهم بالنظر الى مجموعة من القواعد المتفق عليها تمتلك الجزاء أو الردع الخـــاص بنسق القيم الاجتماعية ، فانه يكون لدينا تجمع [١] •

ولا يعتبر النســق الاجتماعى مجرد خليط من الأدوار والمناشـــط والتجمعات • طالما أن المعايير تحكم السلوك ، فان نسق القيم يتحكم فى كل مركب المناشط ، والأدوار والتجمعات [٢] • وتختلف القيم عن المعايير ، فللقيم أولا درجة كبيرة من العمومية • وتتميز القواعد المتعلقة بمجموعة معينة من الأدوار بأنها ذات طبيعة محددة • وبعبارة أخرى ، فهى تنتسب لمواقف خاصـــة وتشير الى وظائف محددة ينجزها الفاعلون لمصلحـــة الجماعة • ومن ناحية أخرى ، تعتبر القيم شاملة : أو هى تميل على الأقل نحـــو الشمولية • وذلك لأنها تحدد اتجاه النسق ككل • ويمكن أن يعبر عن ذلك بأن القيم تشرع مناشط النسق الاجتماعى بكامله • فهى تميل لأن تتجمع حـــول النظم : مثـــلا هناك تركيز على القيم المتعلقـــة بالأسرة والاقتصاد والدولة ، وما الى ذلك • وفى الحقيقة يمكن اعتبار النظم تكاملات للدور حيث ان لها علاقة استراتيجية بنسق حاجات الجماعة الاجتماعية • وطالما أنه يمكن مقارنة الأدوار بالنظم على مستوى أدنى من العمومية ، فانه يمكن اعتبار المعايير فى مستوى أدنى من العمومية عن القيم •

---

(1) Parsons, T. (1952) pp. 41, 97 - 8, 135 - 6, 174 - 5.

(2) Parsons, T. (1952) pp. 30 - 45, 51 - 8, et altra (1961), p. 65.
Coltural Intitution

وتوجد ثلاثة أنواع من النظم الاجتماعية وفقا لتصور بارسونز • اذ تشـكل النظم العلائقيـة relational institution جـوهر النسق الاجتماعى • لأنها تحدد توقعات الدور المتبادلة • وتعتبر علاقة الزوج بالزوجة ، والابن بالأب ، والعامل وصاحب العمل ، وما الى ذلك بعض أمثلة للنظم العلائقية • وثانيا توجد النظم التنظيمية • وتؤدى دورها فى تنظيم مصالح الأفراد والجماعات عن طريق تحديد الوسائل المشروعة التى يمكن اللجوء اليها للسعى وراء المصالح • ويعتبر البوليس ، ومحـاكم القانون ، سـوق الأوراق المـالية ، والبرلمـان ، وما الى ذلك أمثلة من هـذا النـوع • وثالثا توجـد النظم الثقافية institution التى تحـدد الالتزامات بالنظـر الى الأنمـاط الثقافية ويكمن دورها فى توجيـه الفرد نحـو أنماط المعانى الاجتماعية الموافق عليه • وتعتبر القيم الموافق عليها والمعرفة المنظمة ، والمعتقدات ، ومعايير القيم الفنية وما الى ذلك ، أمثلة للنظم الثقافية ، وتؤدى هذه الأنواع الكثيرة من النظم دورها بطريقة تعمل على استقرار الأدوار والتفاعلات بين الأفراد • وهى أيضا تبلور فى شكل حقيقى مستوى تنظيم النسق الاجتماعى والتباينات التى تحققت فى اطاره • اذ يحدد كل نظام القيم موضـع الاتفاق فى المجتمع بطريقـة خاصـة ومتميزة • ويؤدى النظام دوره كاطار أساسى — أو مستودع للأدوار الاجتماعية • فمن خلال النظم الاجتماعية يمكن انتاج الموارد المـادية والروحية وتوزيعها والاستفادة منها وتبدو الوحدات الواقعية فى شكل الأفراد والمناشط والجماعات كمـا لو أنها أصبحت متخصصة ومتعلقة بالنظم •

وعموما يبرز النسق الاجتماعى نفس خصائص السلوك • اذ توجه العمليات الرمزية السلوك نحو الهدف ، وتصوغ تكيفه ، وتدفعه أو تقوده • ويمكن قول نفس الشىء عن المجتمع • اذ تؤدى كل الأنساق الاجتماعية وظيفتها وفقا للضرورات exi - gencies الأربعة المتعلقة بالسعى لتحقيق الهدف goal - seeking والتكيف adaptaion والدافعيـة Motivation والرمزيـة Symbolization اذ يجب أن يعمل المجتمع على الاستفادة من الموارد المتاحة

له • وذلك يعنى ، أولا ضرورة أن يكون المجتمع متكيفا • حيث يجب أن يكون الأفراد والجماعات فى المجتمع قادرين على التسليم بغايات محددة والاندفاع نحوها باعتبارها اشباعات محتملة للحاجات التى يشعرون بها • وتعنى ثانيا ، أن على الجماعة أن تنظم نفسها تجاه تحقيق الهدف • اذ ينبغى المحافظة على الوحدة الاجتماعية من الانهيار بفاعلية الميول الهدامة • ويعنى التعبير عن ذلك بشكل آخر أنه ينبغى حراسة أنماط النشـــاط المحددة ، وقيم ومعتقدات المجتمع من التغير العنيف Violent والهدام distructive • وتعنى ثالثا ، أنه ينبغى أن تعيد مجموعة العمليات تأكيد الأنماط الكامنة للنظام • وتعمل على أن تبقى التوتر عند مستوى من الممكن السيطرة عليه • اذ يجب أن تتكيف الوحدات الاجتماعية المختلفة بشكل متبادل كل مع الأخرى بصـــورة مستمرة ، بحيث يمكن عن طريق ذلك رفع مستوى اسهامها فى الأداء الوظيفى الفعال للنسق • وتعنى رابعا الحاجة الى نسق فرعى يؤكد التكامل لتيسير التكيفات الداخلية ، ولكى يوائم النسق على حسب متطلبات الموقف الخارجى •

وكما أشرنا سابقا نجد أن كل نسق فرعى مفتوح بطبيعته • ويمكن تقسيم كل نسق فرعى وفقا لنفس أبعاد تقسيم النسق الاجتماعى ذاته الى أنســـاق فرعيـــة ــ فرعية Sub - Sub system تتعلق بالتكيف ، والتكامل ، وتحقيق الهـــدف ، والمحافظة على النمط • بحيث تؤدى هذه التصنيفات الفرعية الى ظهور ست عشرة خانة فارغة • وينبغى ملء هذه الخانات بمضمون امبيريقى مأخوذ عن الفعل الاجتماعى الواقعى كمـــا يوضح الشكل التالى (*) •

(*) يكشف النظر فى المربع السابق انه منقسم الى اربعـــة انســـاق استاسية للفعل ــ بالنظر الى التحليل الدينامى ــ لكل منها وظيفة محـــددة . فالنسق المرموز له (SA) يشير الى النسق الفرعى المؤكد ، كذلك SG الى النسق الفرعى المتعلق بتحقيق الهدف بينما النسق SL هو النسق الفرعى المؤكـــد للكموت او دعم النمط فى حين يشير SI الى النسق الفرعى المهتم بتحقيق التكامل . وتحتوى المربعـــات بداخلهـــا الى رمـــوز ثلاث تشـــير الى ان النسق الفرعى من المستوى الثالث بالنسبة لنسق الفعل الشامل ، ومن المستوى الثانى بالنسبة للفعل المرموز له داخل الشكل بحرفين (المترجم) .

S_{Ai}	S_{Aa}	S_{Ga}	S_{Gi}
SA		SG	
S_{Ag}	S_{Ai}	S_{Gi}	S_{Gg}
S_{Lg}	S_{Li}	S_{Ii}	S_{Ig}
SL		SI	
S_{Li}	S_{La}	S_{Ia}	S_{Ii}

وعلى هذا النحو ، تتعلق القضايا الرئيسية الخاصة بالأداء الوظيفى للأنساق الاجتماعية بمسألة التفاعلات والعلاقات الداخلية المتبادلة للأنساق الفرعية الخاصة بالتكيف والتكامل ، وتحقيق الهدف والحفاظ على النمط • ومن الواضح أنه ينبغى وقوع تفاعلات وتبادلات عبر الحدود بين الأنساق الفرعية • وبذلك تصبح التبادلات الداخلية المحتملة نظريا نظريا عبر ستة حدود هى SA/SG, SA/SI, SA/SL, SG/SI, SG/SL, كما هو واضح فى الشكل السابق • وسوف تكون هناك أيضا تبادلات عبر الحدود الخارجية للنسق الاجتماعى والأنساق المحيطة ، كالطبيعة Nature والشخصية والثقافة ، ولن نعرض لهذه التبادلات بالتفصيل ، حيث قدم سملسر Smelser تصويرا امبيريقيا مفصلا ومعتمدا لها [1] • اذ يقع التبادل بين الأنساق الفرعية عبر الحدود المحددة التى تفصل القسم الفرعى المشترك لكل نسق فرعى • أعنى أن المنطقة التى يقع فيها التبادل بين SG و SA للنسق الفرعى المحقق للهدف والمحقق للتكيف تعتبر القسم الفرعى (a) لكل نسق فرعى • ذلك يجعل هذه التبادلات على حسب الاحتمالات النظرية التالية (ولا يعنى ذلك استنفاد كل الاحتمالات) :

(1) Smelser, N. (1959), pp. XII + 440.

١ $S_{Aa} \rightleftarrows S_{Ga}$

٢ $S_{La} \rightleftarrows S_{Ia}$

٣ $S_{Gg} \rightleftarrows S_{Ig}$

٤ $S_{Ag} \rightleftarrows S_{Lg}$

٥ $S_{Gi} \rightleftarrows S_{Li}$

٦ $S_{Ii} \rightleftarrows S_{Ai}$

ويتمثل السؤال الذى نطرحــه الآن • ما الذى يعبر حقيقة عبر الحدود بين الأنســاق الفرعية ؟ • من الواضح أن الانتقالات ليســت موضوعات فيزيقية ، ولا هى سلوك للكائنات العضوية • اذ لا يتنــاول التحليل السوسيولوجى الموضوعات الواقعية ، ولكنه يتناول التجريدات • وبالتحديد لم يفصل هذا القسم فى الاطار التحليلى لبارسونز وسملسر الى الدرجة التى يمكن أن يقدم فيها صــورة واضحة لمــا يحدث داخل النسق الاجتماعى بصــورة عامة • فمما لا شك فيه أن الست عشرة خانة قد ملئت • غير أنه لم يتضح كيف تعبر المواد Materials من خانة لأخرى ، وما هو الشكل الذى تعبر به ، وما هى ظروف الحدود التى تتيح هــذا التبادل وتشجعه • كيف يمكن التحكم فى اتجاه الحركة ومعدلها بالنظر الى ظروف مختلفة بشكل محدد ، كيف يهتز التوازن داخل الأنســاق الفرعية ، وماذا تكون شروط الاستقرار ، وما هى آثار ذلك على النسق كنتيجة للانتقالات عبر الحدود • كل هذه تساؤلات امبيريقية • حيث يمكن الحصول عن اجابات محددة لها عن طريق الدراسة المتعمقة لحالة معينة عن التبادلات عبر الحدود •

ومن الواضح أن نسق الثقافة أو نسق الشخصية ونســق الكائن العضوى السلوكى تعتبر بالتحديد مصدر مدخلات النسق الاجتماعى • ان لا توجد مدخلات مباشرة الى النسق الاجتماعى من البيئة الفيزيقية • حيث تتم التبادلات المتبادلة مع البيئة فى شكل مدخلات ومخرجات عن طريقة

الكائن العضوى السلوكى وتتكون المدخلات من القواعد المنظمــة للاعلام in Formation أو الاهتمامات Need - dispositions حيثتوجد منها أربعة: الكفاءة odoquacy ، الأمن Secerity لتوافق Con Formity أو التنشئة Nunturance وامــكان المرونــة Plastic Potentiatity وتتولد القيم من داخل النسق الاجتماعى ذاته وتصبح هذه الانواع الكثيرة من الموارد متيسرة كنتيجة لتفاعلات النسق الاجتماعى مع كل من الانسان الثلاثة الأخرى فهى تدخل النسق الاجتماعى من مواضع محددة ، أعنى من نسق الثقافة الى النسق الفرعى الخاص بالتكيف ، ومن نسق الشخصية الى النسق الفرعى المهتم بتحقيق الهدف ، ومن الكائن العضوى السلوكى الى النسق الفرعى الخاص بالتكامل . حيث تعبر الموارد المختلفة عبر حدود الأنساق المفتوحة ، ويتم معالجتها Processed بواسطة ميكانيزمات عدة . وتتجه بعض المنتجات الى التغذية الخلطية Feed back عبر الحدود الخارجية الى الأنساق المحيطة . حيث تقع هذه العمليات فى نطاق الفعل الاجتماعى . وتستفيد الجماعات والأفراد من هذه الموارد ، فى حين لايستفيد منها النسق الاجتماعى على هذا النحو . فالنسق الاجتماعى فى الحقيقة مجرد نوع من التجريد . فانتقال المدخلات والمخرجات ، وبالمثل استهلاك الموارد يتحقق مرتبطا بقوة بالأدوار الاجتماعية . وكما يذهب بارسونز :

(تعتبر الاستفادة من الموارد عملية تتعلق بالنجاح المحدد فى صياغة القرار ، وتوزيع فرص الفعل ، والتسهيلات والمسئوليات بتحديد أكثر فى كل مرحلة . أما المراحل التى هى أكثر وضدها فهى التوزيع بالنسبة للجماعة والدور والمهمة . وتتمثل وظيفة الجماعة فى تحديد ما ينبغى عمله ، فبالنسبة للدور تعين من يقوم به ، وعلى مســتوى المهمــة كيف يمكن انجازها) [١] .

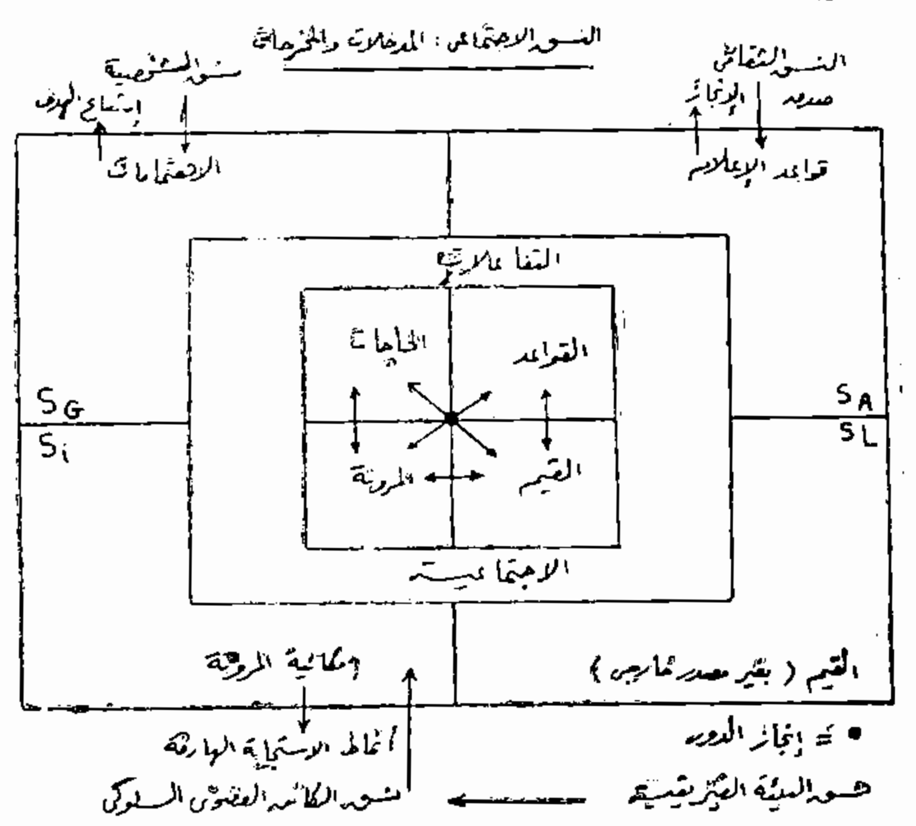
ويمكن ايجاز هذه العلاقات فى الشكل الوارد فى الصفه التالية . وينبغى أن نتذكر أنه فى حالة النظر الى هذا النموذج المجرد للنســق

---

(1) Parsons, T. (1961) p. 65.

الاجتماعى فان الأفراد والجماعات هى التى تتفاعــل بالمعنى الفيزيقى لذلك •

وتتمثل الغاية النهائية للاستفادة من الموارد داخل النسق الاجتماعى فى تحقيق المهام (١) اذ توجد ميكانيزمات اجتماعية محددة لضبط انسياب الموارد الاجتماعية والانتفاع بها ، وهى التى تساعــد فى تأكيد انجاز المهـــام (٢) •



وتعتبر النقود من هذه الميكانيزمات ، حيث أخضعت لأكثر التحليلات تفصيلا • وأساسا ، تعتبر النقود بالنسبة لبارسونز أسلوبا متخصصا للاتصال ، حيث تتمثل وظيفتها الاجتماعية فى الأداء كنموذج واقعى فى تتابع التوقعات • وهى أيضا تعمل على تأسيس الالزام بالأدوار والارتباط

---

(1) Ibid., p. 65, et altra.

(2) Parsons, T. et altra (1961) pp. 52, 66.

بها . وتساعد النقــود كذلك على التوزيع الرشيد للموارد : فهى تحتوى على شيء له طبيعة المشحم أو الملطف الاجتماعى Social Lubricant .

ويشبه ميكانيزم التزام الواقعى Real Commitment النقود الى حد كبير [١] . اذ يساعد الالتزام بالأدوار المهنية (وهو الالتزام الـــذى يتحقق من خلال ميكانيزم النقود) على اصدار القرارات الواقعية المتعلقة بالاستخدام الأمثل للموارد . وتعتبر القوة Power ميكانيزما اجتماعيا عاما آخــر ، يعمـــل على تأسيس مشروعيــة التوقعــات بدون الصياغة التفصيلية للحقوق والتزامات مقدما [٢] . وتساعد القوة فى عملية توافق المصالح المتصارعة داخل المجتمع : حيث ينبغى أن يهتم كل طرف ويقدر القوة التى فى متناول الطرف الآخر . ويعتبر الاتصال Communi Cation هــو الميكانيزم الرابع الــذى يتحكم فى انسياب الموارد الاجتماعيــة والاستفادة منها [٣] . ويتخــذ ذلك أشكالا عدة ــ الاعلام Information التفســير Interpretion ، والتقــويم eualuation . وتعمــل هــذه الميكانيزمات الاجتماعيــة الأربعة كمتحكمات معقــدة Complex govetners أو ضوابط سبرنطيقية Cybernetic Controls تحافظ على النسق الاجتماعى فى حالة من التوازن الدينامى . وعلى هذا النحو لا تتعلق ديناميكا الأنساق الاجتماعية ، وفقا لبارسونز ، الى حد كبير بقضية انتقال الطاقة بقــدر ما تتعلق بالاستفادة من الاعلام [٤] .

وتظهر مشكلة التغــير الاجتماعى حينما تهتز شروط التوازن التى يؤدى فى ظلها النسق وظيفته بصورة عادية [٥] وكما هو معروف عن علم الطبيعة ، يمكن أن يكون للتوازن ثلاثة نماذج : المستقر Stable ، الجزئى partial ، والمهتز Unstable . وحينما يهتز النسق فى التوازن المستقر

(1) Ibid., pp. 667.
(2) Ibid., pp. 67 - 8; Cf (1952), pp. 55 - 7, 332.
(3) Ibid., p. 68; Cf (1952), pp. 30, 75, 121, 174 - 6.
(4) Ibid., p. 70; Cf (1952), pp. 33 - 5.
(5) Parsons. T. (1952), Chapter II; (1961), pp. 70 - 9.

فانه يعود ثانية لحالته الأصلية • أما فى حالة التوازن الجزئى ، فان بعض الوحدات تتكيف بينما لا تتكيف وحدات أخرى • وفى التوازن المهتز فان النسق يمارس اعادة التكيف باستمرار ، حيث تحتل العناصر مراكز جديدة فى توازن متغير أبدا [١] • وفى حالة الاهتمام بالنسق الاجتماعى ، فانه ينبغى تعديل هذا الاطار بأساليب كثيرة • فليس هناك نسق اجتماعى ثابت أبدا ، ولا حتى حينما يهتز توازنه فانه يعود غير متغير الى حالته الأصلية • فما يسمى بالمجتمع الآسن Stagnant ليس الا نموذجا مثاليا Ideal Model يزيف شروط التوازن المستقر • اذ يوجد تبديل مستمر لكل شىء يحتاج اليه النسق من أجل الأداء الوظيفى السلس • حيث يقع استبدال وحدات بنفس معدل اختفاء الوحدات أو الموارد • وتبقى كل قوى الانتاج ، بما فيها قوة العمل ، على نفس المستوى • حيث لا يتحرك المجتمع الى الأمام أو الى الخلف • ويتضمن هذا النموذج اضطرابات مستمرة طالما أن هناك نواتج اجتماعية تختفى كعناصر • غير أنه يتضمن أيضا اعادة تأسيس دائمة للتوازن نظرا لأن النواتج الاجتماعية الجديدة تحتل مكانها المحدد سلفا فى النسق •

ويعتبر التوازن غير المستقر هو الحالة العادية ، حيث يعتبر النمو عن طريق التباين أو التضاعف عاملا له تأثيره الدائم فى اقلاق التوازن الاجتماعى • اذ يحتوى النمو Growth على تغيرات وتكيفات متبادلة بين العناصر التى يتركب منها النسق • اذ تتميز العلاقات بين المجتمع والأنساق الخارجية (الطبيعى ، الشخصية ، الثقافة) بأنها دينامية وليست ثابتة • فلكى يستمر النسق فى النمو فان عليه حتما أن يمر فى حالة من التوازن غير المستقر لها مؤشراتها الايجابية [٢] • ومن ناحية أخرى ، فقد يؤسس التوازن على حساب عناصر النسق ، كالتحام الأنساق ، واختفاء القواعد المحددة • بحيث قد يؤدى ذلك فى بعض الحالات الى تضاؤل الكفاءة : اذ يفشل النسق فى اشباع حاجات أعضائه • وفى مثل هذه الحالات نلاحظ

---

(1) Bukharin, N. I. (1925), Chapterc 4 - 7.

(2) Bukharin, N. I. (1925), Chapters 4 - 7.

أن النسق فى حالة انهيار ، حالة من التوازن غير المستقر لها مؤشراتها السلبية [1] .

ويعتبر التوازن والتغير عمليتين متكاملتين . فالتغير يظهر نفسه على حسب بارسونز فى شكل ظاهرة حتمية [2] . اذ يشار الى ظهوره عن طريق اختراق الحاجز المحيط . بحيث يستدعى هذا الاختراق فاعلية ميكانيزمات التكيف الكثيرة التى تؤدى فعلها فى أجزاء أخرى للنسق . فاذا اهتز التوازن فان عمليات الضبط تستدعى للعمل لكى تعود بالنسق ثانية الى حالة التكيف وعلى حسب هذا النموذج يمكن تحديد مصادر التغير بأنها اما أن تكون من الداخل (بمعنى أنها تؤثر على حدود النسق من الداخل) أو من الخارج (بمعنى أنها تبدأ من أحد الأنساق الخارجية بالنسبة للنسق الاجتماعى) [3] .

وفى الحقيقة ، يعمل كلا نوعى التغير مع بعضهما . اذ تؤدى التغيرات الخارجية بسرعة الى التغيرات الداخلية . وتعمل التغيرات الداخلية نحو الخارج لكى تغير الأنساق الخارجية . وذلك يتفق مع حقيقة أن المجتمع ، والشخصية والثقافة والكائن العضوى الفيزيقى عبارة عن أنساق مفتوحة فى حالة اتصال كل منها بالأخرى . حيث تعتبر التغيرات الداخلية فى أى من هذه الأنساق عوامل مخلفة للتغيرات الخارجية بالنسبة للأنساق . وتوجد أنواع كثيرة للتغيرات من الخارج التى تؤثر على النسق الاجتماعى — كالتغيرات التكوينية فى السكان مثلا ، أو التغيرات فى أساليب استقلال الطبيعة ، أو وطأة الأنساق الاجتماعية الأخرى ، كما هى الحال فى الحرب ، أو فى شكل المؤثرات الثقافية . وتعتبر هذه التغيرات خارجية بالنسبة للنسق الاجتماعى ، غير أن لها تأثيرا عليه . وتسبب التوترات داخل النسق ذاته التغيرات من الداخل . حيث تنتج هذه التوترات من عدم

---

(1) Ibid.

(2) Parsons, T. (1952) p. 482.

(3) Parsons, T. (1961), pp. 71 - 2.

التوازن بين المدخلات والمخرجات عبر الحدود بين الأنساق الفرعية . ويمكن أن تتخـذ اجراءات عدة فى مواجهة هـذه الضغوط أو التوترات : اذ يمكن تصريفها ، أو ايقافها ، أو عزلها ، أو معادلتها بتغيرات فى بناء النسـق [١] .

وفى العادة سـوف تصاحب التكيفات داخل النسـق اعـادة تنظيم للأدوار . ويمكن أن يتخذ ذلك أشكالا كثيرة ، بما فيها اختفاء أدوار أو خلق أدوار جديدة أو تعديلات أخرى . وتعتبر التغيرات من هذا النوع أكثر تعقيدا واستمرارا من التغيرات التى لم تتأثر أدوار النسق فى اطارها . ويسلم سملسر بسبعة نتائج متضاعفة تقع حيثما تؤدى اعـادة تنظيم الأدوار الى أنواع أخرى من التباينات البنائية داخـل النسـق [٢] . ولا يعنى ذلك أن تباين الدور هو سبب ، أو مصدر التغير الاجتماعى ، بمعنى أن اعادة تنظيم الأدوار له أهمية أولية على المصادر الأخـرى المحتملة للتغير . ويتضمن مفهوم النسـق على حسب بارسونز ، تساند العناصر أو المتغيرات . وهذا يعنى انتفاء وجود سلسلة سببية محددة سلفا ، بمعنى أن يعتبر عاملا واحدا مهنيا ومسئولا عن تأسيس التغير . وعلى هـذا النحو لا يعتبر بارسونز الثنائية الماركسية عن البناء الأساسى والفوقى مفيدة ، وهو لم يرفض أن يكون مصـدر التغير فى الاقتصاد . اذ ينبغى أن يحدد التحليل فى كل حالة ما هـو العامل المؤسس للتغـير ، وكيف تنشأ عملية التغير ، وكيف يمكن نقل التغير عبر أجـزاء النسـق الاجتماعى . ومن الممكن أن نسلم بتدرج الأهمية بين العوامل المشاركة فى عملية التغير الاجتماعى . غير أنه على حسب بارسونز ، يقع المحـور الرئيسى للتغير فى نسق القيم . وهـذا يبرهن على حقيقة أن التغيرات فى نسـق القيم ذات وطأة عالية على الأنساق الأخرى [٣] . بيد أنه فى

---

(1) Ibid., Cf. Parsons, T. (1952), pp. 36, 251, 482 - 3, 542 - 3.

(2) Parsons, T. and Smelser, N. (1957), especially pp. 252 - 61; Smelser, pp. 498 - 9.

(3) Parsons, T. (1961) pp. 72 - 4, 75 - 9, especially p. 78; Cf (1957), N. (1959).

أى من الأحوال قد تكون شروط التوازن هى نفسها العوامل ذات الأهمية المتدينة من حيث مسئوليتها عن تأسيس التغير • ويعتبر نسق القيم ذا مكانة محورية فقط لأنه لا يتأثر عادة بالتغيرات الطفيفة فى النسق • وفى الحقيقة ، يمكن فى بعض الأحيان ، أن تتأثر القيم بشكل ثانوى عن طريق التجديدات ذات المدى الواسع تماما • وفى ظروف أخرى ، مثلا ، فان التغير فى القيادة قد يؤدى الى تغيرات حاسمة ومباشرة فى توجيهات القيم : بحيث قد تفرض هذه التغيرات نتائج شاملة وهامة فى النسق الاجتماعى •

وعادة ما تكون للتغيرات الاجتماعية وطأتها [١] • وتعتمد طبيعة التأثير على عدد العوامل • فمثلا ، توجد علاقة متبادلة مباشرة بين التأثير ومدى التغير • فالتغيرات ذات التأثير المرتفع تتضمن عددا كبيرا من الوحدات داخل النسق • ويعتمد مدى التأثير الى حد كبير على الأهمية الاستراتيجية للوحدات التى تأثرت بالتغير • فمثلا ، تؤثر التغيرات البسيطة فعلا على الأدوار ، على حين أن من الصعب التأثير على القيم حتى بواسطة التغيرات الكبيرة • ولكى تصبح القيم متضمنة فى عملية التغير فانه ينبغى أن تكون التجديدات الاجتماعية شاملة وأيضا ذات تأثير عال • ويتضح ذلك من حقيقة أن التغيرات فى القيم تؤثر بسرعة على المعايير ثم ترتد بفاعليتها الى الأدوار من خلال الجماعات الفرعية • وأخيرا ، يعتمد التأثير أيضا على المقاومة التى تنتج عن التعقد البنائى للنسق • وتعتمد المقاومة التى يمكن أن يظهرها أى نسق على قدر التباين أو الانقسام بداخله • فسوف يكون النسق الذى هو أكثر تباينا أكثر قدرة على تشتيت تأثير التغير من النسق الذى يتكون من عدد صغير من الأقسام •

ومع ذلك فنحن حتى الآن نتناول نموذجا سوسيولوجيا مجردا • وذلك يعنى أن نطرح جانبا أى اهتمام بالبشر المشاركين فى الفعل

---

(1) Parsons, T. (1961), pp. 72 - 4.

الاجتمـــاعى • وبالطبع فان البشر الـــذين يقومون بالأدوار هم فقط الذين باستطاعتهم أن يتصرفوا ، وهم الذين يتشبثون بأنساق القيم ، وهم الذين يستخدمون الموارد ، ويصلون المجتمع بالبيئة الفيزيقية • ثم أنهم هم الذين يوزعون ويستفيدون من الموارد ويستهلكونها • أما بالنظر لمـــا يمكن اعتباره الحاجة الموضوعية للتغير ، فانه يظل صحيحا أن يقال ، أنه بالاضافة الى المقاومات الأخرى للتغير ، فان الحالة الراهنة تصبح متضمنة فى الشرائح غير العقلانية لبناء شخصيتها • اذ ينبغى أن تنهار الولاءات القديمـــة قبل أن يقع التغير •

ويعتبر الانفصال عن الخط السابق ضرورة أولية للتغير • وبعبارة أخرى ، يصبح قدرا محددا من الحرمان النسبى مرتبطا باتباع الطريقة القديمة • ويكون تأثير الحرمان على الفرد وعلى الجماعة القرابيـــة • وقد يتخـــذ التأثير impingement أشكالا كالاضرار بشروط الســـوق المتفق عليها سابقا • أو تيسر فرص جديدة لا يمكن الاستفادة منها داخل الاطار البنائى القديم • وقد يؤدى هذا الحرمان النسبى الحاد أو الممتد حتمـــا الى ظهور مؤشرات الاضطراب [1] •

وتعتبر مؤشرات الاضطراب ذات مـــدى أكبر أو أقل على حسب نوع التأييد أو الاباحة التى يوفرها البناء الجديد الناشىء • وتؤدى الضغوط الهائلة للغاية ، والصادرة عن النسق الاجتماعى المتغير علـــى الأفراد والجماعات ، والتى تصل الى المـــدى الذى يجبرهم على التخلى الكلى والسريع عن الأساليب القديمة ، الى ظهور مؤشرات الاضطراب السيكولوجى الملحوظ • وقد يصبح الأفراد وبالمثل الجماعات مثبتين على نماذج قهرية للسلوك السلبى • وقد أوضح سملسر فى دراسته عن الثورة الصناعية أن الاضطرابات تظهر نفسها فى شكل القلق والعدوانية ، وفى خيالات اليوتوبيا والنعيم ، والتمرد ، والانسحاب والانجاز الطقوسى أو القهرى للأدوار • وتصاحب هذه المؤشرات تغيرات فى أدوار الأسرة

---

(1) Parsons, T. et altra (1961), p. 76.

فى مجالات الغزل والنسيج • ويعتبر الاغتراب القهرى والتوافق القهرى علامات على الاضطراب الذى قد يظهر حينما تكون التغيرات كبيرة بالدرجة التى يتم تمثلها بسرعة فى النســق الاجتماعى [١] •

وترتبط التغيرات الاجتماعية التى هى أكثر شمولا ، بالتغيرات فى النسق الفرعى المتعلق بالتكامل أو تتميز به • وقد تؤدى العوامل الخارجية الى هذه التغيرات • فمثلا قد تستعار المعتقدات الدينيــة عن جماعــة أخرى ، كاستعارة المثل التقشفية للرهبانية Monasticism ، من خــلال عملية العلمنة Secularization ، حيث أدت الى ظهــور الأخلاق التطهرية Puitan ethic وبالمثل ينتشر السلوك غــير المتوافق والمعتقدات والمثل ، على مدى فترة من الزمن ، من خلال عدد من الأنساق الاجتماعية •

وهناك طريقة أخرى يمكن أن تتغير بها القيم ، أعنى من الداخل • اذ توجــد داخل النسق مقاومة كبيرة لتغيير القيم • وتعتبر القيم والمعايير والقواعد الأكثر عمومية هى تلك المرتبطة بالمعتقدات الدينية • فتدفــع التغير أو حتى التهديد به فى مجــال الممارسات أو القيم أو الارتباطات الدينية ســوف يقاوم عادة بدرجة متطرفة • وربما كان التجديد الكارزمى هو الأسلوب الوحيد المتاح أمام المجتمع لكى يغير من الداخل معتقداته الشاملة (فيبر Weber) [٢] • ذلك يعنى أن قائدا جــديدا ، بمذهب جديد ، ومزود بقوى ذات فعالية مدهشة ، أو قد يؤدى ظهور ذلك على الأقل الى نشأة الطلب على صــدق جديد • وتصبح القيم الجديدة مصوغة نظاميا بدرجة أكثر أو أقل فى كنيسة جديدة تنفصل ان عاجلا أو آجلا عن الكنيسة القديمة • وببساطة ، يعتبر هذا الطلب على الجديد ليس كافيا • اذ ينبغى أن يتجنب حاملى bearer الحقائق الكارزمية بكل وسيلة ممكنة

---

(1) Smelser, N. (1959) especially Chapters 7 - 11.
(2) Parsons, T. (1961), pp. 74 - 5 Following Max Weber.

أن يعاد ـ استيعابهم فى نسق القيم القائم (*) اذا أرادوا أن يحافظوا على وجهة نظرهم • ويجب عليهم من ناحية • أخرى أن يدمروا الذمر الدينى القديم عن طريق التسرب من الداخـل • وعند هـذا المستوى يمكن أن تغير الثورة أنساق القيم من الداخل أيضا • غير أن هذه العملية أكثر تصعوبة لأنها تتضمن أيضا استخـدام القـوة وليست القيـادة الكارزمية فقط •

وعلى هذا النحو ، تكمن أهمية النزعـة التطهرية بالنسبة للثـورة الصناعية فى حقيقة أنها انتشرت بالتحديد فى المناطق أو الجماعات المعينة التى أصبحت فيما بعد متضمنة فى التصنيع ، وكما أشار فيبر ، لم تشرع الأخلاق التطهرية تحقيق الربح فقط ، ولكنها شرعت أيضا الاستخـدام الأدائى للبشر • وقد أطيح بنسق قيم المجتمع القديم قبل اكتمال الثورات الاجتماعية والسياسية والتكنولوجية والاقتصادية المرتبطة بنسق المصنع • وعلى حسب هذا الرأى اعتبر التوقع التاريخى للتغير الاجتماعى بواسطة التغير الدينى متطلبا أساسيا للتقدم السهل نسبيا للثورة الصناعيـة فى انجلترا [1] •

ويسلم سملسر فى دراسته ، المفصلة لهذا التطور بسبعة مراحـل فى عملية التجديد الاجتماعى • هذه المراحل هى :

١ ـ عدم الرضا بانجاز الدور أو بالاستفادة من الموارد •

٢ ـ الاضطراب الذى يعلن عن نفسـه فى أشكال القلق • والعدوان والـوهم •

(*) يمكن مراجعة تحليل رائع وعميق للبحث تستوعب قيم النسـق القديم كارزميه الثوار الذين ثاروا عليه ، وهو ما يعنى اغتيال النسق الاجتماعى للثورة . وذلك فى معالجة تالكوت بارسونز للتغير الثورى الكارزمى فى مؤلفه The Sucial Sytem . ص ٤٨١ وما بعدها (المترجم) .

(1) Weber, M : The Protestanet Sthic and the Spirit of Capitalism. Trams. T. Parsons.

٣ ـ معالجة عدم الرضا بميكانيزمات الضبط الاجتماعى ؛ على سبيل المثال : البوليس ، والقادة الدينيين .

٤ ـ ظهور المرحلة التى تشجع فيها الأفكار الجديدة بدون أن تقع المسئولية على المجددين الذين يتولون تحقيقها .

٥ ـ تحديد مسارات الفعل مع تأكيد الالتزام بمسار محدد للفعل .

٦ ـ محاولة انجاز هذه الخطوات على التوالى حتى يتحقق النجاح .

٧ ـ الصياغة الروتينية للعملية أو الأفكار أو القيم الجديدة [١] .

---

(1) Smelser, N., op. cit., 1959.

الفصل الخامس

نظريات التغير الاجتماعى

تحليل مقارن

تبرز نظريات التغير الاجتماعى الأربعة تماثلات عدة هامة وبالمثل اختلافات واضحة تماما • وبمجرد استيعاب هذه النظريات على الأقل الى المدى الذى نتمكن فيه من تبين ملامحها الرئيسية • فان على القارىء نفسه أن يواجه مهمة تحليل قيمتها كتفسيرات للتغيرات الاجتماعية الواقعية • اذ لا يعتبر المؤلف أن مهمته صنع عقل القارىء له • ولكن أن يوضح له ، أو يساعده على استخدام بعض الوسائل الادراكية التى يحتاج اليها لمهمة اصدار حكم يستند الى المعرفة • ولتحقيق ذلك ، فانه من الأساسى أولا ، أن نقارن ونواجه النظريات ببعضها البعض بطرق كثيرة • فاذا اتجهنا أولا الى التماثلات الأساسية بين النظريات • فاننا قد نهتم بما يلى :

(أ) الأصول والأهداف :

من المهم أن نلاحظ أصول النظريات الأربعة ، وبخاصة بالنظر الى مستوياتها المتنوعة من حيث العمومية •

اذ ترتبط النظرية الماركسية عن التغير العرضى بنوع من التكامل مع نظرية الثورة الاجتماعية • فليس ملائما فى الحقيقة أن نقول أن هدفها الأساسى أن تقدم أساسا منطقيا للثوريين • وقد استخرج ماركس نظرية المادية الجدلية لوعيه التام بالحاجة الى أساس منطقى ، وعلمى وشامل لرفض نوع محدد للمجتمع ، هو المجتمع الصناعى •

وبمجرد فراغه من تأسيس النظرية كنسق متماسك منطقيا نجده قد حاول البحث عن الاثبات الامبيريقى فى اطار العمليات الاقتصادية للمجتمع الرأسمـــالى • وبالطبع لم يفتقد توسيعه Enlargissment المبدئى لآراء المفكرين الأول أى أساس امبيريقى • فقد كان الســـند الباقى Resuoluary Legatee لمعالجتهم التحليلية المتعلقة بخبرتهم عن الحياة الاجتماعية • بالاضافة الى ذلك ، فقد كانت له خبرته وقدراته التحليلية التى تقوده • غير أنه كما لاحظنا سابقا ، أدى ارتباطه الوثيق بآخر ـ ذاته ، انجلز ، الى أن المـــادية التاريخية لم تتجسد فى مثال واحد للتغير التاريخى •

ومن ناحية أخرى أسس مالينوفسكى الاتجاه الوظيفى كنتاج نهائى نظرى لدراســـة مستفيضة عن المجتمع الميـــلايزى Melanesian Society بالاضافـــة الى رحلة قصـــيرة الى مستعمرة أفريقيا كمصـــدر للمـــادة الاضافية • وبرغم أن الاتجاه الوظيفى له أسلافه العقليون الا أنه يحمل كثيرا من خصائص التعميم الاستقرائى ـ ربمـــا أكثر كثيرا من الماركسية • وربما كان نقصا فى المنهج الوظيفى أن المعطيات الرئيسية التى يصمم على تفسيرها هى مادة المجتمعات البدائية • أعنى ، تنظيمات اجتماعية ليست لديها أقســـام طبقية وان كانت لديها أنساق المكانة • وفى مواجهة ذلك ، فقد يبدو من غير المحتمل أن يكون الاتجـــاه الوظيفى ملائما كتفســـير للمجتمعات الصناعية المعقدة • غير أنه ليس من الضرورى أن يكون الأمر على هذا النحو • اذ يتوفر للنظرية العامـــة عمومية وتجريدا كافيا لكى تصبح ملائمة لأى مجتمع بشرى محلى • فالاتجاه الوظيفى فى الحقيقة محاولة لتحديد الضرورات المشتركة التى تظهر نتيجة لترابط البشر مـــع بعضهم بعضا • وينبغى الحـــكم عليه استنادا لهذا الأساس •

ونجـــد لوجهة نظر بارسونز أساسها فى كل تطور الفكر الاجتماعى من مكيافيللى Machiavella وحتى يومنا الحاضر • ومن ثم فله امتياز على ماركس ولكن ليس على مالينوفسكى • حيث هو الذى أسس الدراســـة الامبيريقية للأصـــول والعمليات الاجتماعية فى العقود القليلة الأخيرة من

الجزء الأخير لهـــذه الفترة • ومـــن ثم توفرت المعطيات ليس فقط عن المجتمعات الحديثة المتطورة ولكن أيضا من خلال الدراسة الميدانية العميقة للجماعات البدائية والأنواع الأخرى من الجماعات البشرية والحيوانية • ولم تعالج هذه الموضوعات بمنهج التجريد التحليلى (وهو المنهج الذى استخدمه ماركس أيضا) الذى يحتوى بداخله على الملاحظات والتجارب التى يجريها علماء النفس والأنثروبولوجيا ، والاجتمـــاع عن الأسرة وجماعات العمل والعصابات ، وبالمثل على المجتمعات المحلية بكاملها • ولقد بذلت محاولة لتقويم نظرية بارسونز عن طريق محاولة نسبتها الى التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المصاحبة للثورة الصناعية فى انجلترا بالاضافة الى محاولات أخرى •

وتعتبر نظرية تيلور Taylor مشتقـــة أساسا عن البحث العميق للمرض العقلى باستخـــدام (طريقة التداعى الحـــر Free ossociation للتحليل النفسى • وقد تمت صياغة افتراضات عـــدة عن افتقاد أى خط للفصـــل بين الســـلوك والعمليات النفسية للعصابيين Neurotics والبشر الأسوياء • وقد استخدمت فروض خاصة ، تتعلق بأسلوب تمثل تجربة الطفولة Infantile وكيف تؤثر على بناءات الشخصية للبالغين ، كأساس للتعميمات الشاملة • ويعتبر التكتيك المنهجى المستخدم فى دراسة التاريخ والمجتمع ، والذى يفترض رابطة سببية بين العمليات والذوات الخاصة تكنيكا طبيا أساسا (الحدس الاكلينيكى Clinical Intuition) ويتضمن هذا التكنيك اقتناعا بعدم أهمية كل العمليات والترابطات الأخرى • حيث انتقلت فكرة امكانية أن نشكل الحالـــة المتطرفة أو المختلة (المريضـــة Diseased) نقطة البداية التى يكمن أن نبدأ منها لفهم الأداء الوظيفى ، أى من التشخيص المرضى الى التشخيص الاجتمـــاعى • ويعتبر اختبار الدلالة الموضوعية ، بمعنى ، أننا نتحدث عن ارتباطات حقيقية وليســـت وهمية ، ملائما بالتأكيد بقدر ما يكون التقرير التاريخى مدققا فى البحث عن المعطيات الامبيريقية لدعم الفروض عن ظروف الطفولة ، أو عن نماذج محددة للسلوك والشخصية • غير أن النظرية ، كما هى الحال بالنســـبة

لمـــاركس ، قد تأسس من خارج نطاق الدراســـة النظرية للأداء الوظيفى الاجتماعى قبل أن تتم أى دراســـة متخصصة عن العملية الاجتماعية • فى الحالة الأولى ، كان الناتج فلسفة هيجل ، بينما كان فى الأخيرة العـــلاج النفسى الفرويدى Freud - ianpsychiatry •

(ب) المكانة العلمية Scientific Status :

من الواضح أن النظريات الأربعة أكثر ملاءمـــة لدراســـة الاتجاهات العامة ، بسبب مستوى التعميم العالى لديها • وعلى النقيض ، لا تبدو كافية تماما كتفسير للتفاصيل الخاصة بالأحداث الاجتماعية والتاريخية • ولكل منها وسائلها الأساسية الخاصـــة التى تيسر تقـــديم تفسيرات محددة تتعلق بسبب عدم وقوع تجديدات اجتماعية بعينها وفقا للنموذج العا General Model •

ويبدو أن الماركسية بصفة خاصـــة معرضة لهذا النقد طالما أنهـــا تعلق أن الأساس الاقتصـــادى ســـوف يؤكد على المدى الطويل تأثيره كمحرك رئيسى • وحينما ترتبط هذه الصياغة غير المحددة الى حـــدما بقضايا أخرى ، كانها تفترض أن كل شىء فى الواقع مسئول عن أى شىء آخر ، فاذا عكسناها فانها ســـوف تعنى ألا شىء مسئول عن أى شىء • ويؤسس مالينوفسكى نفس الافتراض ، حينما يذهب الى أن كل شىء يحـــدث لأنه ضرورى ، فاذا لم يقع فان ذلك يكون دليلا على أنه غـــير ضرورى فى الحقيقة ، وتذكرنا هذه البرهنة الدائرية بامتداح جالين Galen لصلصال الساموا Samian Clay كترياق طبى Medical Panacea •

(اذ يشفى كل الذين يشربون هـــذا العلاج فى فترة قصيرة ما عدا هؤلاء الذين لم يساعدهم على الشفاء : حيث يموت كل هؤلاء ، ولا علاج لهم من أى دواء آخر • ومن الواضح حينئذ أن هـــذا الدواء يفشـــل فقط فى الحالات المستعصية) •

وتتعلق المسألة بما اذا كانت المواصفات الكثيرة التى تعتبر جزءا من الصــور التى هى أكثر احكاما لنظريات التغير الاجتماعية هذه ، ليست من ذات الطبيعة ، حتى انها تدفع بفاعلية التفسيرات من مجال العــلم كلية الى مجالات الميثولوجيا الاجتماعية • وتكمن الخاصية المميزة للنظرية الاجتماعية فى قدرتها على اثبات زيفها امبيريقيا Empirical Falsification اذ ينبغى ألا تكــون النظريـــة مرنــة بالدرجــة التى يصبـــح مـــن المستحيل توضيح خطئها • وبرغم حقيقة أنـــه يمكن استخـــدام كـــل النظريات الأربعة كاطار يدعم تصور الحالات محددة للتغير الاجتماعى • فان ذلك ليس كافيا • فالنظرية السوسيولوجية أكثر من وصف عام مجرد للارتباطات الممكنة بين المتغيرات • وتعتبر القابلية للزيف خاصية أساسية أيضـــا ، والا فنحن نتحـــدث عن شىء آخر غير النظرية العلمية •

ويوضح تصــــور سملسر Smelser عن التغير الاجتماعى (الذى يستند فيه على نظرية بارسونز) الذى يتحقق عبر سبعة مراحل هـــذه القضية • وحسبما يذهب سملسر لا تحتاج المراحل السبعة أن تتبع كل الأخرى فى تسلسل منظم • حيث يصبح التراجع ممكنا دائمـــا أو هو فى الحقيقة محتملا • وقد يختصر هذا التتابع عن طريق الغاء مراحل معينة • وقد تحدث مراحل عدة مع بعضها ، أو تتكون مرحلة واحدة من عديد من المراحل • وليس كل المراحل كاملة ، ولا هى تسلم جميعها الى التغـــير الاجتماعى • وحينما تطرح كل هذه التعديلات الكثيرة ، فهل يبقى شىء بعد ذلك من التفسير الأصلى ؟ وبالمثل ، يؤكد ماركس وانجلز أن الثورات تقع بفعل التناقضات الكامنة فى الأساس الاقتصادى الذى يؤثر بدوره على البناء الفوقى للأيديولوجيا • ثم تضاف التعديلات التالية : قد يلعب البناء الفوقى أحيانا الدور القيادى ، ومن ثم يؤثر بفاعلية على البنـــاء الأساسى • وأن التناقضات داخل البناء الفوقى قادرة أيضـــا على تأسيس تجديدات رئيسية • فماذا بقى اذن من المادية التاريخية بعد كل هـــذه التعديلات • ومرة ثانية يخبرنا تيلور أن الأبويين الاستين المقيدين بشدة قد يتحولون الى أمويين فميين غير مقديين • غير أنه لم يحاول أن يحدد

الظروف التى أسست هذه التغيرات • ألم نعط بذلك سوى مجرد وصف للتغيرات الاجتماعية باصطلاحية شاذة الى حد كبير ؟ وهل لم تقدم النظريات الاجتماعية هذا التفسير العام بالنظر الى السببية العلمية المتضمنة فى حقيقة أنها موجودة أساسا ؟ • ولا تستثنى الوظيفية من هذا النقد • والسؤال هو : هل لا يصور العدد الهائل من اللزوميات Imperatues فى اطار مالينوفسكى ، بكفاءة ، ولو بطبيعة وصفية أساسا ، كل النماذج المحتملة للسلوك الاجتماعى ؟ وهل الاتجاه الوظيفى ليس أكثر من التفسير الدائرى القديم والزائف للسلوك الاجتماعى بالنظر الى الغريزة ، مع اغفال كلمة غريزة فقط ؟

(جـ) الحتمية ومكانة الفرد :

توافق كل النظريات الأربعة على مبدأ الحتمية طالما أن الاهتمام ينصب على العمليات الاجتماعية والاستجابات الفردية •

وتترك الماركسية مكانا للمحارب الطبقى ، العاطفى والمشايع • فاذا لم يمتلك رؤية الله ، أو ماركس نفسه ، واذا لم يفهم حركة التاريخ ، والتحالفات المتغيرة ، واتجاهات القوى الطبقية ، واذا هو لم يقدر التناقضات فى قوى الانتاج ونموها الواقعى • فان جهوده لتغيير المجتمع سوف تذهب هباء • وفى أى حالة ، تضيع نتائج فعله الفردى فى اطار هذا التحلل الشامل للقوى والمقاصد التى تشكل العملية الاجتماعية •

وتمتلك حاجات الجماعة فى اطار مالينوفسكى نفس الطبيعة الطاغية • اذ عادة ما يكون اسهام الفرد داخل الاطار النظامى الذى يفرض أولوية على التكيف • وقد يصبح التجديد الاجتماعى نتيجة للتطور الداخلى التلقائى : ومع ذلك ، وبعمومية أكثر ، فانه عادة ما يكون نتيجة للمواجهة بين الثقافات الأصلية والوافدة • وكما رأينا سابقا على حسب التفسير الوظيفى للتغير ، هناك من تفاعل بين أنماط الثقافة الخارجية ، أعنى للوافدة ، وأنماط الثقافة الداخلية ، أعنى الأصلية • وقد ينتج الصراع ،

أو التعاون أو التسوية بين الثقافتين ، وأيا كانت طبيعة ما يحدث فهو نتيجة لقرار اجتماعى تحتمه قوى محددة وتعارضه أخرى ، فالثقافة ليست كومة من الفرص يستطيع المجدد أن ينتقى بحرية ما يفضله من بينها • اذ توجد حتمية داخلية تفرضها شروط توازن النسق الاجتماعى ، وبالمثل ، حينما تتفاعل الثقافات فان طبيعة الاستعارات لا تتحدد تعسفيا • اذ توجد عملية تغير لها قانونها الخاص ويشارك فيها البشر سلبيا أكثر منه ايجابيا •

وحتى فى الاطار التفسيرى لبارسونز لا يعتبر الفرد وحدة فى النسق الفريد فى اتساعه ، كما هو بالنسبة لمالينوفسكى • فالفرد من وجهة نظر التحليل السوسيولوجى ليس له فى الحقيقة وجود واقعى : اذ لا يتكون النسق الاجتماعى من الأفراد على الاطلاق •وانما يتكون من الأدوار والأفعال • هذه الأدوار أو الأفعال تجهز أو تنجز بواسطة الأفراد • وبلاشك هناك فى العادة نطاق لأداء دور محدد • ولا يمكن تحديد الأفعال الاجتماعية بشكل مطلق تماما • غير أن الطبيعة الفردية التى تعبر عن نفسها فى أسلوب أداء الدور أو تنفيذ الفعل تعبر عن ذاتها ، نتيجة لأنواع أخرى من المجتمعات • وتنتج تجديدات النسق عند بارسونز من انتهاكات حواجز الحدود بين الأنساق أو الأنساق الفرعية • حيث تستدعى هذه الانتهاكات محاولات استعادة التوازن • فالأفراد هم الذين يظهرون بلاشك العلامات الكثيرة للاضطراب (العدوان agression والقلق anxiety ، والوهم Fantasy) والبشر هم الذين يجربون الأفكار وينتجونها : وعادة ما يعبر عن المشاعر فى السلوك الفردى • غير أن النسق هو الحاسم • وتكمن المبادأة فى العمليات الحتمية التى تستعيد التوازن •

وتعتبر الصور الأبوية Paternal inages هى المحركات الأساسية للفعل الاجتماعى فى نظرية تيلور عن التغير • حيث تبدأ الصورة فى التشكل خلال سنوات الطفولة الحساسة بعيدا عن الوعى والادراك • اذ يمكن

الأبـوى الاستى anal patrist أن يجـد تفسـيرات مقنعـة لسلوكـه ومعتقداته ، ويستطيع ذلك أيضا الأموى الفمى Oral matrist • وتعتبر هذه التفسيرات مجرد نتيجة لتفاعلات بين القدرة العامة على التجريد التى يمتلكها البشر ، وحاجات الأنا ، والدوافـع الحيوانية • وبعبـارة أخرى ، فهى عبارة عن تبريرات رشيدة • ويعتبر السلوك الاجتماعى فى ذاته غير رشيد أساسا : اذ يمتلك السلوك الاجتماعى والفردى رابطـة حقيقية واهية تربطه بالقصـد الصريح أو أى عملية رشيدة لاتخـاذ قرار • وبغض النظر عن طبيعة الأسباب المقنعة أو الرشيدة التى يمكن الكشف عنها بالنسبة للتغير الاجتماعى • فان المشاركين فيه يكونون تحت رحمة القوى المجهولة بالنسبة لهم والتى لا يمكن التحكم فيها •

وحينئذ تقلل النظريات الأربعة من مكانة المجدد أو العامل الاجتماعى حيث يفعل كل منها ذلك باسلوب متميز اذ لا يتيح أى منها للمجـدد امكانيات تحقيق مقاصده كما يرغبها بالضبط • فهو لايكون على وعى كامل فى أى حالة بطبيعة العملية التى يكون متضمنا فيها • وعلى حسب النظرية الماركسية يعمـل الفاعل طيلة الوقت فى ظل أوهام معينة ذات طبيعة منظمة • وتصبح لأفكاره علاقة معكوسة Topsy-Turvy بالعمليات الدياليكتيكية التى يجـد فيها نفسه ، أراد أو لم يرد • فلديه وعى بعكس الحقيقة عكسا زائفا : فهو يظل بالضرورة غـير واع بالمصدر الحقيقى لأفعاله ونتائجها • ولا يعتبر (الفاعل) البروليتارى أقل من أى زعامة أخرى من حيث تضمنه فى نضال كاذب Sham مع مناوئين من النادر أن يتوحد معهم • غير أنه من خلال هـذه الملاكمة الوهمية تتضح بعض العلاقات الجوهرية : حيث قـد يصبح فى نهاية الأمر واعيا بمصالحـه الحقيقية • وفضلا عن ذلك فهو يظل معتمدا على شخص آخر (مثقف الطبقة الوسطى الذى لايكون متضمنا بايجابية فى النضال) لكى يصوغ له أفكاره بوضوح ولكى يطور سياسة متسقة لطبقته الاجتماعية بكاملها • وفى نظرية مالينوفسكى نجـد أن الحاجات الأساسية للانسان هى التى لها الأولوية المؤكدة • غير أنها تعبر عن نفسها فى شكل اجتماعى ، ويمكن

اشباعها داخل نفس السياق فقط • اذ تتجاوز الوظيفة فى الحقيقة كل شىء : حيث ينبغى أن يفسح الفرد المجال للضرورات الاجتماعية : أما فى نظرية بارسونز ، يعيش الانسان المرحلة كمجرد فاعل يلعب دورا يتوافق على حسب توقعات الآخرين • وتتحدد أفعاله ودوره ، ونسقه القيمى ، وقواعد الحياة التى تحيطه حسب مكانه فى النسق الاجتماعى • وللأنساق الخارجية ، كنسق الطبيعة والثقافة والمجتمع وطأة عليه • وعليه أن يوازن فعله بالنسبة لهذه الأنساق • وهو لا يستطيع أن يختار بحرية موقفه أو موضع الضغط عليه ، ولكن عليه أن يوافق على الدور والمكان المعد له سلفا ، حيث يتصرف الفرد كعنصر فى نسق شامل : وهو كالنسق محكوم بقوى يظل بالضرورة على عدم وعى بها • ويعتبر الانسان فى نظرية تيلور اطارا لطاقة الليبيدو ، مجرد منفذ لنزوات اللاوعى العمياء التى تمسك به • فهو أساسا ضحية • فمن خلال تنشئته يصنعه أبواه على ما هو عليه ، مخلوق للعادة وعقد اللا وعى ، لديه قدر من التلقائية التى تحددها قوى لا شخصية عمياء ، والقوى المضادة للبيئة والليبيدو •

(د) مستويات التعميم :

ويتمثل الاعتبار الذى تتفق فى اطاره النظريات فى كمون كل منها يعتبر جزءا من نظرية عامة متكاملة • ففى مناقشة البيئة الاجتماعية ، تسير الماركسية من أعلى المستويات تجريدا ، وهو الخاص بالعملية الكونية • اذ يعتبر السلوك الاجتماعى أحد جوانب المادة فى حالة الحركة • وهو يتكيف مع القوانين العامة للجدل التى تنطبق على الأنساق فى كل مكان •وبرغم أننا ينبغى أن نبحث عن الحالات الفردية لكى نكتشف الخصائص المحددة للظواهر ، فان الاطار العام للمنهج وحتى طبيعة النتائج عادة ماتتحدد فى خطوطها العريضة ، أما فيما يتعلق بنظرية مالينوفسكى ، نجد أن للتغير الاجتماعى موضعا ممهدا له فعلا فى اطار النظرية العامة للاتجاه الوظيفى • اذ ينبغى الاقتراب من موقف الاتصال الذى يتأسس فى اطاره التغير الثقافى باعتباره كلا متكاملا • ويظل الموقف هو وحدة

التحليل • ويصبح الباحث مهتما بتتبع أسلوب تغير بعض النظم ، وأسلوب مقاومة البعض الآخر ، وماذا يمكن أن تكون طبيعة النظم الجديدة ، وماهى وظائف النظام الجديد للواقع • وفى نظرية بارسونز نجد الاجابة على قضية التغير الاجتماعى فى تطبيق النظرية العامة لأنساق الفعل • اذ أنه بالنظر الى مبادىء تحليل الأنساق أننا نعرف الكثير حتى قبل أن نبحث المشكلة • اذ نقدم فعلا المفاهيم والمسلمات الضرورية التى يمكن من خلالها استيعاب التغير فى النظرية العامة • أما فى حالة تيلور Taylor نجد أنه يوجد كبيان من المعرفة المفصلة كامن وراء نظرياته الخاصة ، هذا القدر من المعرفة يستند على استخدام المنهج الخاص • وتقدم هذه المعرفة اطارا عاما يدعم التفسيرات المحددة ، مصاغا بطريقة غير كاملة حتى قبل مسح مجال الدراسة باتصال مبدئى ، ولا تحتاج نظريات فرويد عن الدافعية اللاواعية الى تطوير محدد لكى تلائم الفعل الاجتماعى حسبما ترى النظرية • وفى الحقيقة لا يمكن تأسيس تمييز رئيسى بين السلوك والفعل الاجتماعى • فليس هناك انسان وحيد بدرجة كاملة ؟ اذ يوجد دائما على الأقل آخر له حضور ذاتى ، كنموذج model أو منافس rival أو كموضوع مثير للشهوة erotic object • وقد أعلن فرويد نفسه أن الفصل بين علم النفس الفردى وعلم النفس الاجتماعى فصل زائف : فكل علم النفس هو علم نفس اجتماعى •

(هـ) مصادر مقاومة التغير الاجتماعى :

فى أثناء تسجيل الخصائص المحددة للنظريات ، نجد كل نظرية تحدد مصدر التغير فى جزء خاص لكل نسق • هذا النسق الفرعى أيا كانت طبيعته ، يعزى اليه دور خاص لتأسيس التغير وقيادته • وبمعنى ما أو آخر فانه يؤدى فاعليته بالطريقة التى تؤكد صدق التغيرات التى وقعت • وفى الماركسية ، يؤدى الاقتصاد هذا الدور القيادى • اذ يتولد التغير عن التناقضات ـــ بين قوى الانتاج ، وعلاقات الانتاج ، أو التناقضات فى عملية الانتاج ذاتها • ويتكيف النسق بكامله ، البناء الفوقى والتحتى فى

اتجاه تحتمه العلاقات بين العناصر الحيوية للأساس الاقتصادى • وفى نظرية مالينوفسكى تعتبر الحاجات البشرية واشباعها هى المحور الرئيسى — ويتكيف النسق الثقافى مع الحاجات الحيوية عن طريق عملية تشبه عملية الانتخاب الطبيعى • ويتمثل القانون الأساسى فى أنه على النسق الاجتماعى أن يوفر الاشباع الأمثل للضرورات الأساسية • وهناك بالطبع تدرج حتى بالنظر الى الحاجات (فالانسان لا يعيش بالخبز وحده ، وان كان يعيش أساسا بالخبز • ويعتبر تباين الدور فى نسق بارسونز المؤثر أو الاظهار الرئيسى للتغير • حيث تتضمن العملية التى تقع فى هذا الاطار الأداء الوظيفى للنسق بكامله • وعلى حسب تيلور تؤدى ممارسات التنشئة فى الطفولة الدور الرئيسى • فالشخصية البشرية هى التى تصنع التاريخ وان كانت الشخصية ذاتها تعتبر نتاجا لنظم التربية المقيدة أو التى تتسم بالاباحـــة •

وتسلم النظريات الأربعة بالمقاومات من الداخل للتغير • وتدرك الماركسية ذلك باعتباره يستند الى الحاجة للدفاع عن مصـــالح الطبقة وفوائد الطبقة • غير أنه ينبغى المقاومة على مستوى أعمق أيضـــا • ويشير ماركس الى عملية عامة تتعلق بالانهيار والانبعاث من جديد • ويعنى ذلك ، أنه فى كل لحظة تظهر قوى معينة على حين تختفى أخرى • وتستند عملية التناقض الجدلى بين تلك القوى التى تمثل الجديد وتلك القوى التى تمثل القديم • ويعتبر المجدد الناهج هو ذلك الذى يكـــون قادرا على ادراك القوى التى تعمل فى صالح التقـــدم وتلك التى مآلها حتما الى الفناء • وينبغى أن يتخذ الموقف الذى يستطيع من خلالـــه تقديم الدعم الفعال للقوى الأولى فى حين عليه أن يناقض الثانية •

ولم يكن مالينوفسكى يميل مثل ماركس للتسليم بالتغير أو على الأقل وصف المقاومة له • اذ يكمن المصـــدر المعتاد للتجديد بالنســـبة للاتجاه الوظيفى فى تأثير ثقافة على ثقافة أخـــرى • وتعتبر الظـــواهر النمطية المرتبطة بصدام الثقافـــة هى التبنى adoption، الرفض rejection

أو تحول بعض النظم ، الى جانب نشأة نظم جديدة • ويؤدى الاتصال بين ثقافتين الى التعاون والصراع أو التوافق • وقد يفترض أنه فى الحالة العادية ، يوجد خليط من كل الاستجابات الثلاثة ، مع سيطرة أى منها فى مختلف المراحل • ويبدو أن مالينوفسكى يوافق على نموذج التوافق والتوازن كمماثل للنسق الثقافى • ونجد أن هذا النموذج ، أكثر اكتمالا عند بارسونز أيضا • حيث يشير التغير ، على حسب نظرية الفعل ، الى الانحراف عن حالة محددة للظروف الأستاسية • ومع اضطراب ظروف التوازن هذه ، تبدأ فترة من عدم التكيف ، والانهيار ، والتوتر الاجتماعى والفوضى • وتعتبر ظواهر الصراع هذه مؤشرا على بدء التغير وردود فعل هذه القوى المقاومة له • وفى الحقيقة يقدم بارسونز تصورا يتماثل أساسا مع تصور مالينوفسكى ، فيما يتعلق باهتزاز ظروف التوازن ، والعدوانية الناتجة عن ذلك ، والقلق والوهم • وبالاضافة الى ردود الفعل المحددة هذه يسلم بارسونز ببعض العمليات الشاملة التى تعبأ أصلا لمنع أى اهتزاز أو اعادة شروط التوازن الأولى الى وصفها السابق •

وتتركز مقاومة التغير فى نظرية تيلور فى أنواع معينة لبناء الشخصية • اذ يرى تيلور الصراع بين الأشخاص فقط بدلا من التصادم بين الثقافات • حيث بناء الشخصية المحدد الذى يصوغ تكاملا بين هوية الأب والخصائص القهرية لمخاوف الشخصية الاستيه oral ، ومقاومة التغير من أى نوع • وفى الحقيقة يمكن التفكير فى العناد Obstinacy والاقتصاد Parsimony والنظام Order - Liness (الذى جمع فرويد بينها كمكونات للشخصية الاستية) كدفاعات لاشعورية ترفع فى مواجهة أى تهديد للموضوعات الداخلية المتقمصة ، وبخاصة فيما يتعلق بصورة الأب • ويعتبر الأنـا المحاط بقوة أيضا دفاعا ضد القوى الدينامية للبيئة التى تستمر فى تهديد تكامل الذات • ويمثل الأموى الفمى ، التلقائى ، وغير المقيد الطرف المقابل لمقاومة الأبوى الاستى للتغير • وعلى حسب هذه النظرية ينبغى أن يكونا نموذجى النظرية هذين فى صراع حاد للغاية فى موقف التغير السريع • ففى مثل هذا الموقف سـوف يواجه كل منهم الآخر ، حيث يبدو الأول

مغال فى المحافظة — Ultra - Con - Servative ، على حين يبدو الأخير عدوا للنظام المستقر •

(و) مصادر التغير الداخلى فى النسق :

تعتبر كل النظريات الأربعة مؤهلة للتسليم بامكان التغير الــذى يمكن أن يعزى لحركة من داخل النسق ، حيث تعتبر العمليات الداخلية فى الماركسية باعتبارها الوسيلة العادية للتغير • اذ هناك نضج الجــديد فىرحم القديم • وتستمر عملية النضج هذه عن طريق تراكم الاختلافات الكمية الطفيفة : وتصل هذه المرحلة التراكمية حتما الى حد معين ، حيث يبدأ التغير الكيفى الواضح • ويأفل القديم فى نفس وقت مولد الشىء الجديد • وفى التغير الاجتماعى يمهد التحول التطورى بالضرورة الأساس للثورة أو يعتبر كلاهما من المقومات الأساسية لعملية التغير الجــدلى المستمرة • ويسلم مالينوفسكى بعملية التغير التطورى البطىء • غير أنه يبدو ذو ميل لاعتبار معظم التجديدات كنتيجة للانتشار مــن الثقافات الهامشية ، أكثر من كونها نتيجة للعمليات الداخلية • ويتخذ التغير من الداخــل فى نظرية بارسونز شــكل (التجــديد الكارزمى Charismatic innovation) • وذلك يقصر التغيرات الأساسية عادة على القيم الدينية للمجتمع ؛ حيث تؤسس التغيرات من خلال أدائية قوة نبى ما يظهر لكى يفضح القديم ويبشر بالجديد • ويؤكد تيلور على امكان التغير العلمانى فى الصور الأبوية ، وهو لم يوضح مصدر هذا التغير ، غير أنه من الواضح أن هذا التغير ينبغى أن يكون نتيجة للتأثير الشخصى • وقد يتضمن ذلك عملية طويلة ومستمرة لتحول الفرد نحو الاتجاهات الجديدة ، ونحــو تربية الأطفال والمناشط الأخرى المرتبطة بها ، وهى المناشط التى تقع فى المجتمع • وسوف يرتبط هذا الانتقال ، حسب تيلور بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية بحيث تعمل كلها لغرض اتجاهات وتكنيكات جديدة حتى يمكن تقليدها من قبل أعداد كبيرة من البشر • ويبدو من المحتمل أنه يمكن تفسير هذا النوع من التغير كنتيجة لأسلوب الاهتزاز الشبيه باهتزاز

البندول : حيث يمكن تفسير هذه التأرجحات على أنها فعل يعقبه رد فعل ، كتطرق يولد نقيضه ، فى تتابع لا نهاية له من الحركات غير الرشيدة •

تلك هى بعض التشابهات بين النظريات الأربعة : فهى تقف أو تسقط مع بعضها فيما يتعلق بهذه القضايا : غير أننا اذا حاولنا تقدير قيمة كل نظرية كأداة تحليلية ، فان التأكيد ينبغى أن يتركز على الاختلافات بينها • وبذلك يمكن ابراز المحاسن والنقائص المحددة لكل نظرية ، ومن ثم يرسى أساس الاختيار الرشيد بينها •

١ ـ الاختلافات المنهجية :

الشىء الرئيسى الذى ينبغى أن يقال أن منهجا مختلفا يستخدم لتأسيس الفروض وتقويمها فى كل من هذه النظريات • حيث تستخدم كل الأنساق الأربعة المنهج العلمى فى دراسة الحقيقة الاجتماعية ، غير أنه توجد اختلافات هامة فى طريقة استخدام هذا المنهج • اذ يستخدم ماركس المنهج الجدلى ، وهو المنهج الذى يعتبر ثوريا ونقديا أساسا • فهو يعلن عن وعى أنه يدرك التناقضات الداخلية لأى موقف تاريخى محدد ، وذلك يقدم الأساس للحركة الاجتماعية بكاملها • ويتم تناول النمو الاجتماعى على أنه يشبه الى حد كبير التطور الطبيعى • حيث يفترض ان المجتمع البشرى تحكمه القوانين المستقلة ليس فقط عن ارادتنا ، ووعينا وذكائنا ، ولكنها القوانين التى تحدد هذه الارادة والوعى والذكاء • بل انه من المبادىء الأساسية للماركسية أن القوانين العلمية ذاتها ليست كيانا ثابتا ، وانما هى ككل شىء آخر معرضة لعمليات التغير الشاملة • وفى اطار هذين المبدأين الأساسيين تختلف الماركسية من حيث المنهج عن كل الأنساق الأخرى للتحليل الاجتماعى • اذ ينبغى أن ينظر الماركسى الى كل مرحلة اجتماعية بعيون مفتوحة طالما أن كل مرحلة لها قوانين التغير الخاصة بها والتى ينبغى اكتشافها من جديد •

ويعتبر منهج مالينوفسكى وظيفيا ، وهو مثل ماركس يستبعد التأملات

فيما يتعلق بالدوافع البشرية باعتبارها ليست ذات دلالة ، بحيث نجده يركز على العوامل المحتمة موضوعيا • وبخاصة على المحتمات الأساسية للأنساق الاجتماعية • ويمثل الانسان والمجتمع والثقافة هوية واحدة لديه : حيث يمكن فهم كل منها فى علاقته بالاثنين الآخرين • حيث يؤدى الفصل بينهم الى القضاء على السياق الذى يمنح التحليل معناه • ومن ثم يقضى على النتيجة • ويعتمد مدخله على افتراض أن الثقافة هى جهاز أدائى يساعد الانسان على حل المشاكل الواقعية بدقة تلك التى تواجهه فى بيئته ، وأساسا تلك المشاكل المتصلة باشباع حاجاته • ويفحص كل شىء اجتماعى من وجهة النظر هذه طالما أن هذا هو القانون الأساسى للمجتمعات البشرية •

ويستخدم بارسونز طريقة التجريد التحليلى لاستنباط نسق من المسلمات والقضايا المتعلقة بالأنساق الاجتماعية • ويبدو أن هدفه النهائى هو الوصول الى اطار من القضايا الافتراضية ــ الاستنباطية ، التى سوف تفسر العمليات الاجتماعية كحالة خاصة لفاعلية القوانين العامة لأنساق الفعل • وقد استمر تحليله للنسق الاجتماعى متواز مع الدراسات الأخرى ــ المتعلقة بالعائلة والنسق الاقتصادى ، وبعض الأحداث التاريخية ، والتغيرات داخل الجماعات الصغيرة ، وما الى ذلك • حيث سلم بمتغيرات مماثلة ، وتحددت عمليات مماثلة •

ويستخدم تيلور منهجا بيوجرافيا : اذ يتركز تأكيده على فترة خمس السنوات الأولى من الحياة باعتبارها هامة سواء بالنسبة للنمو الفردى ، ومن ثم للعمليات الاجتماعية • ويعتبر المنهج استرجاعيا اذا تم تصور الوقائع الاجتماعية بالنظر الى التفاعل المتبادل بين العوامل البيلوجية وبعض ملامح المصير الفردى • وتعتبر المفاهيم التفسيرية الرئيسية هى : غلبة تأثير عوامل لا شعورية فى تحديد الاتجاهات والسلوك الاجتماعى ، ووراثة الكائنات البشرية لمجموعات محددة من الدوافع والأفكار اللاشعورية ، وبخاصة عقدة أوديب ، ثم التضاد بين الحاجات البيلوجية والاجتماعية

للبشر ، ونمو الشخصية عن طريق التباين عن عقدة الطاقة الليبيدية المتجانسة أصلا • وتعتبر الروايات أو المماثلات هى المنهج المستخـــدم لتأسيس العلاقات المسلم بها بين خبرات الطفولة والاتجاهات الاجتماعية •

٢ ـــ القدرة والدقة التنبؤية :

تختلف النظريات من حيث القـــدرة Power التنبؤية • اذ يتميز النسق الماركسى بميله القوى نحـــو التنبؤات العامة للغاية على النطاق الواسع • ومن المعروف أن المدى الزمنى لهذه التنبؤات يحتاج باستمرار لاعادة المراجعة طالما أن هناك أنواعا معينة من الأنساق الاجتماعية التى تظهر أمكانيات المقاومة للتغير المتنبأ به بدرجة تجاوزت التوقع الماركسى • أما فيما يتعلق بالتوقعات المحلية المتصلة بالتغيرات الاجتماعية والسياسية قصيرة المدى ، فاننا نجدها متأثرة الى حد كبير فى العادة بالأمل والقصد الدعائى ، حتى أنه من الصعب تناولها بجدية باعتبار أنها تنتمى الى مجال التنبؤات العلمية على الاطلاق • ويخضع النسق النظرى لمالينوفسكى لذات القيود ـــ ربما أكثر من تلك التى خضعت لها الماركسية المنتهية • وفى الحقيقة فان القدرة التنبؤية لنظريته تساوى صفرا • اذ نجد أن تفسير أى ظاهرة ثقافية يكون عاما للغاية حتى أنه يفسر كل شىء بصورة عامة ، وفى ذات الوقت بشكل غير محدد • فتفسير التغير ينبغى أن يكون دائمـــا تفسيرا بعـــديا expost - facto طالما أن مالينوفسكى هو موضع الاهتمام •

أما بالنسبة للنسق النظرى لبارسونز فاننا نجد لدينا اطارا مفصلا للغاية يمكن بواسطته تفسير المراحل المتعاقبة للتغير • هذا الى جانب أنه قدم لنا نموذجا فعالا للطريقة التى يستمر بها التغير ـــ من مستوى لآخر ـــ من المناشط الى الأدوار ، الى المعايير الى القيم والعكس صحيح • وتوفر السهولة التى يمكن بها نقل اطار بارسونز مع بعض التعديلات الطفيفة • من أحد مجالات البحث الاجتماعى الى آخر ، له قيمة تنبؤية عليا •

ويفشل تيلور فى توفــير نوع التحليل الذى يساعــد على انجاز التنبؤات : فهو يتحرك على نفس مستوى التجريد والعمومية الذى تتحرك عليه الماركسية • وربما كان من الممكن ، بالنسبة له ، أن يسلم بالاتجاهات التى يمكن وصفها بأنها أبــوية Patrist أو أمــوية Matrist • حيث من المحتمل أن تتصل هذه الاتجاهات بواحد أو آخر من نظم التنشئة السائدة • غير أنه لم يحدد قاعدة يمكن أن تساعدنا على التنبؤ بدوام المراحل • ولم يوضح لنا أى شىء فيما يتعلق بالظروف التى تؤكد أن نظاما معينا ســوف يســود دون آخر ، هذا الى جانب أننا نجهل العوامل التى تؤدى الى استبدال صــورة أبوية بأخرى • فليس من الواضح تماما كيف يمكن أن يســود نموذجان أو ثلاثة فقط للشخصية على حســاب استبعاد عشرات من النماذج الأخرى الممكنة •

٣ ــ البناء المنطقى :

يعتبر التماسك الداخلى خاصية أخرى تميز النظريات الأربعة • ويمكن تحديد التماسك الداخلى بعدد التركيبات Constructs التى يتطلبها النسق النظرى • وبالتحديد ، كلما كان عدد الفروض المحددة والمتضمنة فى شرح النسق أكبر ، كلما قلت درجــة التماسك الداخلى •

فاذا حكمنا بالنظر الى هذا المحك ، فان النظرية الماركسية لاتبــدى مستوى عاليا من التماسك • بينما من ناحية أخرى يبدى الاتجاه الوظيفى ذلك • لأن عدد المفاهيم الأساسية قليل • وهى محددة بدرجة عالية من الوضوح طالما أن الاهتمام ينصب على الاشارة الى الحقائق الموضوعية • وبعبارة أخرى تبدو امكاناتها فى الملاءمة للحقيقة الامبيريقية أكثر عددا اذ نرى بينها صــلات منطقية قوية ، بحيث تشكل نسقا من المسلمات المتداخلة • ومن ثم فهى كافية فى حد ذاتها ، بدون الاستعانة بالتفسيرات أو العمليات المدعمه • وبالمقارنة ، نجــد أن التماســك الداخلى لنظرية بارسونز منخفض • فمن الصعب الابقاء على التمييز بين الأنساق الفرعية

المتصلة بالتكامل ، أو دعم النمط • بين الأنساق الفرعية المتصلة بالتكيف أو تحقيق الهدف • حيث يتضمن هذا النوع من تجزئة النسق الاجتماعى التكرار والتشابك : اذ لاتبدو المفاهيم ملائمة للواقع الذى تشير اليه بدرجة دقيقة تماما • ويقدم نسق التحليل النفسى على حسب تعديل تيلور بوضوح درجة عالية من الاتساق الداخلى • حيث نحتاج الى عدد قليل من التركيبات المنطقية لتحديد النسق • وهذه التركيبات المنطقية متكاملة تماما • وتوجد علاقة واضحة التحديد بين التركيبات التحليلية والحقائق الموضوعية التى تتناولها • ولا يتضمن ذلك بالضرورة تطابقا فى اطار الحقيقة • وانما يعنى فقط أن المرور من التأسيس المنطقى الى الواقع قصير ، ويتطلب خطوات تدخل ضئيلة •

٤ ــ مفهوم النسق الاجتماعى :

وأخيرا ، لتهتم بطبيعة الصورة الكلية للنسق الاجتماعى التى تواجهنا به كل نظرية • حيث تحتوى ثلاثة من النظريات الأربعة على تصور للنسق فى حالة من التوازن • حيث يتم تصور الرأسمالية فى الماركسية كنسق يخلق ذاته على الدوام ، طالما أنه دائم النمو فى ذات الوقت • غير أنه برغم استمرار النمو ، فانه ليس منتظما فى كل أجزاء النسق • وهذا يقود دوريا الى انهيار التوازن الذى تشير اليه أزمات تضخم الانتاج • وفضلا عن ذلك ، يمتلك النسق امكانيات هائلة لاستعادة التوازن ، بحيث يعاد تأسيسه بسرعة كبيرة • ومكفول للنسق أن يحيا حتى يظهر التنظيم المحدد الذى يكون قادرا على تطوير الموارد الانتاجية الى أقصى مستوى ممكن • حينئذ يظهر نسق جديد من النسق القديم ، له عناصر جديدة ، وتنظيما جديدا للأجزاء • ويعتبر النسق الجديد أيضا فى حالة من التوازن غير المستقر ، وبمرور الوقت ، محكوم عليه بالاختفاء ونجد فى نظرية مالينوفسكى حالة مماثلة لذلك تماما • غير أن التوازن من النوع الأكثر استقرارا ، بدون أزمات ، وبدون نمو متفاوت • وبالتأكيد ، يتغير النسق من الداخل ، غير أن التحولات الكبيرة تنتج

بسبب تدخل مادة من الأنساق الخارجية • ولا يعتبر التغير نتيجة للانهيار الجذرى للنسق ، كما هى الحال فى الصياغة الماركسية • وانما بدلا من ذلك توجد عملية من التمثل التدريجى والسلمى • نسبيا عنـــد النهايات (وتستخدم كلمة الانتشـــار diffusion بصورة أكثر ملاءمة) • ويستند نموذج بارسونز كلية على مفهوم حالة التوازن • حيث يعتبر النســق الاجتماعى معرضـــا لتجديدات دوريـــة سببها التدمـــيرات destructions والاندماجـــات Coalescences والانقسامات واعادة التنظيمات ، وما الى ذلك •

ومن ناحية أخرى ، ليس لدى تيلور تصـــور متكامل عن النســق الاجتماعى : فالنسق الاجتماعى بالنسبة لـــه مجرد جمـــع من الأفراد المتباينين ، الذين قد يرتبون على حسب الطبقة ، غـــير أنهم يستجيبون بالتأكيد للمؤثرات الشخصية خلال عمليات التنشئة التى تستكمل فى مرحلة الطفولة حقيقة أن فرويد نفسه أسس نموذجا للفرد كنسق يعمل مستندا الى مبدأ اقتصاد الطاقة السيكلوجية • ومن ثم فقد نظر الى اللاشعور باعتباره نسقا تكيفيا يتحكم فى السلوك • غير أن هذا التصور للتحليل النفسى لنسق التوازن لم يوسعه تيلور ليحتوى المجتمع •

ويتكون النسق ، فى حالة التوازن أو عدم التوازن ، من عناصر عدة وفى هذا الصدد يميز ماركس بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، بين الأساس الاقتصادى والبناء الفوقى الأيديولوجى • ويمكن تمييز عناصر أخرى فى اطار كل فئة • فاذا كان لنا أن نصوغ بيانا مفصلا ، فانه يكون من الواضح أن ماركس يوافق على مقولات الحياة اليومية (المصانع ، العمال ، النقود ، والآلات ، الزمن ، المـــادة الخام ، والسلع ، وما الى ذلك) باعتبارها عناصر النسق لديه • فقد كان مهتما بمحاولة صياغـــة قوانين مجددة تصل كلاً من هـــذه المكونات بالأخرى • أمـــا فى حالـــة مالينوفسكى فنجده يقرب مقولاته من الواقع بنفس الأسلوب تماما • اذ يتركب النسق الثقافى من المناشـــط والأشخاص والمقتنيات والمعـــايير أو

الوظائف والمواثيق والأجهزة المـادية • وتحتوى كل من هذه الفئات سلوكا ومواد يمكن ملاحظتها واقعيا • ومن ناحية أخرى ، نجد أن بارسونز لم يعالج حقائق واقعية ملموسـة اذ تعتبر اللزوميات الوظيفية (دعم النمط ، التكامل ، التكيف ، تحقيق الهدف ، تجريدات • وتعتبر ميكانيزمات الانسياب المساعدة (النقود والقوة ، الالتزامات الحقيقية ، الاتصـال ، تجريدات لا مادية أيضا • وذلك طالمـا أن التركيز ينصب على ظهورهـا ووظيفتها الاجتماعية • أما فى نظرية التحليل النفسى فنجد أنه لم تبذل أية محاولة لتحليل المجتمع • ومن ثم بقى الى حـد كبير غير متباين ماعدا ما يتعلق بالشخصيات الفردية والطبقات الاجتماعية العريضة •

ويتضمن مفهوم النسق فى حالة توازن فكرة ميكانيزمات الضبط • ويعتبر السـوق هو الميكانيزم الرئيسى للضبط فى النظرية الماركسية فى اطار النظام الرأسمالى • حيث يتحدد معيار القيمة بواسطة وقت العمل الضرورى اجتماعيا والمستنفد فى سلعة معينة • حيث يعمل هذا المحك حتى النقطة التى تصل عندها السلعة للسـوق : اذ توجـد قوانين العرض والطلب التى تؤدى دورها فى تثبيت الأسعار • وفى النهاية يدور الأداء الوظيفى لكل النسـق حـول عملية الانتاج والتبادل هذه • وبالنسـبة للاتجاه الوظيفى عند مالينوفسـكى ، تتحقق السيطرة على التجديد ، وعلى النسق الاجتماعى بكامله من خلال ميكانيزم الحاجات الأساسية والمشتقة • وبالمثل يشير بارسـونز الى (اللزوميات الوظيفية) باعتبارها الضوابط الرئيسية التى تؤدى دورها فى الحفاظ على النسق فى حالة التوازن • وتوجد فى هذا الاطار التحليلى ميكانيزمات أخرى لتحقيق التوازن المستقر : قد نمثل لأحدها بالنقود ، القوة ، الاتصال ، والالتزامات الأساسية • بحيث تحافظ هذه الميكانيزمات على الاستمرار المنسجم للنسق • ويتحكم نسق القيم فى كل العمليـة الاجتماعية ، حيث يؤدى دوره لتحديد المناشـط وتأسيس مشروعيتها • وتحمل ضوابط السلوك فى اطار تيلور للتحليل النفسى طابع الميكانيزمات الدفاعية • حيث تأسست نظرية ذات بنـاء محكم حـول فكرة أن الأنا ينبغى أن يدافع عن نفسـه ضد الدوافـع

الحيوانية من الداخل أو ضد البيئة المعادية فى الخارج • غير أن النظرية لم تعمم ، بقدر ما تحتوى سلوك الجماعة بالطريقة التى تيسر لنا المقارنة مع الأنســاق الأخرى • ويمكن الاشارة الى انجاز بوان Bion (وطريقة العلاج النفسى من خلال الجماعة) ، بدون تفصيل فى هذه النقطة •

ويتضمن مفهــوم (النسق الاجتمــاعى) بالضرورة فكرة التفاعل المتبادل بين أجزائه الكثيرة • اذ نجــد عديدا مــن التفاعلات فى نظرية المــادية التاريخية ، اذ يمكننا أن نصف النســق ، على سبيل المثال ، بالنظر الى قوى الانتاج وعلاقات الانتاج • وفى الحالة العادية للنسق سيكون هناك ارتباط شــديد بين شكل علاقات الانتاج ودرجة نمو قوى الانتاج • فكل منها يؤثر على الآخر بشكل متبادل • وعلى حسب ماركس يحدد مستوى نمو قوى الانتاج كلا من نموذج النسق الاجتماعى وطبيعة علاقات الانتاج فى اطاره : وســواء كان المجتمع رأسماليا ، أو اقطاعيا ، أو ملكية العبيد ، أو اشتراكيا ، فانه يعتمد على مستوى نمو قوى الانتاج • اذ أنه من المسلمات الأساسية لماركس أنه بمجرد نمو قوى الانتاج فانها تدخل فى صراع مع علاقات الانتاج • ولنعط مثالا على ذلك : فعند مرحلة معينة من نمو الأســاس الاقتصادى ، أصبحت ملكية العبيد غير مربحه وغير مثمرة أيضا • ومن ثم فقدت علاقات الانتاج (الخاصة بالســيد والعبد) فاعليتها كقيود على أى انتاج أكثر • وفجرت قوى الناضجــة الغشاء القديم لمجتمع العبيد •وظهر الى الوجود مجتمع جديد بعلاقات جديدة للانتاج • وبالاضافة الى نمو علاقات التماسك والتنافر ، تدرك الماركسية علاقة الانعكاس المتبادلة باعتبارها علاقة بين الأنساق ، حيث يعكس البناء الفوقى الأيديولوجى الأساس الاقتصادى • وحيث توازى التغيرات فى الاقتصاد تغيرات فى الدولة والقانون ، والدين والعلم ، وما الى ذلك • غير أنه ينبغى القول بأنه لم تحدد الطريقة التى يقع بها هذا الانعكاس ، ولو بطريقة عامة للغاية •

ولم يباين مالينوفسكى بين الأنساق الفرعية داخل نسق الثقافة ،

ولا هو اهتم بالطريقة التى قد تحدث بها التفاعلات • بيد أنه يبدو وكأنه يمكن أن تؤسس رابطة بين لزوميات التكامل (المعرفة ، والدين والسحر) وبين المناشط الاقتصادية فى المجتمع مثلا • ولنعط مثالا على ذلك • اذ يتضح فعل العملية الرمزية فى الطقس السحرى حيث يمثل الفعل النتيجة المرغوبة ، كما هى الحال فى شعائر اسقاط المطر • ويحضرنا فيما يتعلق بهذه القضية تمييز فريزر Frazer بين السحر (التعاطفى) والسحر (الضار) اذ تنتمى شعائر الرقص الذى يتمم mimcs الصيد ، والخاصة بالتعمير الى مجموعة اللزوميات المتعلقة بالتكامل أو الأدائية (التعليمية ، السياسية ، المعيارية ، الاقتصادية) • ولكل اللزوميات الثقافية علاقة وثيقة باللزوميات الأساسية • غير أن مالينوفسكى لم يفصل فى هذه الصلات أو العلاقات •

وفى اطار بارسونز ، نجد تبادلا دائما عبر حدود الأنساق الفرعية • وفى الحقيقة ، يعتبر هذا التصـــور جوهر نظرية الفعل ، وفى رأى البعض قد يصبح العامل الذى يشد التوازن لمصلحته •

BIBLIOGRAPHY

Bales, R. F. Interaction Process Analysis : A Method for the Study of Small Groups. Addison - Wesley, Cambridge, Mass., 1950.

Barnett, H. G. Innovation : the Basis of Cultural Change. McGraw - Hill Book Co., N. Y., 1953.

Black, M. (Ed.) The Social Theories of Talcott Parsons. Prentice - Hall, Englewood Cliffs, N. J. 1961.

Dobbs, A. E. Education and Social Movements, 1700 - 1850. Longmans, Green & Co., 1919.

Dollard, J., et al. Frustration and Aggression. Kegan Paul, 1944 : Yale U. P., New Haven, 1939.

Ellis, A. and Abarbanel, A. (Eds.) Encyclopaedia of Sexual Behaviour. 2 Vols. Hawthorn Books, N. Y., 1961.

Freud, S. Character and Anal - Erotism (1908). Collected Papers, Vol. 2, pp. 45 - 50. Hogarth Press, 1949.

Freud, S. Collected Papres, Hogarth Press, 1949 : Basic Books, N. Y., 1949.

Freud, S. Complete Works, Hogarth Press, 1953 : Macmillan, N.

Freud, S. The Unconscious (1915). Collected Papers, Vol. 4, pp. 98 - 136. Hogarth Press, 1949.

Freud, S. The Relation of the Poet to Daydreaming. Collected Papers, Vol. 4, pp. 173 - 83. Hogarth Press, 1949.

Freud, S. The Moses of Michelangelo (1914). Collected Papers. Vol. 4, pp. 257 - 287. Hogarth Press, 1949.

Freud, S. Three Essays on Sexuality (1905). Complete Works, Standard Edition, Vol. 7, pp. 125 - 245. Hogarth Press, 1953.

Freud, S. The Interpretation of Dreams (1900). Complete Works, Standard Edition, Vols. 4 and 5. Hogarth Press, 1953.

Freud, S. Leonado da Vinci and a Memory of his Childhood, 1910. Complete Works, Standard Edition, Vol. 11, pp. 59 - 137. Hogarth Press, 1957.

Freud, S. Der Witz und Seine Beziehung Zum Unbewussten (1905). Complete works, Standard Edition, Vol. 8. Hagarth Press, 1960.

Healy, W. and Bronner, A. F. The Structure and Meaning of Psychoanalysis. Knopf, N. Y., 1949.

Hecker, .J. F. Russian Sociology. Chapman & Hall, 1934.

Homans, G. C. The Human Group. Routledge & Kegan Paul, 1950 : Harcourt Broce & World, N. Y., 1950.

Kammari, M. D. Socialism and the Individual. Moscow, 1952.

Kinsey, A. and Pomeroy, W. B. Sexual Behaviour in the Human Male. Saunders, Philadelphia, 1948.

Konstantinov, F. V. The Role of Socialist Consciusness in development of Soviet Society, Moscow, 1950.

Konstantinov, F. V. Role of Aduanced Ideas in Development of Society. Moscow, 1954.

Konstantionv, F. V. Basis and Superstructure. Moscow, 1955.

Lenin, V. I. Filosofskiye Tetradi. Moscow, 1938.

Lenin, V. I. Cahiers Philosophiques. Editions Sociales, Paris, 1955.

Lenin, V. I. Sochineniya. 4th edition, 35 volumes. Moscow, 1941 - 1950.

Lenin, V. I. The Development of Capitalism in Russia. Moscow, 1957.

Malinowski, B. Sex and Repression in Sauage Society. Kegan Paul, Trench, Trubner, London, 1937 : Humanities Press, N. Y., n. d.

Malinowski, B. The Dynamics of Culture Change. Yale U. P., New Haven, 1945.

Malinowski, B. A Scientific Theory of Culture. Galaxy edition. Oxford U. P., 1960.

Martindale, D. Social life and Cultural Change. Van Nostrand, Princeton, N. J., 1962.

Marx, K. and Engels, F. Briefwechsel, 1844 - 1883. 4 Vol. Ring - Verlag, Zurich, 1935.

Marx, K. and Engels, F. Marxist Lenninist Library. 20 Vols. Lawrence & Wishart, London, 1936 - 1940.

Meijer, J. M. Knowledge and Revolution. Van Gorcum, Assen, 1955 : Humanities Press, N. Y., 1965.

Morison, E. E. (A Case Study of Innovation). In Frontiers in Science, ed. Edward Hutchings, Jun. Basic Books, N. Y., 1958.

O' Connor, N. and Francks, C. M. Childhood Upbringing and other Environmental Factors : In Eysenck, H. J. (Ed.) : Handbook of Abnormal Psychology, pp. 393 - 416. Pitman, London, 1960 : Basic Books, N. Y., 1961.

Parsons, T. The Social System. Tavistock Publishers, London, 1952 : Free Press, Glencoe, Ill., 1951.

Parsons, T. Essays in Sociological Theory. Glencoe Free Press, Glenco, Ill., 1954.

Parsons, T. «Pattern Variables Revisited : a Response to Robert Dubin». Mm. Soc. Rew., 1960, 25, 467 - 83.

Parsons, T. Structure and Process in Modern Societies. Glenco Free Press, Glencoe, Ill., 1959.

Parsons, T. and Shils, E. A. Toward a General Theory of Action. Harvard U. P., Cambridge, Mass., 1951.

Parsons. T. et al. Family, Socialization and Interaction Processes, Free Press, Glencoe, Ill., 1955. Routledge & Kegan Paul, 1955.

Parsons, T. and Smelser. N. S. : Economy and Society. Routledge & Kegan Paul. 1957 : The Free Press, Glencoe, Ill., 1956.

Parsons T., et al. Theories of Society. 2 Vols. Free Press. Glencoe. Ill., 1961.

Plekhanov, G. V. The Role of Individual in History. Moscow. 1946, International Publishers. N. Y. n. d.

Rieff, P. Freus : The Mind of the Moralist. Methuen Paperback, 1961 : Anchor Books. N. Y. 1961.

Smelser, N. J : Social Change in the Industrial Revolution. Routledge & Kegan Jaul, London, 1959 : Univerity of Chicogo. 1959.

Smelses, N. J : Theory of Collective Behaviour. Routledge & Kegan Paul. London. 1962. Free Press, Glencoe, Ill., 1962.

Toylor, G. R : The Angel - Makers. Heinemann. London. 1958 : Verry Lawrence, Mystic, Conm., 1928.

Toylor, G. R. Sex in History. Thames, London. 1924 : Vangaurd Press, N. Y. 1954.

Troeltsch, E : The Social Teaching of the Christian Churches. 2. Vols. Allen & Unwin. 1931.

Venable, V : Human Nature : The Marxian View. Dennis Dobsor, London. 1946 : Meridan Books, N. Y., n. d.

الباب الثانى

علم الاجتماع التطبيقى والتغير الاجتماعى

الفصل السادس : التغير والتطور والتقدم

الفصل السابع : عوامل التغير الاجتماعى

الفصل الثامن : علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية والتخطيط الاجتماعى

الفصل التاسع : المشكلات الاجتماعية

الفصل السادس

التغير والتطـور والتقدم (*)

ارتبط علم الاجتماع منذ بداياته الأولى ارتباطا وثيقا بفلسفة التاريخ وبالتفسيرات التى وضعت للتغيرات السريعـة والعنيفـة التى شهدتها المجتمعات الأوربية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • وقـد اهتم المؤرخون والفلاسفة الاسكتلنديون (وبالذات فرجسون Ferguson وميلار Millar وروبرتسـون Robertson) ، والفـلاسفة الفرنسيون (فولتير Voltaire وتيرجو Turgot وكوندرسيه Condorcet) ، والمؤرخـون والفلاسفة الألمان (هيردر Herder وهيجل Hegel) اهتموا جميعا بشرح وتفسـير ثورات عصرهم الاجتماعية والسياسية ، وذلك فى اطار نظرية عامة للتاريخ • وقد كان تأثيرهم فى ذلك عميقا ، يمكن أن نلمسه بوضوح فى عمال من تبعوهم من كتاب مثل سـان سيمون Saint-Simon ، وبكل Buckle ، وفى مؤلفات علماء الاجتماع الأوائل : أوجيست كونت وكارل ماركس وهربرت سبنسر • بل ان الاتجاه التاريخى والتطورى ظل مسيطرا على علم الاجتماع والأنثروبولوجيا حتى فيما بعد فى القرن التاسع عشر • ومع أن ماكس فيبر لم يقدم نظرية تاريخية شاملة ، الا أنه من الواضح أن كل مؤلفاته السوسيولوجية كانت مستوحاة من اهتمامه بالدراسـة التاريخية لأصـول الرأسمالية الغربية الحديثة ودلالتها • بل وأكثر من ذلك ، من اهتمامه الفائق بالترشيد المتزايد للحياة الاجتماعية وما ينطوى عليه من دلالات خاصـة بالحرية الانسانية • ومع أن دوركيم قد رفض

(*) ترجمت هذا الفصل الدكتور علياء شكرى عن المصدر التالى :
Bottomore, T. B., Sociology. A Guide to Problems and Literature, Unwin Univ. Books, pp. 263-275, London, 1965.

نظرة كونت اتلطورية الى علم الاجتماع ، الا أن تصـوره العام لتصنيف المجتمعات يرتكز على اطار تطورى • ويهتم فى كتابه « تقسيم العمـل فى المجتمع » بعملية التطور ابتداء من المجتمعات البدائية حتى المجتمعات الحديثة • أما هوبهوس Hobhouse فكان أكثر تأثرا بشكل مباشر بكونت وسبنسر • ومن الواضح أن كل مؤلفاته فى علم الاجتماع موجهة بتصور فلسفى للتقدم الاجتماعى •

ونلاحظ على هـذه النظريات السوسيولوجية الأولى أن مفاهيم « التغير » و « التطور » و « النمو » development و « التقدم » كانت تختلط فى بعض الأحيان أو يربط المفكر بينها جميعا فى مفهوم واحد • وكان يحدث فى حالات أخرى أن يفرق العلمـاء بينهـا • ولكنها كانت تعتبر مصطلحات مرتبطة ببعضها ارتباطا منطقيا • وقد انصبت الانتقادات التى وجهت الى هذه النظريات فيما بعد على ملاءمة هذه المصطلحات فى تطبيقاتها على الظواهر الاجتماعية ، وعلى طبيعة العلاقات بينها • وقد استعيرت فكرة التطور الاجتماعى مباشرة من نظريات التطور التى دعمت بقوة — فى القرن التاسع عشر — تأثير فلسفة التاريخ على علم الاجتماع • وقد عقد سبنسر فى كتابه **« الاستاتيكا الاجتماعية »** Social Statics (الصادر عـام ١٨٥٠) ، وبافاضـة أكبر فى كتابه **« أسس علم الاجتمـاع »** Principles of Sociology مماثلة بين المجتمع والكائن الحى ، وبين النمـو الاجتماعى والنمو العضوى • ولكنه لم يعر فى وصفه للتطور الاجتماعى اهتماما كبيرا للملامح الخاصة المميزة للنظرية البيولوجية ، وأعنى تعريفه للتطور على أنه : « انحدار سلالى معدل على نحو معين » وتفسيره للآليات التى يتم التطور من خلالها فى حديث عن نظرية داروين كذلك استخدام تايلور Taylor فى كتابه « الثقافة البدائية » Primitive Culture (الصادر عام ١٨٧١) مصطلح « التطور » بطريقة غير دقيقة على الاطلاق حيث قال : « فنجد من ناحية أن التماثل الذى يسـود فى الجانب الأكبر من الحضارة يمكن ارجاعه — الى حـد بعيد — الى التأثير المتماثل للأسباب المتماثلة • بينما نلاحظ من الناحية الأخرى أن الدرجات المتفاوتة للتماثل يمكن أن

تعتبر مراحل للنمو أو التطور ، تمثل كل منها محصلة تراث سابق ، وهى بصدد أداء دورها المناسب فى تشكيل أحداث المستقبل » •

وقد أشـــار الكتاب المحدثون الى الفروق القائمـــة بين النظريـــة البيولوجية والنظريات المختلفة فى التطور الاجتماعى • ورغم أن وليام أوجبرن W. E. Ogburn لم يرفض مفهوم التطور الاجتماعى كلية ، الا أنه يلاحظ قائلا : « ان المحاولات المبذولـــة للكشف عن قوانين الوراثـــة ، والتنوع ، والانتخاب فى تطور النظم الاجتماعية ، لم تسفر الا عن قليل من النتائج الحيوية أو الهامة » [1] • وكـــذلك كتب جوردون تشايلـــد Gordon Childe يقول : « انه من الضرورى لا يغيب عنا ادراك الفروق الدالة بين التقدم التاريخى والتطور العضوى ، وبين الثقافة الانسانية والتكوين الجسمانى للحيوان ، وبين الارث الاجتماعى والوراثة البيولوجية • فالتعبيرات الاستعمارية القائمة على تلك المماثلة المسلم بها يمكن أن تضلل الانسان غير الحذر ••• فمعدات الانسان وأساليبه فى الدفاع عن نفسه خارجة عن تكوينه الجسمانى ؛ اذ يمكنه أن يضعها جانبا ثم يستخدمها وفق ارادته • واستخدامها غير موروث ، ولكنه مكتسب ــ ببطء نوعا ما ــ عن الجماعـــة الاجتماعية التى ينتمى اليها كل فرد • فالارث الاجتماعى للانسان لا ينتقل عن طريق الخلايا المورثة التى نشأ منها ، بل عن طريق التراث الذى لا يبدأ فى اكتسابه الا بعد خروجه من رحم أمه • فالتغيرات فى الثقافة والتراث يمكن بدؤها عمدا كما يمكن التحكم فيها أو ابطاء سرعتها بواسطة الارادة الواعية والمدروسة لواضعيها ومنفذيها من البشر • وليس الاختراع طفرة عرضية فى البلازما المورثة ، ولكنه عبارة عن مركب جديد ناتج عن الخبرة المتراكمة التى ورثها المخترع عن طريق التراث فقط • ومن المستحسن أن نكون على بينة ــ ما أمكن ــ بنوع الاختلافات الكائنة بين العمليات موضع المقارنة هنا [2] » •

---

(1) W. F. Ogburn, Social Change (New York 1922), p. 57.

(2) V. Gordon Childe, Man Mages Himself, (3rd edition, London 1956) pp. 16 - 17.

هذا وقد استطاع البعض أن يدركوا فى وقت مبكر نسبيا مواطن الضعف الكامنة فى المماثلة بين التطور البيولوجى والتطور الاجتماعى ، كما فضـل بعض علماء الاجتماع استخـدام مصطلح « النمو الاجتماعى » Social development للاشارة الى عملية التغير التاريخى • غير أنهم لم يتمسكوا تمسكا صارما بهذا التمييز (بين مصطلحى « التطور الاجتماعى » و « النمو الاجتماعى ») • اذ يبدو مثلا أن هوبهوس قد استخدم هذين المصطلحين كمترادفين فى معظم كتاباته ، بالرغم من أنه وجه النقـد الى جوانب معينة لنظرية سبنسر التطورية [1] • وهو فضلا عن هذا يقترح فى كتابه **« النمـو الاجتماعى »** Social Devleopment (الصـادر فى لندن عام ١٩٢٤) أربعة معايير للنمو هى : الزيادات فى كل من المدى ، والكفاءة ، والتبـادل ، والحرية • وهو يربطها جميعا ربطا واضحا بمعايير التطـور البيولوجى [2] • وقد استخدم كثير من علماء الاجتماع الآخرين معيار المدى فى كلامهم عن النمـو الاجتماعى ، كما رأينا من قبل عند كل من سبنسر ودور كايم فى تصنيفهما للمجتمعات فى اطار تطورى [3] • وقد أشـار جوردون تشايلد حديثا الى أن « الاستمرار بين التاريخ الطبيعى والتاريخ الانسانى يمكن أن يسمح بادخال مفاهيم متعددة فى التاريخ الانسانى • ويمكن الحكم على التغيرات التاريخية على أسـاس المـدى الذى ساعدت به جنسنا البشرى على البقاء والتكاثر » [4] • وهذا الرأى قريب من فكرة التغيرات التى تطرأ على حجم المجتمع ، رغم أن دوركايم أشار الى أن هـذا الأخير ينطوى على ما هـو أكثر من مجرد النمـو السـكانى • ومن المعايير الأخرى التى كثيرا ما تستخدم لتحديد النمو ، معيار التباين الاجتماعى الذى درسه كل من سبنسر ودور كايم ، وكذلك

---

(١) فى مقدمة كتابه « النمو والفرض » Development and Purpose الصادر فى لندن عام ١٩١٣ •

(٢) كذلك يرتبط المعياران الأخيران من هـذه المعـايير بمفهومه عن التقدم . انظر فيما بعد صفحتى ٤٢١ و ٤٢٨ .

(٣) انظر الفصل السابع من هذا الكتاب .

(4) Man Makes Himself, p. 12.

هوبهوس فى كلامه عن الكفاءة والتبادل ، واعتبره كل من ماكيفر وبيدج معيارا رئيسيا فى هذا الصدد [١] .

على أن مصطلح النمو لم يعد أكثر دقة من مصطلح التطور فى تطبيقهما على الظواهر الاجتماعية . وتعنى كلمة نمو فى الاستعمال العادى « تفتح تدريجى » أو النضج الكامل لجزئيات شىء ما ، أو نمو لما هو كائن بداخل البــذرة الأصلية » (كما جاء فى قاموس أوكسفورد الانجليزى) . وبهذا المعنى يمكننا أن نتكلم عن نمو الطفل أو نمو (تطور) المرض . ولكن من الصعب أن نتكلم بنفس الطريقة عن النمو الاجتماعى لأننا لا نستطيع دائما أن نرجع بأى قدر من اليقين ظاهرة معينة الى بذرتها الأصلية ، أو أن نفرق فى عملية معينة تفريقا واضحا بين النمــو والتدهور . وليس هناك ســوى عمليتين اجتماعيتين فقط (مرتبطتين ببعضهما) يبدو فيهما ممكنا تطبيق مصطلح « النمو » بشىء من الدقة ؛ وأعنى بهما نمو المعرفة ، ونمو سيطرة الانسان على البيئة الطبيعية كما تبدو فى الكفاءة التكنولوجية والاقتصادية . فهاتان العمليتان هما اللتان ظهرتا بأكبر قدر من الوضوح فى البيانات المتعلقة بنمو وتطور المجتمع الانسانى [٢] .

---

(1) R. M. MacIver and C. H. Page, Society, London 1952), Chapter 27.

هذا وقد صدرت ترجمة عربية لهذا الكتاب الهام فى ثلاثة مجلدات على النحــو التالى .

(ا) الجزء الأول ترجمة د . على عيسى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

(ب) الجزء الثانى ترجمة د . السيد محمد العــزاوى ، وفؤاد اسكندر ، ويوسف ميخائيل اسعد ، القاهرة ، ١٩٧١ .

(جـ) الجزء الثالث ترجمة د . سمــير نعيم احمــد ، القاهرة ١٩٧١ (المترجمة)

(٢) هناك مشكلات اخرى اتضحت فى ثنايا مناقشة أرنست نيجل Nagel الموجزة لمصطلح « النمو » فى الفصــل الذى عقده للــكلام عن « الحتمية والنمو » فى الكتاب الذى اشرف هاريس D. B. Harris على تحريره والمعنون « مفهوم النمو » (الصادر عام ١٩٥٧) .

The Challenge of Development

ويشير نيجل الى ان المصطلح لا ينطوى على اشارة الى الماضى فحسب ، بمعنى أن شيئا كئنا أو مستترا يتضح بتقــدم واضطراد وانما له معنى =

وقد استخدم مصطلح النمو بطريقة مختلفة تماما فى معظم المؤلفات السوسيولوجية الحديثة • أولا للدلالة على التمييز بين نوعين من المجتمعات المعاصرة هى المجتمعات الصناعية من ناحية ، وجميع المجتمعات من ناحية أخرى (التى تنتمى من نواح أخرى الى أنماط شديدة التباين) وهى الريفية والزراعية أساسا وتتصف بانخفاض مستويات الدخول نسبيا • وثانيا للاشارة الى العملية التى يتحول بها الآن النوع الأخير الى مجتمعات صناعية (*) • وتتميز فكرة النمو الشائعة هذه بسمتين هامتين هما : أولا أنها لا تعتمد على أى نظرية عامة فى التطور أو النمو الاجتماعى ككل ، ولكنها تشير الى نوع معين من التغير الملحوظ فى الوقت الراهن • وهى ثانيا تشير بوضوح الى تغيرات اقتصادية يمكن التعرف عليها وقياسها بشىء من الدقة والاحكام • وتكشف السمة الثانية ما كان متضمنا فى معظم نظريات النمو الأولى والتى كانت معظم بياناتها المقنعة تهتم بنمو المعرفة ونمو السيطرة على الطبيعة ؛ أو بمعنى آخر تنمية قوى الانتاج البشرية • ان كون الدراسات الحالية لا تلجأ اطلاقا الى أى نظرية عامة فى النمو الاجتماعى لا يعنى بالطبع الغاء الحاجة الى البحث التاريخى والمقارن • وقد عقد بعض الباحثين الذين شاركوا فى حلقة دراسية قيمة أقيمت مؤخرا عن موضوع « تحديات التنمية » [1] The Concept of Development مقارنات واضحة بين تصنيع البلاد ذات الدخل المنخفض فى

= مستقبلى ايضا . فيقول فى هذا : « ان له مذاقا غائبا قويا » . ويبدو هذا واضحا فى الأمثلة التى ضربناها . من هذا مثلا أن نمو الطفل يرتبط ببعض السمات المعروفة للكائن البشرى البالغ . اما فى حالة الظواهر الاجتماعية فيمكننا ان نربط نمو المعرفة بحالة ازدياد المعرفة دقة وشمولا ، ونمو السيطرة على الطبيعة ببعض الاشياء مثل البقاء او حجم السكان . غير انه يصعب ربط نمو المجتمع فى حقيقته بأى ظروف مستقبلية للمجتمع اللهم على اساس مثل اعلى اخلاقى ، وفى هذه الحالة يصبح النمو مرادفا للتقدم .

(*) ويقابلها فى الاستخدام العربى الشائع حاليا « المجتمعات النامية » أو « البلاد النامية » . (المترجمة)

(١) نشرتها مدرسة اليعازر كابلان للاقتصاد والعلوم الاجتماعية التابعة للجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٥٨ .
Eliezer Kaplan School of Economic and Social Sciences.

الوقت الحاضر وتصنيع المجتمعات الغربية فى الماضى [١] • ويدين مثل هـذا الاتجاه بالكثير لمنهج ماكس فيبر • اذ يركز على عمليات تغير معينة وعلى ظهور نمط معين من المجتمعات • كما يضع شروحا وتفسيرات على أساس الظروف التاريخية والفروض العامة أو مفاهيم متعلقة بالسلوك الاجتماعى ، وليس على أساس « قوانين تاريخية » أو « قوانين النمو » •

هذا وترتبط المفاهيم الخاصة بالتطور الاجتماعى والنمو الاجتماعى التى ناقشناها هنا ارتباطا وثيقا بفكرة التقدم Progress [٢] ويبدو هذا الارتباط واضحا عند كل من كونت وسبنسر الى الحد الذى لايحتاج الى أية ايضاحات أخرى • وقد اقترح هوبهوس تمييزا بين التطور الاجتماعى والتقدم الاجتماعى [٣] ، وان كان الاهتمام بالتقدم يسيطر

---

(١) انظر على وجه الخصوص تالكوت بارسونز : « تأملات حول الاطار النظامى للنمو الاقتصادى » .

T. Parsons, «Some Reflections on the Institutional Framework of

حيث يعرض ببراعة الظروف المختلفة للتصنيع فى عالم اليوم . ويلخص رايه فى الكلمات التالية : « ربما كان هناك افتراض بديهى غير مفهوم مؤداه أن الظروف التى نمت فى ظلها ظاهرة هامة من ظواهر البناء الاجتماعى ذات مرة هى نفسها الظروف الأكثر مناسبة لتكرارها فى المستقبل . وحجتى الأساسية أن هذا الافتراض قد لا يصدق بالنسبة للاقتصاد الصناعى ... فالتصنيع اولا يجب ان ينمو ... (كما حدث فى الغرب) مستقلا استقلالا جوهريا عن المنظمات السياسية الرئيسية الموجودة فى المجتمع ... (اما فى التصنيع الحالى) فاننا نجد أن الحكومات تلعب دورا فائق الأهمية فى اطار الشعارات الأيديولوجية للقومية والاشتراكية » (ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٢) للوقوف على تاريخ فكرة التقدم ، انظر :

J. B. Bury, The Idea of progress (London 1920).

(٣) حيث يقول : « اعنى بالتطور نوعا من النمو ، واعنى بالتقدم الاجتماعى نمو الحياة الاجتماعية فى تلك الخصائص التى يرتبط بها البشر ، او يمكنهم الارتباط بها وهى : القيمة » . وذلك فى كتابه « التطور الاجتماعى والنظرية السياسية » (الصادر فى لندن عام ١٩١١) ص ٨ .

Social Evolution and Political Theory.

ويقدم هوبهوس فى هذا الكتاب — الذى لا يذكره الكثيرون — عرضا رائعا فى وضوحه لاتجاهه السوسيولوجى ونتائجه الأساسية .

على مؤلفاته بشكل واضح • ويقول فى هذا الصدد : « ان المشكلة الشاملة التى يجب أن تلتقى عليها كل العلوم السوسيولوجية ، وتتوافر على حلها فى النهاية كل الجهود السوسيولوجية الواعية ؛ هى وضع مفهوم سليم للتقدم البشرى عن طريق التحليل الفلسفى ، وتتبع هذا التقدم فى صوره المعقدة على طول التاريخ ، واختبار حقيقته عن طريق التصنيف الدقيق والمقارنات الفاحصة ، للتأكد من ظروفه والتنبؤ بالمستقبل ان أمكن » (١) • ذلك أنه ليس من الواضح ما اذا كان من الممكن التمييز الدقيق بين فكرتى النمـــو والتقدم فى تطبيقاتهما على التغيرات الاجتماعية • ففى كـــلام هوبهوس نجــد أن العمليتين تتوافقان فى حدوثهما ولم يضرب أى مثال لعملية نمـــو اجتماعى عامة ليست تقدمية ، بالرغم من أن هوبهوس قد أوضح بالطبع أن النمو فى مجال معين من مجالات الحياة الاجتماعية يمكن أن يؤدى الى نتائج غير مرغوبة فى مجال آخر •

وقد تعرضت فكرة التقدم منذ نهاية القرن التاسع عشر للاهمال أو الازدراء ، ليس فى علم الاجتماع فحسب ، وانما بصورة أعم فى نظرة مثقفى المجتمعات الغربية على العموم • وهذه ظاهرة تستحق فى حــد ذاتها دراســة سوسيولوجية خاصة • فقد لعبت كل من المؤثرات الفكرية والاجتماعية دورا هاما فى احــداث ذلك • فمن الناحية الفكرية كان هناك سعى دائب لجعل علم الاجتماع علما متحررا من الاحــكام القيمية كما حدث فى خلال نفس الفترة نمــو الفــكر الفلسفى الخاص « بالنسبية الأخلاقية » • وقد عملا معا على انتشــار الاعتقاد بأن علماء الاجتماع يمكنهم ـ بل وينبغى عليهم ـ أن يتجنبوا الأحكام القيمية • وقد سهل هذا القيد الذاتى الى أبعد حــد الحقيقة التى مؤداها ؛ أن القيم ليست بحال من الأحــوال موضوعا للحــكم • أما المؤثرات الاجتماعية فيبدو أنها كانت ذات فاعلية أكثر • وهنا يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار ليس

(1) Introduction, The Sociological Review I, (1) p. 11.

فقط التشاؤم الناشىء عن طبيعة الحرب الحديثة ومداها وعن تجربة نظم الحكم الديكتاتورية الحديثـة ، وانما كذلك ظاهرة مختلفة تمام الاختلاف وهى عـدم اليقين الكامل فيما يتعلق بالأهداف التى يجدر السعى من أجلها فى المجتمعات التى تتمتع فعلا بمستويات معيشة مرتفعة • ورغم أن كثيرا من أهداف دعاة التقدم فى القرن التاسع عشر قد تحققت الا أنها لم تحقق كل الرضاء المنشـود • ومن هنا ينجم الشك فيما اذا كانت أى حالة من حالات المجتمع الناشئة نتيجـة للمجهود الانسـانى يمكن أن تكون مرضية فى النهاية • فهناك على الأقل اعتراف بأنه اذا تغلبنا الى حـد كبير على الشرور الاجتماعية الرئيسية مثل الجهل والفقر والظلم ، فان غايات التقدم ووسائله تصبح أكثر تعقيدا وأقل سهولة فى تحديدها •

ونجد فى هـذا المجال فارقا شاسعا بين البلاد الصناعية الغربيـة والبلاد ذات الدخل المنخفض فى معظم بقية العالم • ففى هـذه البلاد الأخيرة مازلنا نجـد أن الشرور الاجتماعية كالفقر والمرض والجهل ، وأحيانا الظلم ، مازالت قائمـة كما هى تقريبا لم تمس • وكما لاحظ « سنو » C. P. Snow مؤخرا فانه من العبث بالنسبة للمثقفين الغربيين أن يعبروا عن شكهم فيما يتعلق بتقـدم الشعب أو القادة السياسيين لهذه البـلاد • فخط التقدم هناك ــ على الأقل ــ واضح لا يمكن أن نخطئه • ويمكن لعلماء الاجتماع بصفة خاصـة أن يشتغلوا بدراسـة الظروف السابقة المختلفة اللازمـة للتغلب على التفاوت الحالى الكبير (والمتزايد) فى مستويات المعيشـة بين الدول الغنية والفقيرة • ومما تجـدر الاشـارة اليه هنا أن أحد الانساق الفكرية السوسيولوجية ــ وهو الماركسية ــ الذى ظل مرتبطا ارتباطا وثيقا بنظرية عامة فى التقـدم يمارس أقوى اغراء له فى البلاد النامية فى كل من آسيا وأفريقيا [١] •

وهناك معنى معين يلزم أن يرتبط فيه علم الاجتماع تفكرة التقدم •

---

(١) كذلك كانت الماركسية فى أوروبا اقوى تاثيرا فى البلاد الفقيرة نسبيا لا فى الدول الأرقى صناعيا .

أى أنه يجب عليه كعلم أن يكون أحـد مبررات وجوده الاسهام الذى يمكن أن يقدمه لتحقق التقدم البشرى • وعلاوة على هذا يمكن أن يكون من أهم اسهامات علم الاجتماع للمعرفــة الانســانية أن يوضح طابع وامكانيات المجتمع الصناعى الحديث • ونجـد فى نظريات التقدم العامة السابقة مثل نظريات كونت وسبنسر اهتماما خاصا بالمجتمعات الحديثة • ولا يزال هـذا يبـدو بوضـوح أكثر فيما تلا ذلك من كتابات فى علم الاجتماع • وقد أورد هوبهوس Hobhouse فى مناقشاته أنه قد بدأت الحضـارة الحديثة عن طريق العلم تتحكم فى الظروف المـادية للحياة ، وبدأت فيما يتعلق بالأخلاق والدين فى اخضاع أفكار وحـدة الجنس والخضوع للقانون والأخلاق والاعراف الاجتماعية عموما لمتطلبات النمو الانســانى التى تمثل شروط التحكم المطلوبة • وقد بدا من الأمور ذات الأهمية الثانوية أن التقدم فى المجالات الأخرى كان بسيطا أو شبه معدوم على أســاس أن هذا الشرط الأساسى للتقدم فى المستقبل قد تحقق (١) • كذلك عالج ماركس الرأسمالية الحديثة باعتبارها مرحلة حرجة فى التاريخ الانســانى يمكن أن يبدأ فيها التحكم الرشيد فى الحياة الانسانية • وقد كرس نفســه لدراســة هذه الظاهرة التاريخية دراسة شاملة لا كصياغة تأملية لنظرية فلسفية تاريخية فى النمو الاجتماعى • ومع ذلك فان نظرية كهذه فى التقدم تنتمى الى فلسفة التاريخ لا الى علم الاجتماع • اذ من الواضح أنها تفسير للتجربة الانسانية ومحاولة لاستكشاف معنى التاريخ على نحـو شبه دينى • على أن تحقيق التقدم ــ مهما كان مفهومنا عنه ــ لا يتوقف على أى تفسير من هـذا النوع ، وانمـا معرفة التغير الاجتماعى وأساليبه ومعرفة ظروف المجتمع المعين موضوع الدراســة • الا أن فلسفة التاريخ التى يخضع فيها التأمل لتدعيم المعرفة السوسيولوجية وضبطها يمكن أن تلعب دورا هاما فى تحديد أهداف الفكر السوسيولوجى والدراسة السوسيولوجية •

---

(1) Development and Purpose, Introduction.

وقد أدت الصعوبات التى واجهتنا فى نظريات التطور أو النمو أو التقدم وكذلك فى تغيرات المناخ الفكرى الى تبنى الجميع مصطلح « التغير الاجتماعى » للاشارة الى كل صور التباين التاريخى فى المجتمعات الانسانية ، وقد ساعد على انتشار مثل هذا المصطلح الأكثر حيادا نشر كتاب « التغير الاجتماعى » لوليام أو جبرن فى سنة ١٩٢٢ • وقد ميز أوجبرن فى كتابه هـذا بعد مناقشة مفاهيم التطور الاجتماعى والدراسة المفصلة لدور العوامل البيولوجية والثقافية فى التغير الاجتماعى بين الثقافة المـادية واللامادية ، كما طرح فرض « الهوة الثقافية » Cultural lag الذى يرى أن التغيرات التى تطرأ على جزء من الثقافة اللامادية (الذى يطلق عليه اسم الثقافة التكيفية adaptive culture لا يتزامن تماما مع التغيرات التى تطرأ على الثقافة المادية ؛ ومن ثم تصبح مصدرا للضغوط وللصراعات • والملاحظ أن تحليل أوجبرن هـذا يرتبط على نحو ما ببعض الدراسات السابقة ، وخاصـة بتفرقة « ألفريد فيبر » Weber بين الثقافة والحضارة ، وبالتفرقة التى وضعها ماركس بين « القاعدة » أو « البناء التحتى » basic و « البناء الفوقى » Super - Structure • غير أن معالجة أوجبرن للمشكلات تختلف عنهما وخاصة فيما أبداه من اهتمام بعملية الاختراع • ولكنه يشترك مع الكتاب المذكورين فى التركيز على التغيرات التى نشأت فى مجال الانتاج المـادى منذ بداية التصنيع الحـديث • والحقيقة أن معظم الدراسات الحديثة للتغير الاجتماعى قد جرت فى اطار هذا السياق • وهكذا توفرت لدينا دراسات عديدة للاتجاهات السكانية فى المجتمعات الصناعية ، وللتغيرات فى الأسرة ، والبناء الطبقى ، وفى القانون والدين • الا أن هذه الدراسات كانت تفتقر فى الجانب الأكبر منها الى مراعاة العلاقات المتداخلة بين أنواع التغيرات المختلفة • كما أننا نفتقر الى أى دراسـة مقارنة للتغيرات التى تحدث فى أزمنة وأماكن مختلفة ، أو الى أى نظرة عامة الى الاتجاهات الرئيسية للتغير كتلك التى صاغها هوبهوس أو ماركس فى نظرياتهما السابقة ، أو ماكس فيبر بطريقة أكثر ترددا • وسنناقش فى الفصـل القادم بعض المشكلات العامة فى

تحليل التغير الاجتماعى مع ايراد أمثلة لها من واقع التغيرات الاجتماعية الحديثـة فى الهند .

وليس من المتوقع أن يكون للافكار التى توصلنا اليها هنا ما يماثلها فى الفكر الاجتماعى الهندى . فلا الظروف الفكرية ولا الاجتماعية فى الهند شجعت على ظهور نظريات فى التغير أو التطور أو التقدم . فالمجتمع الهندى ذاته الذى كان يتكون أساسا من الجماعات الطبقية المغلقة ، ومن الأسر المشتركة والمجتمعات القروية المحلية كان ثابتا نسبيا قبل أن تدخل فترة الحكم البريطانى مفاهيم التقدم الغربية (*) ، كما أن المثل الأعلى للديانة الهندوسية كان يبعد أذهان الناس عن الاهتمام بتحسين ظروفهم المادية فى نفس الوقت الذى قامت فيه هذه الديانة باقرار وتبرير النظام الاجتماعى القائم . فالثقافة الهندية ـ كما لوحظ كثيرا ـ كانت دينية فى جوهرها وقائمة فى اتجاهها العام على الاهتمام بالعالم الآخر . وفضلا عن ذلك ـ حتى اذا تجاهلنا كل تلك الخصائص المميزة للهندوكية ـ فاننا يمكن أن نتفق مع بيرى Bury فى أن مذهب التقدم لم يكن لتقوم له قائمة طالما أن النزعة الدينية الاتكالية مسيطرة [١] . بل انه يذهب الى أبعد من ذلك ، اذ يرى أن نظريات التقدم والنمو لا يمكن أن يكون لها تأثير يذكر الا فى المجتمعات التى تعرضت فيها المذاهب الدينية عموما للتحدى ، وحيث وصل اضفاء الطابع العلمانى على الحياة الاجتماعية الى حد بعيد . ومثل هذه الظروف فى الهند الا فى وقت حديث جدا ، حينما بدأ الصدام بين الافكار العلمانية والدينية فى مراحله الأولى ،

(*) غنى عن كل بيان أنه ـ حتى وان صدق مايذهب اليه المؤلف ـ فان فترة الحكم البريطانى للهند لم تجلب معها التكنولوجيا الغربية ومفاهيم التقدم الغربية فحسب ؛ بل جلبت معها شرورا وآلاما تفوق هذه الحسنات اضعافا مضاعفة ، ليس اقلها ابتزاز الثروات الهندية القومية ، وبث روح الفرقة والشقاق العقائدى والاجتماعى بين ابناء الشعب الواحد ... الخ . (المترجمة)

(١) المرجع السابق ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

وهو الصـــدام الذى اكتسب طابعا خاصا نظرا لأن حكام المجتمع الاجانب ظلوا يمثلون هـــذا الفكر العلمانى ردحا طويلا من الزمن •

نظريات التغير الاجتماعى :

ظلت نظريات التغير الاجتماعى التى طرحت الى الآن ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتفسيرات الفلسفية للتاريخ • وهناك أكثر من طريقة لتصنيف هذه النظريات ، ولكنه من الأفضـــل أن نبـــدأ بالتمييز الأولى بين النظريات الخطية (*) linear والنظريات الدائرية (**) Cyclical

وتعتبر نظريات كونت وسبنسر وهوبهوس وماركس من أهم النظريات الخطية • وتفسر نظرية كونت ـــ التى تفرعت عن سان سيمون وتأثرت تأثرا سريعا بكوندسيه Condorcet ـــ التغير الاجتماعى بأنه محصلـــة النمو الفكرى للانسان • وقد صاغها فى « قانون المراحل الثلاث » بأنها الارتقاء من أساليب الفكر اللاهوتى الدينى الى الأسلوب الميتافيزيقى الى الأسلوب الوضعى للفكر الذى يمثله العلم الحديث وخاصـــة السيطرة التدريجية لنزعات الغيرية على الأنانية • ويصاحب هذا التقدم الفكرى نمـــو أخلاقى ، وتغيرات فى النظم الاجتماعية • « ويمر النشاط الانسانى ـــ كما سبق أن بينت منذ زمن طويل ـــ بمراحل الحرب الهجومية ثم الحرب الدفاعية ثم الصناعة على التوالى • ويؤدى ارتباط هذه المراحل بسيطرة الروح اللاهوتية أو الميتافيزيقية أو الوضعية على التوالى ، الى امدادنا دفعة واحدة بتفسير كامل للتاريخ » • وقد ركزت الانتقادات التى وجهت حديثا الى كونت بصفة أساسية على الطابع الحتمى للتاريخ عنده [١] ، أو بمضامينها الشمولية [٢] • وهناك مجال للاعتراض على أساس اعتبارات

(*) اى التى تقول بسير حركة المجتمع فى خط واحد . (المترجمة)

(**) اى التى تقول بسير تلك الحـــركة فى اتجاه دائرى وقد تدور العجلة مرة واحدة او تتعدد الدورات . (المترجمة)

(1) Isaiah Berlin, Historical Inevitability.

(2) F. A. Hayek, The Counter - Revolution of Science.

أخرى ، منها ادعاؤها اكتشاف قوانين التطور الاجتماعى ، وافتراضها الخاص بتأثير النمـــو الفكرى على الأفكار الأخلاقية وتأكيداتها غـــير المدعمة بأية شـــواهد تفصيلية ، بوجود تطابق وثيق بين حالة المعرفة وبين نمط البناء الاجتماعى . غير أن تحليل كونت لتأثير المعرفة العلمية الحديثة مازالت له بعض القيمة ، وكذلك مناقشته لخصائص المجتمع الصناعى وتأثيرها على انتشـــار الحرب (١) .

أما نظرية سبنسر فى التغير الاجتماعى فقد كانت أكثر شمولا فى بعض جوانبها ، وكانت مبنية على بيانات امبيريقية أكثر كفاءة من تلك التى استعان بها كونت . وقد أدرك سبنسر بشـــكل أكمل تعدد وتنوع العوامل الداخلة فى احداث التغـــير الاجتماعى ، وكذلك صعوبات بيان التطور فى كل مجتمع على حدة . وقد لاحظ فيما يتعلق بالموضوع الأخير أنه على رغم أن التطور أمر حتمى لا مفر منه اذا أخذنا جميع أنواع المجتمعات على الجملة ، الا أنه لا يمكن أن يعتبر حتميا فى كل مجتمع على حده أو ممكنا فعلا (٢) . وقد اعتبر فى مناقشته للمسار الحقيقى للتطور الاجتماعى أن من الملامح الهامة لهـــذا التطور تزايد التباين الوظيفى داخل المجتمعات ، وكذلك نمو حجم المجتمعات (ويرجع الفضل فى تحقق نمو حجم المجتمعات الى الحرب أساسا) . غير أن تحليله للتغير الاجتماعى يعتمد فى النهاية على نظرية (رفضت منذ وقت طويل) فى التطور الشامل والتى ترى أن هناك انتقالا شاملا من حالة « تجانس مطلق وغير مستقر » الى حالة « لاتجانس محدد ومستقر » . والواقع أن سبنسر لم يبين كيف يمكن ترتيب المجتمعات التى درسها ترتيبا منهجيا على أســـاس تسلسل تطورى (٣) .

---

(١) انظر عن هذا الجانب من جوانب نظرية كونت .
R. Aron, Kar and Industrial Society (London 1958).

(2) Principies of Sociology, Vol. I, p. 107.

(٣) للوقوف على شرح شامل لنظرية سبنسر انظر :
J. Rumney, Herbert Spencer's Sociology (London 1934).
وقد تحقق التأثير الأكبر لسبنسر فى أمريكا وليس فى انجلترا . وهناك عرض نقدى طيب لنظرية التطور الاجتماعى عند :
R. Hofstadter, Social Darwinism in American Thought.

وقــد تأثر هوبهوس تأثرا كبيرا بكل من كونت وسبنسر ، الا أن نظريته فى التغير الاجتماعى قد وضعت بطريقــة أكثر صرامة ، كما أن استخدامه للبيانات التاريخية والأنثروبولوجية كان أكثر علميــة وأكثر نقدية . وقــد أخــذ عن كونت فكرة أن تطور العقل الانسانى كان هو العامل الحاسم فى التطور الاجتماعى . الا أنه لم يقبل وضعية كونت القاطعة ، واستطاع أن يدعم عرضه للنمو العقلى بنظرية سيكولوجية أكثر صحة (كان له الفضل فى الاسهام فيها بأصالة) . وهكذا يقول بوجــود خمس مراحل فى التاريخ الفكرى للبشرية [1] ويشرع فى توضيح نمــو الترشيد rationality فى كل مجالات الفكر ، رافضا مقابلة كونت الساذجة بين اللاهوت والميتافيزيقا والعلوم . ويدين هوتهوس لكونت بمنهج دراسة النمو فى بعض مجالات النشــاط الاجتماعى خلال التاريخ البشرى ككل ، وليس نمو مجتمعات معينة أو أنماط معينة من المجتمعات . ولم يحاول هوبهوس وضــع تصنيف منهجى للمجتمعات اللهم بالنسبة للمجتمعات البدائية . كما لم يحاول القيام بدراســة مفصلة لعملية معينة من عمليات التغير الاجتماعى . والنقد الرئيسى الذى يمكن أن يوجه الى اتجاهــه السوسيولوجى هو ذلك الذى وجهه دوركيم الى كونت ، ألا وهو أنه يتكلم عن شىء مجرد هو الانسانية ، لا عن مجتمعات واقعية ملموسة .

وقد أخذ هوبهوس عن سبنسر فكرة التطور الاجتماعى أو النمــو الاجتماعى كعملية زيادة الحجم ، والتعقد والتباين الداخلى . وهــكذا نجد أن مفهومه عن التغير الاجتماعى هو أن تطور العقل يؤدى الى تطور

---

(١) هذه المراحل هى :

(أ) البدايات الأولى للتفكير السليم فى مجتمعــات ما قبــل القراءة والكتابــة .

(ب) العلم البدائى فى الشرق القــديم (كما فى بابل ومصر القديمة والصين القديمــة) .

(جـ) مرحلة التأمل فى الشرق التالية على ذلك (ابتداء من القرن الثامن وحتى القرن الخامس قبل الميلاد ، فى الصين ، وفلسطين ، والهند) .

(د) مرحلة التفكير النقدى والمنهجى فى اليونان .

(هـ) نمو التفكير العلمى الحديث ابتداء من القرن السادس عشر تقريبا .

اجتماعى (مقوما بالمعايير المذكورة) وأنه يمكن اعتبار هذا التطور تقدميا دائما ، طالما أن تطور العقل ينطوى على تطور الأفكار الأخلاقية تجـاه المثل الأعلى لأخلاق رشيدة من شأنه أن يؤدى الى تغير النظم الاجتماعية الرئيسية •

أما نظرية ماركس فى التغير الاجتماعى فتفرد مكانة خاصة لعنصرين فى الحياة الاجتماعية : نمو التكنولوجيا (القوى المنتجة) ، والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية • وترى النظرية ـ باختصار ـ أنه يقابل كل مرحلة معينة من مراحل تطور القوى المنتجة أسلوب معين فى الانتاج ونسق معين ، تعمل الطبقة المسيطرة على تثبيته للعلاقات الطبقية وتدعيمه • غير أن التطور المستمر فى القوى المنتجة يغير فى العلاقات بين الطبقات ، وكذلك فى ظروف الصراع الدائر بينها • وفى الوقت المناسب تصبح الطبقة التى كانت مسودة فى ذلك الحين قادرة على الاطاحة بأسلوب الانتـاج القائم وبنسق العلاقات الاجتماعية ، وعلى اقامة نظام اجتماعى جديد [١] • على أن دور ماركس نفسه قد اقتصر على وضع الخطوط العريضة لنظريته الخاصـة فى التغير التاريخى واستخدامها « كخيط يهتدى به » (أو كما نقول اليوم كفرض) فى البحث ، وكرس جهده لتحليل أحـد الظواهر التاريخية المركبة وهى ظهور الرأسمالية الحديثة ونموها • ولم يضف سوى قلة من الماركسيين الذين جاءوا فيما بعد شيئا يذكر الى أفكار ماركس ، بل عملوا على العكس على حجب الجانب الأكبر من أهمية الاسهامات التى قدمها ماركس لعلم الاجتماع من خلال تبسيط الأفكار لتكـوين عقيدة دوجماطيقية (قاطعة) بسيطة • ومن بين هذه الاسهامات مفهومه عن علم الاجتماع كعلم نقدى مما يمكن أن يؤدى الى كشف النقاب عن التناقضات

---

(١) « تدخل قوى الانتاج المادية فى المجتمع عند مرحلة معينة من مراحل تطورها فى صراع مع علاقات الانتـاج القائمة ، أو مع علاقات الملكية التى كانت مؤثرة فيها من قبل ، وهو ليس سوى تعبير قانونى عن نفس الشىء • وتتحول هذه العلاقات الى قيود على أشكال تطور قوى الانتـاج وهنا تحدث مرحلة الثورة الاجتماعية » انظر مقدمة كتاب :
Karl Marx, A Contribution to the Critique of Political Economy (1859).

والامكانيات الكامنة فى كل شكل قائم فعلا من أشكال المجتمع ، وكذلك تقديم نموذج واضح لمنهج تاريخى سوسيولوجى من خلال تحليل الصور الأولى للرأسمالية لم يسبقه اليه أى مفكر اجتماعى آخر • واذا نظرنا الى نظرية ماركس فى التاريخ — كفرض علمى ، أو اطار تصورى — فانها يمكن أن تتعرض للنقد ، وخاصة أنها أكثر ما تكون انطباقا وافادة عندما يطبقها ماركس نفسه فى دراسة الرأسمالية (رغم أنها تتطلب هنا أيضا بعض التحديد) ، وأنها تصبح أقل فائدة فى دراسة فترات تاريخية أخرى وتحولات اجتماعية أخرى • ومن الجدير بالملاحظة هنا أنه على الرغم من أن المؤرخين الماركسيين الذين جاءوا فيما بعد قد درسوا التحول من الاقطاع الى الرأسمالية وهم مسلمين تسليما كاملا بهذا ، لم نجد تحليلا ماركسيا واحدا جادا لنشأة الاقطاع نفسه ، أو لبعض المجتمعات الأخرى •

وقد كان للنظريات الخطية التى ناقشناها هنا فضل كبير فى أنها أوضحت — بصورة أو بأخرى — عددا من التغيرات التراكمية الهامة فى التاريخ الاجتماعى للانسان ؛ كنمو المعرفة ، وتزايد حجم المجتمعات ودرجة تعقدها ، والحركة المتزايدة فى العصور الحديثة نحو المساواة والسياسة الاجتماعية • فقد أدركت كل تلك النظريات الأهمية الخاصة للتغيرات التى حدثت فى أوروبا ابتداء من القرن السابع عشر ، والتى أثرت بالتالى فيما بعد على الحياة الاجتماعية للانسان فى العالم أجمع ، وأثرت أيضا على تطور العلم الحديث والصناعة الحديثة • وتصور النظريات الدائرية فى التغير الاجتماعى نواحى أخرى من التاريخ الانسانى ، ولكنها تتجاهل هذه الحقائق الأساسية • وقد قدم باريتو Pareto فى كتابه « **العقل والمجتمع** » [١] The Mind and Society فى ثنايا عرضه لنظريته فى « دورة الصفوة » تفسيرا للتاريخ مؤداه ؛ أن التغير الاجتماعى ينشأ نتيجة للصراع بين جماعات من أجل الحصول على القوة السياسية ،

---

(١) صدرت الترجمة الانجليزية فى اربعة مجلدات فى نيويورك ١٩٣٥ •

وأن هناك فترات متعاقبة من الحكم القاسى على يد طبقة الصفوة المنتصرة حديثا ، ثم فترة حكم انسانى معتدل على يد طبقة الصفوة الآخذة فى التدهور • وترتكز النظرية على افتراض وجود فروق بيولوجية بين الجماعات الموجودة فى المجتمع (مستندة الى النظريات العنصرية التى نجدها عند آمون Ammon وغيره) ، ثم يدعمها بشواهد تاريخية قليلة • على أن باريتو لم يدرس بجدية سوى حالة واحدة من حالات دورة الصفوة ، هى تلك التى عرفتها روما القديمة • كما أن مفهومه عن التغير السياسى يتجاهل كلية نمو نظم الحكم الديمقراطية فى العصور الحديثة (التى يمقتها بصفة خاصة) [1] • نأتى الى عصور أحدث فنجد سوروكين Sorokin وتوينبى Toynbee يقدمان نظريات تتصف ببعض السمات الدائرية • وبينما يسلم سوروكين فى كتابه « **الديناميات الاجتماعية والثقافية** » (أربعة مجلدات ، نيويورك ١٩٣٧) بوجود عمليات خطية يلفت الانتباه الى عمليات دائرية أخرى تحدث فى المجتمعات الانسانية كما يميز بين ثلاثة أنماط ثقافية عامة هى : التماثل Ideational والمثالى Idealist ، والحسى Sensate التى يرى أنها تتابع الواحد بعد الآخر على شكل دورات فى تاريخ المجتمعات • وقد عرض توينبى نظريته فى كتابه « **دراسة للتاريخ** » (عشرة مجلدات ، لندن ١٩٣٤ ــ ١٩٥٤) • ويتضح الطابع الدائرى لهذه النظرية فى مفهوم نمو الحضارات ، وجمودها واضمحلالها • على أنه من الممكن ــ اذا أمعنا النظر فى الجوهر ــ اعتبارها نظرية خطية • اذ يرى توينبى أن الحضارات المختلفة ، « رغم أنها

---

(١) عرضت الخطوط العامة لنظرية باريتو ــ عرضا ليس منهجيا تماما ــ فى :

James Burnham, The Machiavellians (London 1943).

وقد وجهت اليها انتقادات مقنعة قوية عند :

F. Borkenau, Pareto (London 1936).

قارن كذلك عرضا اضافيا لآراء باريتو وللانتقادات التى وجهت اليه عند نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، ترجمة الدكاترة محمود عوده ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ ص ص ٢٥٩ ــ ٢٧٤ • (المترجمة)

بالتأكيد كيانات فردية مستقلة ، الا أنها جميعا ممثلة لنوع واحـــد من المخلوقات ، وتقوم بمهمة واحدة ... » [١] . وعملية نمو الحضارات واضمحلالها ما هى الا وسيلة نقل لكشف دينى تقدمى أقصى غايتـــه « الاتحاد مع الآلة » . ونلاحظ على مؤلفات كل من سوروكين وتوينبى أن الحشـــد الهائل من المماثلات التاريخية وأسلوب ادعاء الحكمة والتنبؤ يؤثر على وضوح تحليل التغير التاريخى ، رغم كثرة التعليقات الموضحة للعديد من التحولات الاجتماعية الخاصـــة . فهى تمثل عودة الى فلسفة التاريخ بطريقة فذة (*) .

ونلاحظ على النظريات التى عرضنا لها هنا ـــ ســـواء كانت خطية أو دائرية ـــ أنها لم تكرس الا اهتماما ضئيلا نسبيا لتحليل عمليات معينة من عمليات التغير الاجتماعى ، أو تحديد العوامل التى ينطوى عليها التغير الاجتماعى . والاستثناءات البارزة فى هذا الصدد هما ماركس وسوروكين . فقد درس الأول بالتفصيل عملية تحول تاريخى واحدة ، وناقش الثانى الى هذا التحليل الأكثر تفصيلا .

---

(١) المرجع السابق ، المجلد الثالث ، ص ٣٩٠ .

(*) عن هذه النظريات جميعا وغيرها انظر تحليلا نقديا مستفيضا عند : تيماشيف ، المرجع السابق ، الفصل الثامن عشر « علم الاجتماع التاريخى » (ص ص ٤٥٧ ـــ ٤٨٨) . (المترجمة)

الفصل السابع

عوامل التغير الاجتماعى (*)

اعتبارات عامة :

يتطلب التحليل السوسيولوجى للتغـير الاجتماعى فى المقام الأول صيغة أكثر دقة وأقل طموحا من النظريات العامة التى ناقشناها فى الفصل السابق ، يمكن أن تتيح صياغة المشكلات وعرض النتائج عرضا منهجيا منظما • وقد وضع كل من جيرث Gerth وميلز Mills فى كتابهما « **الشخصية والبناء الاجتماعى** » (**) صيغة من هذا النوع تعتمد على توجيه ست أسئلة رئيسية عن التغير الاجتماعى هى كما يلى : (١) ما هو الشىء الذى يتغير ؟ (٢) كيف يتغير ؟ (٣) ما هو اتجاه التغير ؟ (٤) ما هو معدل التغير ؟ (٥) لماذا حدث التغير ولماذا كان ممكنا ؟ (٦) ما هى العوامل الرئيسية فى التغير الاجتماعى ؟ •

وأعتقد أنه من المفيد فى معالجتنا للسؤال الأول أن نعرف التغير الاجتماعى بأنه تغير فى البناء الاجتماعى (متضمنا هنا التغيرات فى حجم المجتمع) أو فى نظم اجتماعية خاصة أو فى العلاقات بين النظم • فاذا التزمنا بالتمييز الذى اقترحناه فيما سبق بين البناء الاجتماعى والثقافى ، فانه يمكننا أن نستخدم مصطلح « التغير الثقافى » Cpltural Change للدلالة على صور التنوع التى تطرأ على الظواهر الثقافية كالمعرفة والافكار ، والفن ، والمذاهب الدينية والأخلاقية ••• الخ • ومن الواضح

(*) ترجمت هذا الفصل الدكتورة علياء شكرى عن المصدر التالى :
Bottomore, T. B., Sociology, Unwin Univ. Books, London, 1965, pp. 276 - 286.

(**) Character and Social Structure.

أن التغيرات الاجتماعية والثقافية ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا فى كثير من الحالات • من هذا مثلا ذلك الارتباط الوثيق بين نمو العلم الحديث والتغيرات التى حدثت فى البناء الاقتصادى • ولو أن العلاقة بينهما يمكن أن تكون أقل ارتباطا كما يبدو ذلك وتغير الموضات أو تغير أشـــكال الابداع الفنى المختلفة •

أما الأسئلة الخاصة بكيفية حدوث التغير واتجاهه وسرعته فتتطلب وصفا تاريخيا وتفسيرا ، كما تتوفر لدينا على سبيل المثال فى البيانات المختلفة عن التغيرات السكانية والتقسيم المتزايد للعمـــل فى المجتمعات الصناعية ، وكذلك عن التغيرات التى طرأت على الطابع العام للأسرة الغربية الحديثة ، وما الى ذلك • ولا يتحتم أن تنطوى مناقشة موضوع اتجاه التغير على أية أحكام قيمية • فتناقص حجم الأسرة ونمو حجم الوحدات الاقتصادية كلها أمـــور ذات واقع تاريخى • غير أنه يمكن فى أخرى أن يكون اتجاه التغير أقل وضوحا ، ومن ثم يصبح نهبا لتفسيرات متباينة • وبالاضافة الى ذلك يمكن أن يكون التغير واحـــدا من الموضوعات التى يصعب توفر البعد الكافى لملاحظتها ، مثل تزايد معدل الطلاق واتساع نطاق « البيروقراطية » • وعندئذ تصبح مناقشات اتجاه التغير أميـــل الى أن تتضمن تقييمات أخلاقية • وأخيرا حينما يتعلق الموضوع بتحليل التغيرات فى البناء الكلى لمجتمع ما ، ســـواء كان مجتمعا تاريخيا أو حديثا ، فان الخط الفاصل بين التحليل النقدى والتعبير عن فلسفة اجتماعية معينة يصبح غامضا وغير مؤكد • وقد لا يكون له أســـاس راسخ على الاطلاق • ويبدو ذلك واضحا اذا أخذنا فى اعتبارنا البيانات المتعارضـــة أشد التعارض عن التغيرات التى تحدث فى دولة الرفاهية البريطانية أو فى الاتحـــاد السوفييتى بعد وفاة ستالين أو فى الهند منذ الحصول على الاستقلال • ثم يبدو هذا الغموض وعدم اليقين بدرجة أكبر فيما يتعلقبالبيانات المتعارضة التى قدمها كارل ماركس وماكس فيبر عن اتجاهات التغير الرئيسية فى المجتمعات الرأسمالية •

والواقع أن موضوع معدل التغير كان مثار اهتمام علماء الاجتماع دائما • ومن الطبيعى أن نشير هنا الى الاسراع فى عملية التغير الاجتماعى والثقافى فى العصر الحـديث • ويعتبر وليام أوجبرن من أوائل الذين درسـوا هذه الظاهرة بطريقة علمية منظمة ، وقاموا بدراسات كمية لمعدل التبادل وخاصـة فى مجال الاختراعات التكنولوجية [١] • كما ركز الاهتمام على التباين الموجـود بين معدلات التغير فى قطاعات مختلفة من الحيـاة الاجتماعية • وينصب فرض « الهوة الثقافية Cultural lag على عـدم التناغم الواضح بين النمو التكنولوجى السريع وبين التحول البطىء فى النظم العائلية والسياسية وغيرها من النظم وكذلك فى المعتقدات التقليدية والاتجاهات (دينية وأخلاقية ••• الخ) • وقد أصبحت هـذه المشكلات فى السنوات الأخيرة موضع اهتمام أكبر كقضية رئيسية فى السياسـة العالمية وخاصـة بدخول التصنيع فى الدول النامية [٢] • وقد سـارت البحوث حـول هذا الموضوع فى خطين رئيسيين : أولهما الدراسـات السوسيولوجية للتغيرات فى البناء الاجتماعى والثقافة الناتجة عن التصنيع وعدم التناغم البنائى فى المرحلة الانتقالية • وثانيهما : الدراسات النفسية لتكيف الأفراد مـع التغيرات الاجتماعية السريعة [٣] • وسنناقش فى

---

(١) Social Change ,op. cit.), Part II. See also W. F. Ogburn and M. F. Nimkoff, A Handbook of Sociology, Ch. 26, and S. C. Gilfillan, Sociology of Inventions (Chicago 1935).

(٢) يمكن ان نجد عرضا طيبا ومناقشة للبحوث التى اجريت حـول هذه المشكلات فى افريقيا ، فى مؤلف بعنوان « الآثار الاجتماعية للتصنيع والتحضر فى افريقيا جنوب الصحراء » .

«Social Implications of Industrialization and Urbanization in Africa South of Sahara».

(صدر عن اليونسكو عام ١٩٥٦ ، اعداد المعهد الافريقى الدولى فى لندن) . اما بالنسبة للبلاد الآسيوية فانظر الدراسات الخمس المجموعة فى « الآثـار الاجتماعية للتصنيع والتحضر » (صادر عن مركز بحوث الآثار الاجتماعيـة للتصنيع فى جنوب آسيا التابع لليونسكو ، كلكتا ، ١٩٥٦) . اما اذا اردت دراسة اكثر عمومية وشمولا فارجع الى هوزليتز « الجوانب السوسيولوجية للتنمية » .

Hoselitz, Sociological Aspects of Development (Chicago 1960).

(٣) On the latter, see Margaret Mead (ed.), Cultural Patterns and Technical Change (UNESCO 1953), especially Part V, pp. 279 - 303.

الأجزاء التالية بعض هــذه المشكلات بصورتها التى ظهرت بها فى الهند • كما درست هذه المشكلات فى المجتمعات الصناعية فى سياق التغيرات فى الأسرة ، وفى التدرج الطبقى الاجتماعى ، وفى الأفكار الدينية والأخلاقية ، وكذلك فى القانون وما اليها • كمــا درست من ناحية الاتجاهات ؛ أى استجابات الفرد للتغير الاجتماعى ودلالات هذا التغير ونتائجه فى ميادين التعليم والجريمة وانحراف الأحداث والصحة العقلية •

وترتبط مشكلة البحث فى أسباب أو امكانية حدوث التغير ارتباطا وثيقا بالمشكلة العامة لعوامل التغير الاجتماعى ، وتثير قضايا معقدة أشد التعقيد فيما يتصل بالعلية الاجتماعية • وقد استعرض كل من جيرث وميلز بعض هذه القضايا بايجاز • من ذلك مثلا دور الأفراد فى احداث التغير الاجتماعى ، وتأثير كل من والعوامل المــادية والأفكار • وقد قام موريس جينزبرج M. Ginsberg فى مقال حديث بتحليل علمى منظم للعوامل التى استشهد تها كتاب مختلفون للتفسير الاجتماعى [١] وهى : (١) الرغبات والقرارات الواعية للأفراد (متمثلة فى نمو نسق الأسرة الصغــيرة فى البلاد الغربية) • (٢) أفعال الفرد المتأثرة بالظروف المتغيرة (مثال ذلك انهيار الفلاح نصف الحر فى النظام الاقطاعى والمعروف باسم Villein فى انجلترا فى الفترة من ١٣٠٠ الى ١٥٠٠) • (٣) التغــيرات البنائية والتوترات البنائية (ومن بينها التناقضات بين قوى الانتــاج وعلاقات الانتاج كما أكدها الماركسيون) • (٤) المؤثرات الخارجية (كالاتصــال الثقافى أو الغزو الثقافى) • (٥) الأفراد المتميزون أو جماعات المتميزين • (٦) التقاء أو انتظام عناصر من مصادر مختلفة عند نقطة معينة (كمــا يحدث فى الثورات مثلا) • (٧) الأحداث العنيفة (على سبيل المثال الغزو النورماندى فى انجلترا وظهور الطاعون فى القرن الرابــع عشر والغزو البريطانى للهند) • (٨) ظهور هدف مشترك • ويتضمن الجزء الختامى

---

(1) M. Ginsberg «Social Change» British Journal of Sociology. IX. (3), September 1958.

من المقال مناقشة مفيدة لمفهوم السبب فى العلوم الاجتماعية وارتباطه بالغائية .

وكثيرا ما أهمل علم الاجتماع الحديث ـ تحت تأثير الاتجاه الوظيفى ـ دراسة مشكلات التغير ، أو عرضها بصورة توحى بأن التغير الاجتماعى شىء استثنائى عارض . وكان التركيز دائما على ثبات واستقرار الانساق الاجتماعية ، وانساق القيم والمعتقدات وكذلك على الاجماع أكثر منه على التنوع والصراع الموجود داخل كل مجتمع . غير أنه من الواضح أن جميع المجتمعات على السواء تتميز بظاهرتى الاستمرار والتغير ، وأن الوظيفة الرئيسية للتحليل السوسيولوجى هى الكشف عن كيفية ارتباط هاتين العمليتين ببعضهما . ومن العوامل التى تدعم الاستمرار وسائل الضبط الاجتماعى التى عرضنا لها فيما سبق ، وخاصة التعليم الرسمى وغير الرسمى الذى ينقل الارث الاجتماعى المتراكم الى الأجيال الجديدة . وهناك من الناحية الأخرى بعض الظروف العامة التى تؤدى الى التغير الاجتماعى ، وأهمها نمو المعرفة وحدوث الصراع الاجتماعى . ولم يكن نمو المعرفة مضطردا دائما ولم يتم بنفس المعدل فى كل المجتمعات ، وان كان النمو قد ظل مضطردا الى حد ما منذ القرن السابع عشر ، بحيث أثر فى جميع المجتمعات . ولقد أصبح هذا النمو عاملا رئيسيا من عوامل التغير الاجتماعى الحديث . أما عن الصراع كعامل من عوامل التغير فيمكن أن ننظر اليه من نواحى مختلفة . ففى المقام الأول لعب الصراع بين المجتمعات دورا تاريخيا هاما فى خلق وحدات اجتماعية كبرى (كما يسلم كل من كونت وسبنسر) ؛ وفى تأكيد أو تدعيم التدرج الاجتماعى (كما أكد ذلك أوبنهايمر Oppenheimer فى نشر المستحدثات (التجديدات) الاجتماعية والثقافية . وقد أثر الصراع الدولى فى العصر الحديث تأثيرا عميقا فى البناء الاقتصادى والسياسى للمجتمعات ، وفى السياسات الاجتماعية ، ومعايير السلوك . غير أننا نجد أن هذه الظواهر نادرا ما حظيت بالاهتمام الذى تستحقه من جانب الدارسين . ونجد ثانيا أن

الصراع بين الجماعات المختلفة فى داخل المجتمع مازال مصدرا رئيسيا للتجديد والتغير • ويندرج تحت هذا النوع من الصراع تلك الصراعات الموجودة بين الطبقات الاجتماعية ؛ بالرغم من أنه لم يكن لها ذلك التأثير الشامل والحاسم الذى يضفيه عليها الماركسيون • وقد كانت تلك الصراعات عاملا هاما من عوامل التغير وخاصة فى العصر الحديث • فقد كان قيام الديموقراطية السياسية فى أوربا الغربية الى حد كبير نتيجة للصراعات الطبقية • ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا ثالثا وأخيرا الصراع بين الأجيال الذى لم يستحوذ من علماء الاجتماع الا على أقل مما يستأهل بكثير جدا [١] • ويتدعم الاستمرار فى المجتمع من خلال نقل التراث الاجتماعى الى الأجيال الجديدة بواسطة عملية التنشئة الاجتماعية • ولن يحدث أن تكون التنشئة الاجتماعية كاملة الى الحد الذى تعيش فيه الأجيال الجديدة مرة أخرى نفس حياة أسلافهم الاجتماعية • اذ هناك دائما بعض النقد الذى يوجهونه ، بل والرفض لبعض التقاليد • وهناك أيضا عملية التجديد المستمرة • وتصبح هذه السمات أكثر وضوحا فى المجتمعات الحديثة بسبب التغيرات العامة التى تحدث فى البيئة وبسبب تنوع المعايير والقيم التى تسمح للجيل الجديد أن يختار — الى حد ما — بين أساليب حياة مختلفة أو الربط على نحو جديد بين عناصر ثقافية مختلفة فى أنماط جديدة • ومن السمات الهامة المميزة للمجتمعات الصناعية أن تظهر ثقافة الشباب المتميزة وحركات الشباب المنظمة التى تعارض بطرق مختلفة القيم الثقافية للأجيال السالفة • كما تبرز ظواهر صراع الأجيال واضحة بشكل خاص فى المجتمعات — مثل الهند — التى تمر بتغير بالغ السرعة

---

(١) كان كارل مانهايم واحدا من علماء الاجتماع القلائل الذين ادركوا اهمية هذا الموضوع . وقد ناقشه فى مقال مفيد بعنوان « مشكلة الأجيال » The Problem of Generations عام ١٩٢٧) . وقد نشر هذا المقال باللغة الانجليزية فى كتاب كارل مانهايم المعنون « مقالات فى علم الاجتماع المعرفى (لندن ١٩٥٢) Essays on the Sociology of Knowledge
وقد تناول ايزنشتات S. N. Eisenstadt نفس الموضوع على أساس مقارن أوسع فى كتابه « من جيل الى جيل » From Generation to Generation (لندن ١٩٥٥) .

من نمط اجتماعى الى نمط آخر • وسنتناول ذلك بمزيد من الدقـــة فى الجزء التالى :

وتميل النظريات السابقة فى التغـــير الاجتماعى التى ناقشناها فى الفصـــل السابق الى تأكيد عامل واحد كسبب للتغير • الا أنها لم تكن فى غالبها نظريات واحدية monocausal (كما تصنف فى بعض الأحيان) • كما لم تكن أيضا حتمية بأى معنى دقيق لهذه الكلمة ، على خلاف مازعم بعض النقاد المحدثين [1] • حقيقة أن كلا من كونت وسبنسر قد آمـــن بقانون شبه مطلق فى التطور (نمـــو العقل من وجهة نظر كونت وعملية تباين كونية (شاملة) من وجهة نظر سبنسر) ، ولكنهما فى دراستهما للتغير الاجتماعى الفعلى أخذا فى اعتبارهما عوامل كثيرة ، ليس آخرها أفعال الأفراد الواعية الهادفة • فسبنسر مثلا لم يقصر دراساته علـــى ظاهرة التباين داخل المجتمعات ؛ وانمـــا أخـــذ فى اعتباره أيضا آثـــار المعرفة والحرب وغيرها من العوامـــل التى تؤدى الى التغير الاجتماعى • وكثيرا ما رمى النقاد نظرية ماركس أنها واحـــدية وحتمية • ولكن وصفه للعلية الاجتماعية يعتبر فى الحقيقة غاية فى التعقيد ، متضمنا ظـــواهر متميزة ولكنها مترابطة منها : قوى الانتاج ، وعلاقات الانتاج ، والعلاقات الطبقيـــة ، والايديولوجيات • وبالاضافة الى ذلك فان مذهبه فى العمل السياسى على تمام النقيض من أى نظرية حتمية • وقد أقرت النظريات التى جاءت فيما بعد مثل نظريات هوبهوس وتوينبى وسوروكين ، تعقد العلية الاجتماعية اقرارا كاملا • وقد درس سوروكين بالذات بعنايـــة فائقة العوامل المختلفة الداخلة فى التغير الاجتماعى •

غير أن هذه النظريات تثير عددا من المشاكل المتشعبة التى تستحق أن نتوقف عندها هنا • أولها هـــو ما يخص الدور الذى يلعبه الأفراد والذى تلعبه « القوى الاجتماعية » فى أحداث التغير • ويجب أن نلاحظ

---

(1) For example. Isaiah Berlin. Historical Inevitability.

أن مصطلح « القوى الاجتماعية » لا يشير الى أى قوى متميزة كلية عن أفعال الأفراد ، وانما يشير الى قيم واتجاهات تعتبر نتاجا لتفاعل الأفراد ، ولكنها مع ذلك تواجه أى فرد وحده كشىء خارجى بالنسبة له وغير ممكن نسبيا التأثير عليه بما يوجهه اليه هذا الفرد من نقد أو مؤثرات أخرى . وهكذا تدخل الأفعال الارادية الصادرة عن الأفراد كعناصر مكونة « للقوى الاجتماعية » . وبهذا المعنى يمكن القول ان أى فرد يمكن أن يسهم فى التغير الاجتماعى ، على الرغم من أن نتائج هذا السلوك الفردى لا يمكن أن تتضح بصورة ملموسة الا عندما يبدأ عدد من الأفراد فى التصرف بطريقة جديدة (مثلا : فى تحديد حجم أسرهم) . وهناك مشكلة أخرى هى تأثير الأفراد البارزين . فيغالى البعض من ناحية ؛ اذ يعتقدون أن كل التغيرات الاجتماعية والثقافية الهامة لا تتحقق الا على يد أفراد عباقرة . ويغالى البعض على الطرف الآخر اذ يعتقدون ان هؤلاء العباقرة يدينون بكل تأثيرهم لأنهم يجسدون أو يمثلون القوى الاجتماعية أو الاتجاهات السائدة فى عصرهم [1] . ولا يمكن أن نقبل أيا من هذه الآراء المتطرفة . ذلك أن تأثير هؤلاء الأفراد البارزين يمكن أن يكون فى بعض مجالات الحياة الاجتماعية أكبر من مجالات غيرها . من ذلك مثلا أن يكون تأثيرهم أكبر فى مجال الابداع الفنى منه فى مجال التكنولوجيا [2] . الا أنه من التعسف أن ننكر التأثير الشخصى لعظماء

---

(١) عرض ج . بليخانوف الرأى الأخير فى صورته الماركسية عرضا ممتازا فى كتابه « دور الفرد فى التاريخ » .

G. Plekhanov, The Role of the Individual in History.

(٢) على الرغم من انه من الواضح ان هناك آثارا اجتماعية على الفن ، انظر ماكس فيبر : « مقال عن تطور الموسيقى الغربية » .

M. Weber, Essay on the Development of Western Music.

نشرت فى كتابه الكبير « الاقتصاد والمجتمع » .Wirtschaft und Gesellschaft

وكذلك أرنولد هاوزر « التاريخ الاجتماعى للفن » .

A. Hauser, The Social History of Art.

(وقد نشرت ترجمة عربية كاملة للكتاب الأخير انجزها الدكتور فؤاد زكريا فى مجلدين بعنوان : الفن والمجتمع عبر التاريخ ، الجزء الأول ، القاهرة ، =

الرجال فى مجال الأخلاق والدين والسياسة والاقتصاد • ونجد فى العالم الحديث أن لينين فى روسيا والمهاتما غاندى فى الهند قد أثرا تأثيرا عميقا فى بلادهما • ومن الصعب أن نزعم أن عالمنا كان يمكن أن يصبح على ما هو عليه الآن ، لو أنهما لم يعيشا ولم يتصرفا بالصورة التى تصرفا بها • ومن الطبيعى أنهم قد تأثروا كذلك ببيئتهم وأنهم قد استمدوا سلطتهم جزئيا من قدرتهم على صياغة وتفسير المطامح الكامنة لدى اعداد كبيرة من الشعب • ولكنهم كانوا أيضا قادة ملهمين (يتمتعون بقوة كارزمية Charismatic) طبقا لمفهوم ماكس فيبر (*) • هم يدينون بمراكزهم القيادية لصفاتهم الشخصية ، ويفرضون على الأحداث طابع قيمهم الخاصة •

وهناك نقطة رئيسية ثانية دار حولها الجدل تتعلق بدور العوامل المادية والأفكار فى التغير الاجتماعى ، ويقال ان الماركسيين ينسبون تأثيرا أساسيا للعوامل المادية ـ الاقتصادية • بينما يرجع آخرون (مثل كونت وهوبهوس) الدور الأساسى لتطور الفكر • ومن أبرز نقاط الخلاف

= ١٩٦٨ ، الجزء الثانى القاهرة ١٩٧٠ عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . وانظر بالعربية ايضا ، محمد الجوهرى وآخرين ، ميادين علم الاجتماع ، دار المعارف ، ١٩٧٠ « علم اجتماع الفن » ص ص ٤٤٩ ـ ٤٧٠) .
(المترجمة)

(*) الكاريزما Charisma كلمة يونانية الاصل ، تعنى موهبة خاصة أو قوة خارقة يزود بها بعض الأشخاص الذين يعرفون عندئذ باسم Charismatic Leaders وبفضل هذه القوة يستطيع هؤلاء الأشخاص الأفذاذ تحقيق اعمال خارقة او معجزات . ومن ثم يستطيع القائد الكاريزماتى ان يلقى الرهبة ـ ان لم يكن الجلال ـ فى قلوب رعاياه ، بفضل حدسه الذى لا يخطىء أو مناعته الخاصة . ويرجع الفضل فى ادخال مصطلح (القيادة الكاريزماتية) الى المؤلفات السوسيولوجية الى عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر ونظريته الشهيرة فى السلطة الكاريزماتية (الملهمة) .

قارن : Joseph. S. Roucek, «The Changing Concepts of Charismatic Leadership», in : Joachim Matthes (ed.), Theoretishe Aspeke der Religionssoiologie H. Kohn, 1967, pp. 87 - 100.

(المترجمة)

التى ثارت فى علم الاجتماع ، ذلك الخلاف بين كارل ماركس وماكس فيبر حـــول أصول الرأسمالية الحديثة • وقد أدلى فيبر فيها برأى مؤداه ؛ الأفكار ليست هى التى تحـــكم العالم ، وانما الأفكار أو المذاهب يمكن فى بعض المواقف التاريخية أن تؤثر بشكل مستقل عن العوامل الأخرى فى اتجاه التغير الاجتماعى • ومن الخطأ على أى حال أن نقابل هكذا ببساطة بين العوامل المادية والأفكار • ذلك أن العوامل المادية فى ذاتها لا تدخل فى السلوك الاجتماعى • وتعتبر « قوى الانتاج » فى نظرية ماركس عن التغير عنصرا حاسما ، ولكنها ليست أكثر من تطبيقات للعلم والتكنولوجيا • ولا يمكن أن يعنى تطور القوى المنتجة ســـوى نمو المعرفة العلمية والفنية ونمو الأفكار أيضا • والمشكلة الرئيسية هى تحديد الطريقة التى يؤثر بها نمو أو جمود المعرفة والفكر على المجتمع ســـواء من خلال تأثير العلم على العلاقات الاقتصادية والبناء الطبقى أو عن طريق مذاهب دينية أو أخلاقية أو فلسفية جديدة ، وكيف أن هذه الخيوط المختلفة ترتبط مـــع بعضها فى تتابع معين للتغير •

وقد تناولت الدراسات السوسيولوجية الحديثة مشكلات أكثر تحديدا ، ولم تستهدف تقديم أى تفسير عام للتغير • ولعلها ذهبت فى هذا الصـــدد الى أبعد مما يجب فى عدم الاستعانة بأى اطار تصورى يمكن أن يسمح بدراسات مقارنة وتفسيرات جزئية • وسنبحث فى مكان آخر من هـــذا الفصل فيما اذا كان من الممكن اجراء عملية تنميط للتغير الاجتماعى يمكن أن تسد هذه الثغرة •

التغير الاجتماعى فى الهند :

هناك عنصران لعبا دورا حاسما فى احداث التغير الاجتماعى فى الهند • أولا : العلوم والتكنولوجيا الغربية ، وثانيا : التخطيط الاجتماعى • وقد اتضح تأثير التكنولوجيا فى مجالات مختلفة من الحياة الاجتماعية • وقد أدى تحسن ظروف المعيشة والرعاية الطبية الى خفض معدل الوفيات ،

الأمر الذى يعتبر مسئولا الى حد كبير عن النمو السريع فى سكان الهند • كذلك أدى ادخال الصناعة الرأسمالية الى احداث تغيرات فى نظام الملكية [١] وفى تقسيم العمل ، أدت الى خلق فئات وطبقات اجتماعية جديدة لعبت دورا هاما فى التطور السياسى فى الهند [٢] • وقد تتبعنا فى الفصول السابقة بعض آثار التصنيع على الأسرة المشتركة والملكية والقانون ونظام الطوائف • على أن التكنولوجيا لم تؤد فقط الى احداث تغيرات غير مباشرة عن طريق التحول التدريجى فى العلاقات الاقتصادية ؛ وانما خلقت التكنولوجيا والفكر العلمى الذى يعتبر دعامتها الأساسية نظرة جديدة الى العالم بدأت تتصارع مع الثقافة التقليدية • وعلاوة على ذلك فقد أدخل الحكم البريطانى الى الهند طائفة من الاختراعات التكنولوجية والاجتماعية (مثل نظام جديد للحكم والادارة ، واجراءات قضائية جديدة ، وبعض أشكال التعليم) • كما أدخل قيما ثقافية جديدة مثل النزعة الترشيدية Rationalism ، والمساواة ، والاشتراكية •

ويرتبط مفهوم « الهوة الثقافية » أعظم الارتباط بالهند • فقد أدى نمو الاقتصاد الرأسمالى الحديث الى ظهور بعض الحركات الاجتماعية التى رفضت الثقافة الهندية التقليدية ، وحركات أخرى شرعت فى اصلاحها وتحديثها • ولكن لم يحدث على أى حال أن استطاعت النظم الاجتماعية والقيم الثقافية الهندية المعاصرة أن تتكيف مع أسلوب الحياة فى المجتمع الصناعى ، سواء كان رسماليا أو اشتراكيا • فالأسرة المشتركة الكبيرة ليست نظاما مفيدا أو ضروريا فى مجتمع حديث حيث يحدث الحراك الفردى على نطاق واسع ، وحيث يصبح توفير خدمات الرفاهية مسئولية عامة

---

(١) أبرزها قيام ملكية فردية خاصة للأرض • وقد درست آثارها فى البنغال دراسة مستفيضة للغاية ، انظر :

S. Gopal, The Permanent Settlement in Bengal and Its Results (London 1949) and Ramkrishna Mukherjee, The Dynamics of a Rural Society (Berlin 1957), Ch. 1.

(2) See especially, A. R. Decai, Social Background of Indian Nationalism.

واقعة على عاتق الدولة • ولا يتفق نظام الطوائف مع الترشيد ، والحراك ، والمساواة بين البشر ، تلك الخصائص المميزة للمجتمع الديمقراطى • فمبدأ الطائفة فى الهند يتعارض دون شك مع أسس النظام السياسى ، ومـع النظام التعليمى ومع احتياجات الصناعة • الا أن الطائفة والأسرة المشتركة عناصر رئيسية فى الهندوكية ، ومن ثم فى الثقافة التقليدية ؛ وكلما ضعفا ضعفت معهما القيم الثقافية الموروثة • وقد تأثرت الهندوكية الشائعة نفسها تأثرا مباشرا بحركات الترشيد والعلمانية التى تصاحب نمو المجتمع الصناعى •

وقد بدت الضغوط التى ينطوى عليها هذا التحول ــ وستظل بادية لفترة أخرى ــ فى موقف المثقفين الهنود ، الذين كان عليهم أن يوفقوا بين المطالب المتعارضة لثقافتين مختلفتين • كما بدت هذه الضغوط فى الصراع بين الأجيال • ويكره كثير من شبان المثقفين الهنود قيود الطائفة المفروضة على الزواج ، ويعارضون الزيجات التى يرتبها لهم الكبار • وينفرون من السلطة التى يعطيها التدرج الهرمى الاجتماعى لكبار السن فى الأسرة • الا أننا نجــدهم فى الواقع العملى يقبلون عادة الصور التقليدية للسلوك مدفوعين بالولاء والمحبة للأسرة • وربما كان يدفعهم الى ذلك أيضا عدم تأكدهم من نتائج تصرفهم اذا ما اختاروا طريقا آخــر • وهناك أنواع أخرى من الصراعات بين الفئات والطبقات الاجتماعية • فالطائفة ــ كأى نظام للتدرج الاجتماعى ــ تنطوى على تفاوت اقتصادى وجماعات مصالح اقتصادية رغم أن هذه الجوانب كانت غامضة فى الماضى الى حد ما بسبب الدلالة الشعائرية لذلك النظام • وقد اتجهت الجماعات المتمتعة بالامتيازات فى ظروف التغير الاقتصادى الى مقاومة التجديدات التى يمكن أن تنتقص من مكانتها وامتيازاتها الاقتصادية • وتعتبر هذه الصراعات المختلفة من ناحية معينة مصدرا للتغير ، ولكنها يمكن كذلك أن تعوق التغير لفترة تطول أو تقصر ، بل وأن تحــدث جمــودا أو نكوصــا • انــه ليس قانونا سوسيولوجيا • انه من الممكن تصنيع كل مجتمع بنجاح ، رغم أن بحوث

علم الاجتماع يمكن أن تسهم بدور فعال فى ضمان نجاح عملية التصنيع وتقليل أعبائها المختلفة من توتر وسوء توجيه وآلام •

ويعمل التخطيط الاجتماعى فى الهند كما فى أى مكان آخر على تجاوز تلك الصراعات التى ذكرناها الى حد ما • وهو يمثل ذلك العامل فى التغير الاجتماعى الذى عرفه جينزبرج بأنه ظهور هدف عام مشترك • ويوجد الآن فى كل المجتمعات تقريبا نوع من التخطيط المركزى الاقتصادى والاجتماعى الذى يستهدف رفع المستوى الاجتماعى • ويختلف مدى التخطيط وصوره اختلافا بعيدا من مجمع الى آخر ، وأن تشابهت الأهداف والمضامين • وللمرة الأولى فى تاريخ البشرية تدخل الجماهير فى عملية تحول رشيد وعمدى لحياتها الاجتماعية ، بحيث أمكن الى حد ما تحقيق التغير الاجتماعى بواسطة سيطرة الانسان • وقد حدد الدستور الهندى الصادر عام ١٩٥٠ أهداف النظام السياسى الجديد بأنها اقامة العدالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وحرية الفكر وحرية التعبير والعقيدة والعبادة والمساواة فى المكانة الاجتماعية وتكافؤ الفرص والاخاء • وقد اعتبرت لجنة التخطيط الحكومية التى أنشئت فى نفس العام احدى الهيئات الرئيسية المسئولة عن تحقيق هذه الأهداف ، على الرغم من أن مجال عملها قد حدد بشكل ضيق الى حد ما بالاقتصار على المشكلات الاقتصادية • وقد قامت احدى الدراسات الحديثة الممتازة التى أجراها ديوب Dube [1] بحصر التغيرات التى تحققت بفضل أحد أوجه النشاط الرئيسية للجنة التخطيط وهو « برنامج تنمية المجتمع المحلى » (وكذلك هيئة توسيع الخدمات القومية الأقل تركيزا) • وتتناول دراسة ديوب بعض مقومات التغير التى كشفت عنها أوجه النشاط هذه • وقد أوضح ديوب فى دراسة تفصيلية لأحد المشروعات فى منطقة أوتار براديش Uttar Pradesh الذى شمل ١٥٣ قرية ، أن المستحدثات التكنولوجية بالمعنى الدقيق للكلمة ــ كالبذور المحسنة ، والأسمدة ، والسلالات الحيوانية

(1) S. C. Dube, India's Changing Villages (London 1958).

المحسنة وهكذا ــ قد لقيت من الناس قبولا بسرعة ، وخاصة عندما كانت النتائج تتضح فى فترة قصيرة ، مثل ارتفاع الأسعار النقدية للمحاصيل • أما المستحدثات التى كان لها بالفعل مضاعفات على البناء الاجتماعى أو القيم الثقافية ، أو حتى يحتمل أن يكون لها مثل هذه المضاعفات ، فكانت تلقى مقاومة من الناس • وهكذا نجد أن الأساليب الفنية الزراعية الجديدة وطرق الزراعة التعاونية ، ووسائل تحسين الصحة والتجديدات فى نظام التعليم ، كانت أقل اثارة لاهتمام الناس ، بل وتعرضت لمقاومتهم فى بعض الأحيان•ويقول ديوب فى ثنايا تقييمه للمشروع بصفة عامة : « لقد أدخلت هذه المشروعات بعض الأفكار التى سيظل أثرها باقيا لأمد طويل ، مهما بدت عليه من تواضع فالناس بطيئون وحذرون أشــد الحــذر فى تقبل المستحدثات ، ولكنهم يقومون فى الوقت نفسه ببعض التجارب ولكن على نطاق محدود ويراقبون نتائجها بحرص وعناية • ويمكن لبعض المستحدثات التى أوجدها المشروع فى مجال الزراعة والصحة القروية أن تؤكد وجودها وتعمق جذورها فى النهاية فى خلال عشر سنوات أو نحو ذلك ، رغم أنه يبدو أن الناس رفضتها أو تقبلتها اليوم على مضض • كما تبدو فى نفس الوقت دلائل تغير نفسى واضحة ، رغم أنه لا يمكن ارجاعها فى كل حالة الى المشروع أو ربطها به أصلا • وهناك تغير واضح فى مستوى توقــع الناس ، وبازالة الحواجز بينهم وبين الحــكومة تدريجيا يمكن أن نتوقع حدوث تقدم أساسى فى حياتهم •

ومع ذلك فيبدو أن المشروع المشار اليه هنا لم يساهم بدور كبير فى تدعيم أساليب التعاون التقليدية فى هذه المجتمعات المحلية [١] •

ويبين ديوب بوضوح أهمية الاتصال بين ممثلى الحكومة الذين يهدفون الى احداث التغير والقرويين الذين توجه اليهم هذه الأفكار • وتنطوى مشكلات الاتصال على عوامل مختلفة ، منها : تصور الناس لشخصية أولئك الذين يخلقون هذه الاتصالات ، وشــكل ومضمون الاتصالات نفسها ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥١ •

واستجابة الطرف المستقبل • ومن أهم هذه المشاكل دور العامل القروى المأجـور الـذى يلعب دورا حاسما ، ويمثل موضـوعا هاما للبحـوث السوسيولوجية [1] • وتطرح قضية شكل ومضمون وسـائل الاتصال مشكلة عامة هى مشكلة التوازن بين الاستمرار والتغير • فالاتصال يكون أكثر تأثيرا وفاعلية حينما يمكن ربطه بالمطامح القائمـة (كتحسين المستوى الاقتصادى مثلا) أو بالمعايير الثقافية التقليدية (مثل تحسين سلالات الماشية فى ضوء النظرة الدينية التقليدية الى الماشية) • وأخـيرا تتأثر استجابة القرويين الى حـد كبير بالصفوة المثقفة المحلية وقادة الرأى • ويتوقف احداث التغيير بشكل ناجح على ربطه بهؤلاء القادة (رسميين وغـير رسميين) واقناعهم هم فى المقام الأول بأن هـذا التغير أمـر مرغوب فيـه •

ويدلنا هذا الحديث عن التغير الاجتماعى فى الهند على الآثار العميقة للتغير الاقتصادى • فعملية التصنيع هى التى تلعب اليوم ــ كما حـدث فى أوروبا فى القرن التاسـع عشر ــ الدور الحاسم فى تشكيل البنـاء الاجتماعى والمعايير الثقافية • الا أنه يحدث فى كل مرحلة نوع من التفاعل بين عناصر الحياة الاجتماعية المختلفة • ولا يمكن لأى فرد أن يتنبأ بالشكل النهائى الذى ستتخذه المجتمعات الصناعية • فنجد فى الهند عددا مـن العمليات الواضحة المتميزة التى تحدث فى نفس الوقت • فهناك عمليـة تخطيط عمدى للنمو الصناعى ويصاحبها فى نفس الوقت تخطيط للاقتصاد الزراعى الذى مازال سائدا ومسيطرا على الاقتصاد الوطنى هناك • هذا علاوة على عدد كبير من التغيرات غير المقصودة وغير المتوقعة التى تترتب مباشرة على التصنيع والترشيد • ولم يقم علماء الاجتماع بعد بتصوير هذه التغيرات الواسعة النطاق ، ناهيك عن تحليلها وتفسيرها •

---

(١) انظر « ديوب » المرجع السابق . ويقدم الملحق رقم (١) لهذا الكتاب وصفا مفيدا لعمل ومشكلات العمال القرويين .

أنماط التغير الاجتماعى :

لا شك أن المعلومات التى قدمناها حتى الآن يمكن أن تسمح لنا بوضع تنميط للتغير الاجتماعى يمكن أن يكون بمثابة اطار للدراسة المقارنة وأساس للتعميم والتفسير • ويمكننا وضع هذا التنميط بالنظر الى أربع مشكلات رئيسية هى :

أولا : أين ينشأ التغير الاجتماعى ؟ يمكن أن نميز أولا التغير النابع من داخل وذلك النابع من خارج المجتمع • ولا يمكننا فى الواقع أن نرجع أصل التغير كلية دائما الى هذا النوع أو ذاك • واذا أردنا أن نسوق مثالا حديثا فنجد أنه من الواضح أن التغيرات التى تحدث الآن فى المجتمعات النامية قد نشأت الى حد كبير فى خارج تلك المجتمعات ، وهى نتائج التكنولوجيا الغربية التى دخلت فى معظم الحالات عن طريق الغزو • والمشكلة التى يجب أن تطرح اذن هى اذا ما كانت هناك فروق ذات دلالة بين عمليات التغير التى ترجع الى سبب داخلى وتلك التى ترجع الى سبب خارجى • ويبدو محتملا أن هذه الفروق موجودة فعلا وخاصة فى العلاقات القائمة بين عوامل التغير وبين بقية السكان [1] • وهناك زاوية أخرى لهذا الموضوع تتعلق بمشكلة أين يبدأ التغير داخل مجتمع معين (بغض النظر عن مصدره الذى قد يكون بعيدا) أعنى ؛ أى النظم يتعرض للتغير أولا • وتنطوى هذه النقطة على مشكلتين أخريين • أولاهما مشكلة عوامل التغير الاجتماعى ، وثانيهما الجماعات الاجتماعية التى تقود التغير • وتتيح لنا الشواهد التاريخية تصنيف عمليات التغير تبعا للمجالات أو الجماعات التى يبدأ فيها : اقتصادية ، سياسية ، دينية ••• الخ • وأن ندرس بدقة أكثر كيفية انتشار التغير من مجال الى مجال آخر •

---

(١) ارجع ايضا الى الحاشية رقم (١٠) فى الفصل السابق حيث وردت الاشارة الى الاطار الاقتصادى للتغيرات المختلفة فى المجتمعات النامية .

ثانيا : ما هى الظروف الأولية التى تنبثق عنها التغيرات الواسعة النطاق ؟ ويمكن أن تؤثر هذه الظروف الأولية تأثيرا عميقا على مسار التغير الاجتماعى • فلا يمكن أن يفترض ـ على سبيل المثال ـ أن الامبراطوريات القديمة أو الدول الاقطاعية ، أو المجتمعات الرأسمالية الحديثة قد قامت بنفس الطريقة أو يمكن تفسيرها على أساس حكم عام واحد • ونجد فى العالم المعاصر أن التصنيع عملية شديدة الاختلاف فى المجتمعات القبلية (كما فى أفريقيا) عنها فى المجتمعات ذات الحضارة القديمة كالهند ؛ كما أنها تختلف تبعا لحجم المجتمع ودرجة تعقده • ويمكن أن يفيد التحليل السوسيولوجى للتصنيع كعملية خاصة من عمليات التغير افادة كبرى من تنميط المجتمعات النامية نفسها •

ثالثا : ما هو معدل التغير ؟ يمكن أن يحدث التغير الاجتماعى بسرعة فى بعض الفترات أو فى بعض المجالات أو ببطء ، وربما الى حد غير ملحوظ فى مجالات أخرى • كما أن معدل التغير يمكن أن يتزايد أو يتناقص • وقد أوضح أوجبرن وجيلفلان ـ اللذين أشرنا الى دراساتهما من قبل ـ أن معدل التغير التكنولوجى فى المجتمعات الصناعية (من واقع عدد براءات الاختراعات المسجلة) آخذة فى التزايد باستمرار • وهناك فارق هام بين عمليات التغير التدريجى وعمليات التغير الثورى (باعتبارها صورا خاصة للتغير السريع) • وليس من الأمور العسيرة أن نحدد مظاهر التغير الثورى فى المجالات الاقتصادية والتكنولوجية وأن نتتبع أسبابها ونتائجها • وقد قدم « جوردون تشايلد » وصفا رائعا لما أسماه « ثورة العصر الحجرى الحديث » بأنها ادخال الاقتصاد الذى يهدف الى انتاج الطعام [١] • كما سجل مؤرخو الاقتصاد وحللوا مراحل الثورة الصناعية الحديثة [٢] •

---

1) V. Gordon Childe, Man Makes Himself, Chapter V.

(٢) الرجوع الى دراسة مختصرة لأول ثورة صناعية ، انظر :

H. L. Beales, The Industrial Revolution, 1750 - 1850.

(الطبعة الثانية ، لندن ١٩٥٨) . وقد عرضت التغيرات التى طرأت على النسق الاقتصادى والاتجاهات الاجتماعية عرضا واضحا فى كتاب :

R. L. Heilbroner, The Great Economists (London 1955).

أما الثورات السياسية والاجتماعية فقد درست فى الغالب دراسة تاريخية وصفية بينما نجد نقصا كبيرا فى الدراسات التحليلية المقارنة • وهنـــاك بالطبع نظرية ماركسية فى الثورة الاجتماعية ، ولكنها لم تكن ذات فعالية كبرى فى اثارة البحوث السوسيولوجية • هــذا وقد ارتبطت ثورات القرن العشرين الاجتماعية والقومية ارتباطا وثيقا بالحرب • ولو أن طبيعة هذه الروابط لم تدرس دراسة منهجية منظمة • وقد كشفت هذه الثورات فى نفس الوقت عن أهمية الدور الذى يلعبه المثقفون والطبقات الاجتماعية المختلفة فى الحركات الثورية •

رابعا : الى أى حد يعتبر التغير الاجتماعى شيئا خاضعا للصدفة أو تحكمه علل محددة ، أو هادفا على نحو معين ؟ والفارق الرئيسى هنا هو نفس الذى تناولناه فى ثنايا حديثنا عن التخطيط الاجتماعى • ونلاحظ من ناحية معينة أن جميع مظاهر التغير الاجتماعى تقريبا تغيرات هادفة ، من حيث أنها نتيجة أفعال هادفة صــادرة عن أفراد معينين • غير أن هــذه الأفعال يمكن أن تؤدى الى نتائج غير مقصودة أصلا ؛ لأن الأفعال الفردية لم يقم تنسيق بينها ، أو أن بعضها يمكن أن يعوق الأخرى أو يشوهها كما يحدث فى مواقف الصراع الاجتماعى مثلا • ففى مثل هذه الظروف ــ التى كانت قائمة فعلا فى معظم المجتمعات حتى العصور الحديثة ــ يمكن أن يكون التغير محدد سببا ؛ أو قد ينطوى على بعض العناصر العارضــة البحتة • ولكنه ليس فى هذه الحالة هادفا ؛ بمعنى أنه يحقق أهداف كافة الأفراد الداخلين فيه أو معظمهم • والأصح أن نعتبر التغير هادفا فى حالة المجتمعات الحديثة ، حيث يوجد ــ كما أشار جينزبرج ــ هدف مشترك يمكن أن يتحقق تدريجيا من خلال عملية تغير اجتماعى مخطط • وحتى هنا يمكن أن توجد بعض الأحداث العارضة التى تؤثر على سير التغير ، وقد

= الفصل الاول . كما قدم جورج فريدمان دراسة ذات طابع سوسيولوجى أوضح لمختلف مراحل الثورة الصناعية فى كتابه :

Georges Friedmann, la crise du progrès, (Paris 1936), especially Chapter 1.

تكون لها بالتالى عواقب كثيرة لم تكن مستهدفة أصلا (حيث أن القائمين على التخطيط كبقية الناس لا يمكن أن يحيط علمهم كل شىء) • غير أنه من الواضح أن البشر قد ازدادوا الآن سيطرة ــ بالقياس الى الماضى ــ على ظروف حياتهم الطبيعية والاجتماعية • وليست العلوم الاجتماعية نفسها ســـوى نتيجة الرغبة فى السيطرة على اتجاه التغير الاجتماعى ، وقد ساهمت بدور عظيم فى تحقيق هذه السيطرة فعلا •

قراءات مقترحة

فكرة التقـــدم :

Carl Becher, «Progress» Encyclopaedia of the Social Sciences.
J. B. Bury, The Idea of Progress (London, 1920).
Morris Ginsberg, The Idea of Progress : A Revolution (London, 1953.

التطور الاجتماعى والنمو الاجتماعى :

لم ينل مفهومى التطور والنمو فى مجال المجتمعات الانسانية الاهتمام النظرى اللذين يستحقانه • ولا يزال جانبا كبيرا من المناقشة التى تتم فى هذا المجال عند مستوى الانتقادات الوظيفية (كما يمثلها مالينوفسكى فى شكلها المتطرف) لفكرة « التاريخ الظنى » • ويمكن للقارىء أن يحصـــل على استعراض نقدى للنظريات التطورية اذا ما رجع الى :

P. A. Sorokin, «Sociocultural Dynamics and Evolutionism» in Gurvitch and Moore (eds.) Twentieth Century Sociology.

أما « الدارونية الاجتماعية » فلقد حظيت بمناقشة واسعة من جانب كثير من الكتاب ، كما نجد لها تحليلات تاريخية عديدة • انظر على وجـــه الخصـــوص •

D. G. Ritchie, Darwinism and Politics (London, 1885), and R. Hofstadter, Social Darwinism in American Thought (Philadelphia, 1945).

ويمكن للقارىء أيضا الرجوع الى مقال لجينزبرج بعنوان :

«The concept of evolution in Sociology» Essays in Sociology and Social Philosophy, Vol. 1.

حيث نجد جينزبرج فى هذا المقال يناقش بعض المشكلات الأساسية • انظر أيضا مقالات جينزبرج فى المجلد الثالث من كتاب : التطور والتقدم

Evolution and Progress (London, 1960).

وهناك أيضا مناقشة ممتعة فى كتاب جوردون تشايلد Childe بعنوان :

Man Makes Himself, Chapters 1 and 11.
R. M. Mac Iver, Social Causation (Boston 1942).

حيث يقدم تحليلا رائعا لفكرة السبب كما تستخدم فى دراسة التغير الاجتماعى •

K. R. Popper, The Poverty of Historicism (London, 1957).

وفيه نجد نقدا أساسيا للنظريات التطورية استنادا الى المنطق ومناهج البحث •

التغير الاجتماعى :

W. F. Ogburn, Social Change (New York, 1922).

انظر أيضا مناقشتنا لهـذا الكتاب فى المتن •

يجب الرجوع الى أعمال باريتو وتوينبى وسوروكين المشار اليها فى المتن • وبالاضافة الى ذلك يمكننا أن نجد عرضا موجزا ومفيدا لمفهوم سوروكين عن التغير الاجتماعى والثقافى فى :

F. R. Cowell, History, Civilization and Culture (London, 1952).

للتعرف على النظرية الماركسية يمكن الرجوع الى :

Marx and Engels, The German Ideology, N. Bukharin, Historical Materialism, and Edmund Wilson, The the Finland Station (London, 1940).

هناك عدد من الدراسات الأنثروبولوجية التى تناولت التغير الاجتماعى فى المجتمعات البدائية • انظر على وجه الخصوص المؤلفات التالية ، وان كانت تعالج أيضا بعض المشكلات العامة المتعلقة بتحليل التغير الاجتماعى :

B. Malinowski, Dynamics of Culture Change (Yale, 1945).
G. and M. Wilson, The Analysis of Social Change (Cambridge; 1945).
M. Mead, The Changing Culture of an American Indian Tribe (New York, 1932).
A. L. Kroeber, Anthropology (New York, 1948) Chapters 10-12
Raymond Firth, Social Change in Tikopia (London, Allen & Unwin, 1959).

وللتعرف على التغير الاجتماعى فى الهند يمكن الرجوع الى مؤلفات كل من ديساى Desai وديوب Dube التى ناقشناها فى المتن • كما يمكن الرجوع أيضا الى المؤلفين التالين :

A. K. Nazmul Karim, Changing Society in India and Pakistan (Dacca, 1956).
T.K.K.N. Unnithan, Some Problems of Social Change in India in Relation to Gandhian Ideas (Groningen, 1956).

الفصل الثامن

علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية والتخطيط الاجتماعى (*)

وضع السياسة الاجتماعية :

اعتقد كثير من مفكرى القرن التاسع عشر أن علم الاجتماع العام هو الذى يمدنا بالأساس النظرى لعلم تطبيقى شامل • وكانت مثل هذه الآراء سائدة فى فرنسا بوجه خاص حيث انتقلت من الموسوعيين الى كونت عن طريق سان سيمون وآخرين فكرة قيام علم طبيعى لدراسة المجتمع • وكان كونت يرى أن علم الاجتماع ـ باعتباره قمة العلوم الوضعية ـ يمكن أن يصوغ قوانين عامة للسلوك الاجتماعى يمكن بالرجوع اليها تسوية كل نواع الخلافات الخاصة بالسياسة الاجتماعية • عندئذ يمكن أن تنتهى « فوضى الآراء » بشأن الموضوعات الاجتماعية كما حدث بالنسبة للظواهر الطبيعية • وبالرغم من أن دوركيم قد رفض كثيرا من آراء كونت فى مجال علم الاجتماع ، الا أنه كان رغم ذلك وضعيا فى ضوء نظريات كونت ، الذى أراد أن يؤسس علما سياسيا وأخلاقيا تطبيقيا على أساس علم نظرى لدراسة المجتمع • وتشترك الماركسية ـ بالصورة التى تطورت بها فعلا ـ فى كثير مع فلسفة كونت الوضعية • فهناك نفس الميل الى القوانين التاريخية ، ونفس الزعم بأنه فى وسع صفوة على دراية بعلم دراسة المجتمع أن تحل نهائيا جميع المشاكل الاجتماعية العملية وأن تقود البشر بنجاح أكيد على طريق التقدم الاجتماعى •

أما فى الوقت الحاضر فليس هناك سوى قلة قليلة من علماء الاجتماع

(*) ترجمت هذا الفصل الدكتورة علياء شكرى عن المصدر التالى :
Bottomore, T. B., Sociology, Unwin Univ. Books, London, 1965, pp. 293 - 307.

(وعدد أقل منهم من رجال الانثروبولوجيا الاجتماعية) يعتبرون علمهم علما نظريا متطورا صالحا للتطبيق على الشئون الاجتماعية بالطريقة التى تطبق بها علوم الفيزياء أو الكيمياء فى التحكم فى العالم المادى وتغيير شكله • ومما يثنيهم عن ذلك فى المقام الأول أنه لم يمكن بعد انقضاء أكثر من قرن من الفكر والبحث السوسيولوجى والانثروبولوجى التوصل الا الى اكتشاف عدد ضئيل من القوانين السوسيولوجية الهامة ، هذا اذا اعتبرنا القوانين التى اكتشفت ذات أهمية أصلا • ومن الصعوبة أن يثار فى هذا الموقف موضوع تطبيق قوانين عامة • كما أنه قد يداخلهم الشك كذلك فى قيمة المماثلة المعقودة بين العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع فيما يتعلق بالتطبيق العلمى ؛ إذ أنه لا يتسق مع أفكارنا العادية عن أنفسنا كأفراد • وبالنظر الى غيرنا من بنى الانسان ، أن نتصور أنه من الممكن تطبيق المبادىء السوسيولوجية بشكل مباشر بواسطة « خبراء » فى تشكيل الحياة الاجتماعية كما تطبق مبادىء علم الطبيعة فى انشاء الطرق والكبارى • ولهذا السبب ولأسباب أخرى سنعرض لها فيما بعد لا يمكن أن تكون هناك « هندسة اجتماعية » • على أن هذا لا يعنى أن ننكر أن علم الاجتماع يمكن أن يستخدم فى التطبيق العملى بطريقة علمية منظمة بطرق متعددة وعلى مستويات مختلفة • وسأتناول فى هذا الفصل أولا الاسهام الذى يمكن أن يقدمه علم الاجتماع للسياسة الاجتماعية بصفة عامة ، ثم ندرس دوره فى التخطيط الاجتماعى • ثم أعرض فى الفصل التالى لبعض البحوث السوسيولوجية التى استهدفت تقديم حلول لبعض المشاكل الاجتماعية المحددة •

وأول ما ينبغى أن نلاحظه هنا الاسهام الذى يمكن أن يقدمه علم الاجتماع الوصفى ، الذى أمدنا بكثير من المعلومات الدقيقة موثوق بها عن بعض موضوعات السياسة الاجتماعية التى يعالجها السياسيون ورجال الادارة والمصلحون الاجتماعيون • ومن أوائل الأبحاث الاجتماعية ـ وخاصة فى بريطانيا ـ المسوح (بما فيها المسوح الرسمية) التى أجريت عن الفقر وعن مشاكل أخرى خاصة بالحياة الحضرية ابتداء من منتصف

القرن التاسع عشر [١] . وقد أوضحت هذه المسوح وخاصة مسوح بوث Booth [٢] وراونترى Rowntree [٣] فى نهاية القرن التاسع عشر – على نحو مفصل وصارم – مدى الفقر وطبيعته فى مجتمع صناعى . وبالاضافة الى ذلك استطاع كل من بوث وراونترى أن يكشفا عن بعض أسباب الفقر المدقع ؛ ونقص فرص العمالة المنتظمة والحوادث والأمراض التى يقاسى منها العمال الأجراء . وقد أثرت هذه الأبحاث وما شابهها دون شك فى السياسة الاجتماعية . وقد بينت احدى الدراسات التى أجراها مؤخرا راونترى ولافرز Lavers (وقد صدرت تلك الدراسة عام ١٩٥١) [٤] كيف أن سياسات دولة الرفاهية (وخاصة تحقيق العمالة الكاملة ، وزيادة المساعدات الفعالة التى تقدمها الدولة فى حالات الضرورة كالمرض أو الحوادث) كادت تقضى كلية على الفقر بصورته الأولية الواضحة . ولا يمكن بطبيعة الحال أن يكون لمثل هذا النوع من الأبحاث والدراسات نفس الأهمية فى الدول المتخلفة ، حيث لازال الفقر حالة شائعة للغاية يتوقف القضاء عليها فى المقام الأول على زيادة الانتاج القومى الكلى عن طريق التصنيع وتحسين الزراعة . غير أن هذه الدول تعانى أيضا من حالات فقر مدقع تستوجب الدراسة . فنجد فى الهند – مثلا – حالة الطبقات والقبائل المطحونة [٥] واللاجئين [٦]

---

(١) هناك مسوح أخرى سابقة على ذلك (قارن الفصل الأول من هذا الكتاب) ولكن عددها قد زاد زيادة سريعة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

(2) Charles Booth. Life and Labour of the People in London (17 Vols., London 1902).

(3) B. Seebohm Rowntree. Poverty : A Study of Town Life (London 1901).

(4) B. Seebohm Rowntree and G. R. Lavers, Poverty and the Welfare State (London 1951).

(٥) هناك معلومات كثيرة عن هذه الفئات فى تقارير لجنة تسجيل الطوائف والقبائل .

(٦) See R. N. Saksena, Refugees (Bombay 1961).

والشحاذين [1] .

ولقد قدم علماء الاجتماع فى عدد من المجالات الأخرى معلومات ذات أهمية جوهرية لوضع سياسات رشيدة . فالدراسات السكانية لم تزودنا فقط بمعلومات دقيقة عن حجم السكان والخصوبة والوفيات ، ولكنها أوضحت كذلك بعض العوامل الاجتماعية المسئولة عن التغيرات الديموجرافية . ثم هناك الدراسات الخاصة بالحراك الاجتماعى التى تكشف عن مدى الحراك وأشكاله فى مجتمعات مختلفة وبقية الصلات القائمة بين الحراك وبعض العوامل مثل حجم الأسرة وفرص التعليم والبناء المهنى . فهذه الدراسات تمدنا بمعلومات جوهرية لازمة للاصلاحات التربوية بجانب اسهامها فى توضيح بعض الأهداف البعيدة للسياسة الاجتماعية .

ولكنه على الرغم من أن نمو البحوث السوسيولوجية منذ ١٩٤٥ قد أضاف الكثير الى حجم المعلومات الدقيقة عن الموضوعات الاجتماعية ، الا أن معرفتنا مازالت قاصرة . فهناك ــ كما أشار جلاس Glass منذ بضع سنين [2] ــ بعض السياسات الاجتماعية الهامة التى مازالت ترسم وتنفذ دون أى بحث متعمق للأهداف أو الوسائل المقترحة (كما هو الحال بالنسبة لسياسة انشاء المدن الحديثة التى حددت حجم وكثافة تلك المدن بطريقة تعسفية) . كما تؤدى بعض الخدمات الاجتماعية الرئيسية دون بذل محاولات تذكر لاكتشاف ما اذا كانت هذه الخدمات تغطى الحاجات التى خططت من أجلها ، أو اذا كانت تسد هدف هذه الالتزامات بأكفأ الطرق ، أو اذا كانت هذه الحاجات نفسها لم تتغير فعلا فى هذا المجتمع السريع التغير . كما نبه تيتمس Titmuss الى نقص البحوث

---

(1) See M. S. Gore et al., The Beggar Problem in Metropolitan Delhi (Delhi 1959).

(2) D. V. Glass, «The Application of Social Research», British Journal of Sociology I (1) 1950.

الاجتماعية التى يمكن أن تحدد وتقيس الاحتياجات الأكثر دقة وتعقيدا وتوزيعها بين قطاعات السكان المختلفة [1] .

ولم يصبح البحث الاجتماعى (على نحو متميز عن البحوث الاقتصادية) مستقلا تمام الاستقلال كجزء عادى من أجهزة الحكومة والادارة الا فى عدد قليل من الدول . هذا على الرغم من أنه استطاع أن يحتل مكانة مرموقة فى العقد الأخير . وقد عمل التخطيط الشامل فى الهند على تشجيع اجراء البحوث الاجتماعية . فلعبت لجنة برامج البحوث التابعة للجنة التخطيط هناك دورا هاما فى تشجيع وتوجيه البحوث فى عدد من الميادين التى تهم التخطيط الحكومى بشكل مباشر [2] ، كما حققت « هيئة تقييم البرامج » بداية واعدة بالدراسات التى أجرتها عن فاعلية بعض مشروعات التخطيط فى عدد من المناطق . أما « المعهد المركزى لدراسات وبحوث تنمية المجتمع » (*) ــ الذى أنشىء فى عام ١٩٥٨ ــ فقد وجه اهتمامه الأكبر حتى الآن الى تدريب (بالمعنى الواسع للتدريب) الموظفين الذين يشغلون مراكز قيادية فى برامج تنمية المجتمع المحلى ، وذلك عن طريق « البرامج التوجيهية » التى يستمر الواحد منها أربعة أسابيع ، ولم يشرع فى اجراء بحوث منهجية الا مؤخرا فقط . ومن المتوقع أن يلعب نشاط هذا المعهد دورا عظيم الأهمية ، ليس فقط لأنه يختص بمجال واسع وحاسم من مجالات الحياة الاجتماعية فى الهند ، (وأعنى تنمية المجتمعات القروية وتحسين الانتاج الزراعى) وانما لأنه

---

(1) R. M. Titmuss, «Social Administration in a Changing Society». in Essays on the Welfare State (London 1958).

(٢) انظر (بحوث التخطيط من ١٩٥٥ ــ ١٩٥٩) .
Research for Planning 1955 - 1959.

وتغطى مشروعات البحوث التى تم اقرارها الميادين التالية : الاصلاح الزراعى ، والاقتصاد الزراعى ، المدخرات ، الاستثمار ، والعمالة ، الصناعات الصغيرة والمنزلية ، المسوح الحضرية ، الرفاهية الاجتماعية ، الادارة العامة ، الجوانب الاقتصادية العامة للتنمية ، اللامركزية والتنمية الاقليمية ، موارد التنمية ، فوائد مشروعات الرى .

(*) The Central Institute of Study and Research in Community Development.

يجمع على صعيد واحـد رجال القانون ، والادارة ، والبحث العلمى ، والمسئولين عن برامج التخطيط ليشتركوا فى مناقشات مستفيضة للمشكلات ، والسياسات والانجازات المختلفة •

ويمكننا أن نلاحظ بعض التطورات الماثلة فى أوروبا الغربية • ففى بريطانيا على سبيل المثال قامت « ادارة المسح الاجتماعى الحكومى » باجراء عديد من المسوح لحســاب بعض الهيئات الحكومية • كما شجعت « ادارة البحوث العلمية والصناعية » اجراء عديد من البحوث الاجتماعية على المشكلات الصناعية ، وأنشأت وزارة الداخلية مؤخرا قسما للبحوث لاجراء دراسات فى ميدان الجريمة والانحراف • وقـد أنشـأ البرلمان الدانمركى فى عام ١٩٥٨ « المعهد القومى للبحوث الاجتماعية التطبيقية (*) للاضطلاع ببرنامج مستمر للبحوث فى مشكلات الرفاهية الاجتماعية • ولكن لازال هناك الكثير الذى يجب عمله فى هذا الصدد ، اذا ما أرادت العلوم الاجتماعية أن تؤدى دورها الكامل فى تسيير دفة الحياة فى المجتمعات الحديثة • فمن الأمور المفيدة ــ فى المقام الأول ــ استعراض مـدى البيانات الاجتماعية التى جمعتها الحكومات حاليا ، ودراسة كيفية الانتفاع بهذه البيانات والتأثير الذى مارسته فعلا على السياســة الاجتماعية فمثلا هذا المسح سيكــون بمثابة نقطة انطلاق لتوسيع وترشــيد البحــوث الاجتماعية التى تمر بها الهيئات الحكومية ، مما سيؤدى فى النهاية الى انشــاء مراكز قومية للبحوث • ويمثل المعهد القومى الدنمراكى للبحوث الاجتماعية التطبيقية أول نموذج لمثل هــذه المراكز • ولو أن « لجنــة برامج البحوث » فى الهند ، و « الهيئة الحكومية للمسوح الاجتماعية » فى بريطانيا وأمثالهما من الهيئات فى بلاد أخرى يمكن أن تتطور فى هــذا الاتجاه • وستكون مهمة مثل هــذه المراكز القومية للبحــوث اجراء دراسات محددة مطلوبة لرسم السياسة ، وكذلك جمع معلومات بانتظام عن الجوانب الرئيسية للحياة الاجتماعية ، ونشرها فى صــورة مســوح

(*) The National Institute of Applied Social Research.

للظروف الاجتماعية • وتقوم معظم الحكـومات اليوم بجمع معلومات أقتصادية أساسية تنشرها بانتظام فى اطار مسوح عامة للموقف الاقتصادى فى بلادنا • ولكنه من الأمور الجوهرية فى أى مجتمع حديث أن توسـع هذه الخدمة بحيث تشمل نطاقا أوسع من المسائل الاجتماعية ، بما فيها : الجريمة ، والانحراف ، والفقر ، والاسكان ، والصحـة ، والتربيـة ، ومستويات المعيشة ، وميزانيات الأسرة [1] •

فهناك اذن حاجة الى اعادة النظر فى دور رجال الاجتماع فى وضع السياسة الاجتماعية • ومن المؤكد أن هناك جانبا معينا يمثل مشكلة عامة هـو ، العلاقة بين « العلماء » و « الحكام » فى الأنشطة المتنوعة التى تضطلع بها الحكومات الحديثة • غير أن وضع رجال الاجتماع فى هـذا المجال مغبون أشد الغبن (وكذلك وضع غيرهم من المشتغلين بعلوم اجتماعية أخرى ، فيما عدا رجال الاقتصاد) • فأولئك الذين يضطلعون بالبحوث الاجتماعية للهيئات الحكومية لاتتاح لهم ــ فى العادة ــ فرصـة كبيرة لتحديد نطاق بحوثهم المحـددة ، أو ربط النتائج التى يتوصلون اليهـا بالقرارات التى تنص عليها السياسات • ويقتصر الأمـر على استقلال النتائج التى يتوصلون الى الكشف عنها من قبل أولئك الذين يتحملون مسئولية صنع السياسـة ومسئولية الادارة الحكومية • وكثيرا ما تميل الفئة الأخيرة الى الخضوع لتأثير « الحكمة التقليدية » أكثر من التزامهم بنتائج البحـوث المنهجية ، اذا كانوا لا يعرفون شيئا عن خلفية البحث ودلالاته الأخـرى •

على أن اسهام علم الاجتماع الوصفى يجب ألا يقتصر على توفير المعلومات المفيدة فى مرحلة وضع سياسات اجتماعية جديدة • فهو مهم

---

(١) تبدو قيمة هـذا الجمع للبيانات والمسوح فى التقرير الذى اصدرته الامم المتحدة بعنوان : « تقرير عن الموقف الاجتمـاعى العـالمى Report on the World Social Situation (عـام ١٩٦١) . غير أن هذه المسوح العالمية يمكن أن تكون ايسر فى اعدادها واشمل فى نطاقها لو انه أتيح المزيـد مـن البيانات القومية المنشـورة .

بنفس الدرجـة فى تقييم تنفيذ هذه السياسات ومنجزاتها • غـير أن الدراسات التقييمية من هـذا النوع لازلت قليلة (١) • وقـد وضـعت « هيئة تقييم البرامج » فى الهند بداية متواضعة باجراء هـذا النوع من الدراسات ، وان لم يكن لها نظير فى مكان آخر فيما أعلم • وقد اضطلعت قلة من معاهد البحوث فى بلاد أخرى ــ خلال السنوات الأخيرة ــ باجراء بعض البحوث فى هذا الميدان (مثل استجابات الأفراد والأسر لانتقالهم الى مساكن جديدة فى مناطق جديدة ، واتجاهات « المستهلكين » نحـو الخدمات الصحية والتعليم) • ولكن هذه البحوث ليست سوى شواهـد قليلة على وجود أى نوع من التخطيط المنهجى للبحوث • ومما يدعو الى الدهشة أنه حتى فى البلاد التى تعرضت لتغيرات جذرية مخططة فى ميدان الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، لم تكن هناك استفادة كبرى من فرص التجارب الاجتماعية التى كان يمكن أن تسمح بتقييم السياسات المختلفة على نحو أكثر دقة • واستخدام التجارب فى المسائل الاجتماعية محدود بطبيعة الحـال بسبب ما تتكلفه مـن نفقات ، وبسبب ضرورة احترام مصالح وحقوق الأفراد الذين يمكن أن يتأثروا بها • غير أن هناك مع ذلك كثيرا من المجالات التى يمكن فيها اجراء تجارب على نطاق ضيق دون نفقات باهظة ، ودون الاضرار بأى فرد • فمن المؤكد على سبيل المثال أن برامج تنمية المجتمع المحلى فى الهند يمكن أن تفيد من الدراسات التقييمية المعتمدة على تجارب أنماط مختلفة من الادارة ، وتتابعات وأشكال مختلفة مـن

---

(١) يلاحظ التقرير الذى نشرته اللجنة الحكومية الدانمركية مـؤخرا حـول انشاء « معهد البحوث التطبيقية » : « ترى اللجنة انه ليست لـدى الهيئات التشريعية ، والادارة الحكومية ، والجمهـور ، المعلومات الـكافية لتحليل اداء الهيئات الاجتماعيـة لوظائفها ، وآثارها على الفرد وآثارهـا الأخرى ، وخاصـة الاقتصـاد القومى ، فالبيانات المتاحة لا تهيىء أساسـا كافيا لاصدار الحكم عما اذا كانت الوسائل المستخدمة ــ مالية أو تنظيمية ــ مستقلة على افضـل نحـو ممكن ام لا ، وموظفـة فى أهم الأغراض » . . النص مقتبس عن المصـدر التالى :

Henning Friis, «The Application of Sociology to Social Welfare Planning and Administration», Transactions of the Fourth World Congress of Sociology, II, pp. 65 - 6.

التجديد ، ومختلف وسائل توصيل الأفكار فى مشروعات التنمية التى تعدها • وهنا بالمثل مجال لاجراء تجارب فى ميدانى تخطيط المدن ، وتوفير فرص التعليم ، وكذلك السياسات الخاصة بانحراف الأحداث ، ومعاملة المذنبين وميادين أخرى كثيرة • حقيقة أنه كثيرا ما قيل عن بعض السياسات التى تنفذ فى بعض هذه الميادين « تجريبية » ولكنها تكاد تفتقر دائما تقريبا الى أهم سمات التجربة ، وأعنى الدراسة المنهجية المقارنة لنتائج اتباع أساليب مختلفة •

وقد لاحظنا من قبل — وخاصة فيما يتعلق بمسوح الفقر — أن رجل الاجتماع لا يقتصر دائما على الوصف الدقيق لظاهرة اجتماعية معينة ، ولكنه كان يستطيع فى بعض الأحيان تحديد سببها أو أسبابها المحتملة • والواقع أن كثيرا من البحوث التطبيقية التى أجريت فى السنوات الأخيرة قد استهدفت بوضوح تجاوز عملية الوصف ، رغم أهميتها التى لا جدال فيها ، لتصل الى اكتشاف الأسباب واقتراح حلول محددة • وهذا الهدف أقل طموحا من أهداف علماء الاجتماع الأوائل الذين كانوا يفكرون فى اطار نظرية معينة يمكن تطبيقها على أى موضوع وبنجاح كامل فى حل المشكلات العملية • ذلك أن كل ما يدعيه رجال الاجتماع اليوم هو محاولة اكتشاف بعض العلاقات العلية المعينة والمحدودة عن طريق الدراسة السوسيولوجية التحليلية • ومع ذلك فان نتائج تلك الجهود المتواضعة ليست معصومة من الخطأ • فقد ثبت أنه من الصعب فى بعض الحالات المتطرفة اقامة صلات علية دقيقة بين ظواهر اجتماعية فى المواقف المعقدة التى يجب أن تتناولها السياسة الاجتماعية • ويمكن أن ندرك بعض هذه الصعوبات فى أوضح صورها فيما يتعلق ببعض المشكلات الاجتماعية المحددة ، ولذلك سأرجىء الكلام عنها الى الفصل التالى •

وليس علماء الاجتماع المحترفون فقط هم الذين يستخدمون المعرفة السوسيولوجية ؛ فقد بدأت العلوم الاجتماعية على وجه العموم تؤثر فى السياسة الاجتماعية بطريقة أخرى ؛ وأعنى من خلال الدور الذى تؤديه

فى التربية وفى اعداد أولئك الذين يقومون بوضع وتنفيذ تلك السياسة • فقد أصبح علم الاجتماع يشغل اليــوم مكانا هاما فى برامج اعــداد الاخصائيين الاجتماعيين ، وأصبح معترفا به كعنصر مفيــد فى اعــداد المديرين فى الصناعــة ، وموظفى شــئون الأفراد (شئون العاملين فى الحكومة) ؛ والمعلمين ، والموظفين الحكوميين المسئولين عن ادارة هيئات الرفاهية الاجتماعية أو المشروعات المملوكة للدولة • وليست قيمة علم الاجتماع بالنسبة لهذه المهن فى الغالب أنه يمد الفرد بمبادىء سوسيولوجية يستطيع أن يطبقها بشكل مباشر فى حل مشكلات عملية • وانمــا تتمثل قيمته فى أن الفرد الذى اكتسب معلومات عامة واسعة عن مختلف أنماط البناء الاجتماعى والثقافة قد درس بمزيد من التفصيل البناء الاجتماعى لمجتمعه وتاريخ هــذا المجتمع ، كمــا تعلم شيئا عن المناهج التى يمكن بواسطتها جمع وتقييم معلومات عن المسائل الاجتماعية ؛ ومن ثم يصبح هــذا الفرد قادرا على اصدار أحكام أكثر صوابا واتخاذ قرارات أكثر حكمة فيما يتعلق بالمشكلات الاجتماعية التى يواجهها •

فالاقبال المتزايد على استخدام البحوث السوسيولوجية ورغبة رجال الاجتماع أنفسهم فى تقديم اسهام عملى يثير عديدا من التساؤلات ليس فقط عن امكانيات استخدام علم الاجتماع فى التطبيق العملى ، وانمــا كذلك عن الوجه الأمثل لهذا التطبيق • وقد كنا نسلم فى المناقشات التى عرضناها حتى الآن بأن السياسات الاجتماعية خــير فى ذاتها أو شىء مرغوب فيه • غير أن هذا الافتراض يحجب عديدا من المشكلات التى يتحتم علينا أن نشير اليها هنا على عجل ، مع أننا لن نستطيع أن نوفيها حقها • وأعتقد من ناحيتى أن رجال الاجتماع يلتزمــون بالضرورة فى التطبيق العملى بتحسين الحياة الاجتماعية ، أو كما كان يقول علماء الاجتماع الأوائل بتحقيق التقدم الاجتماعى • ومن شأن هذا الالتزام أن يحدد لهم ميادين معينة للبحث ويحرم عليهم أخرى • ويمكننا أن نعقد مماثلة بين علم الاجتماع التطبيقى والطب ، كما فعل ألفين جولدنر Gouldner فى مقال

اعلامى له [1] • ويميز جولدنر بين اتجاه هندسى Engineering واتجاه « علاجى » Clinical فى علم الاجتماع التطبيقى ويتميز الاتجاه «الهندسى» بأن رجل الاجتماع يقبل تحديد العميل للمشكلة ، بحيث يقتصر دور رجل الاجتماع على اكتشاف الوسائل الناجحة لحل المشكلة • أما الاتجاه « العلاجى » فيتميز بأن رجل الاجتماع (سأنه شأن الطبيب) لا يلتزم — ويسلم عموما بأنه لا يلتزم — بتحديد العميل للمشكلة ، الذى يعتبره فى الواقع أحد أعراض المشكلات الأساسية • ويهتم « جولدنر » فى تحبيذه للاتجاه العلاجى بكفاءة المنهج من ناحية ، وبالقيم التى يجب أن توجه البحث السوسيولوجى التطبيقى من ناحية أخرى • على أنه لا يجد فارقا هاما بين الطب وعلم الاجتماع التطبيقى • فممارسة الطب قائمة على التزام الطبيب ، وهو التزام واضح ودقيق فى الغالبية العظمى من الحالات ، بالحفاظ على الصحة ومقاومة المرض • أما علم الاجتماع التطبيقى فلا يقوم على أى التزام دقيق كهذا • ذلك أن « الرفاهية الاجتماعية » قد لا تكون محل اختلاف مباشر ، ولكنها تحتمل فى العادة أحكاما متضاربة • فمصطلحات «الصحة الاجتماعية » و « المرض الاجتماعى » (أو « الباثولوجيا الاجتماعية ») التى تستخدم فى بعض الاحيان غير محدود وغير ملائمة الى حد بعيد • ذلك أن محور الاهتمام ليس صحة المجتمع (التى قد تعرف بأنها قدرته على البقاء) بقدر ما هو نوعية الحياة الاجتماعية • كما نجد من ناحية أخرى أن ما يعتبر فى ظرف معين أمراضا قد يعتبر فى وقت لاحق اضطرابات لا مفر منها تصاحب النمو الصحى [2] • أو بعبارة أهم أنها يمكن أن تقيم على نحو مختلف

---

(1) A. W. Gouldner, «Explorations in Applied Social Science», Social Problems III (3) 1956.

(٢) جاء فى كتاب « راب » و « سلزنيك » المعنون : **المشكلات الاجتماعية الرئيسية** (الصادر فى نيويورك ١٩٥٩) انه « من الواضح أن عدم وجود مشاكل اجتماعية لا يعنى بالضرورة أن هذا المجتمع مثالى ... كما لا تعنى شدة المشاكل الاجتماعية بالضرورة أن المجتمع يتحرك الى الوراء . بل العكس قد يكون صحيحا . فالمجتمع الذى لا يسمح بحدوث

من جانب ملاحظين متباينين [1] .

ولا أريد أن أخلص من هذه المناقشة الى أنه لا يوجد معيار واضح يمكن أن يوجه علم الاجتماع التطبيقى ، ولا — بالعكس — أنه من واجب رجال الاجتماع أنفسهم أن يحددوا دون منازع المقصود بالرفاهية أو التقدم . وينبغى أن نسلم أولا بأن المشكلات المنهجية التى عرضت لها لا تثور فى الغالبية العظمى من الحالات ، اذ أن هناك اجتماعا تقريبا على تعريف كثير من الشرور الاجتماعية ، ولكن حيث لا يوجد مثل هذا الاتفاق يستطيع رجال الاجتماع أن يقدموا اسهاما عمليا بتوضيح نقاط الخلاف ، وذلك بأن يقيموا من واقع الحقائق التفسيرات الموجودة للمشكلة الاجتماعية، وخاصة عن طريق تقديم سياسات اجتماعية بديلة تناسب بناء المجتمع ككل . ويقدم رجال الاجتماع فى الحالة الأخيرة بالضرورة بعض الأفكار والبيانات التى تصبح مادة للنقد الاجتماعى . ذلك لأنهم يضطرون الى أن يأخذوا فى اعتبارهم تأثير بعض أنواع عدم المساواة القائمة فى ثروة وقوة الجماعات الاجتماعية المختلفة على السياسة الاجتماعية وأن يوضحوا بالتالى كيف تؤدى مختلف أنواع السياسة الى العمل لصلحة أو ضد مصلحة جماعات معينة . وقد أدى اصرار كثير من علماء الاجتماع المعاصرين على الالتزام « بمنهج علمى » صارم الى خلق نظرة محافظة ليس لها ما يبررها . وتقوم هذه النظرة على قبول الاطار الاجتماعى القائم كشىء مسلم به ، لأنه من التعقيد بحيث يستعصى على الدراسة العلمية . وهنا توظف كل امكانيات علم الاجتماع « العلمى » الحقيقى فى دراسة

تغير او تقدم تقل فيه المشاكل الاجتماعية عادة . اما فى المجتمع المتغير .. فقد تكون المشكلات الاجتماعية اعراض تغير نحو حياة افضل » . قارن :
E. Raab and G. J. Selznick, Major Social Problems (New York 1959), p. 5.

(١) من هذا مثلا الحرية الكبيرة فى مجال العلاقة بين الجنسين التى انتشرت مؤخرا فى كثير من المجتمعات الغربية ، فيعتبرها البعض دليلا على الانهيار الاجتماعى ، بينما يعتبرها آخرون مظهرا لنظام اجتماعى اكثر رشدا واكثر تسامحا .

مشكلات محدودة النطاق بعناية معزولة عن البناء الاجتماعى الواسع • ولذلك نرى من الضرورى أن نؤكد مرة أخرى أن من السمات المميزة للفكر السوسيولوجى أنه يحاول فهم كل مشكلة معينة فى سياقها الاجتماعى الكلى ، وتحديد السياسات الاجتماعية البديلة التى تؤثر على حياة المجتمع فى مجموعها •

وأفضل وسيلة لرؤية الوظيفة النقدية لعلم الاجتماع فى أقل آثاره وضوحا ـ وربما أكثرها جميعا أهمية ـ على الحياة الاجتماعية ، ذلك التأثير الذى يمارسه من خلال تثقيف الجمهور العام ، أو على الأقل ذلك الجزء من الجمهور الذى يهتم اهتماما قويا بالشئون الاجتماعية و السياسية • وهنا يقدم علم الاجتماع اطارا من المفاهيم ، وأساسا للمعرفة الدقيقة لمناقشة المسائل السياسية مناقشة ذكية [١] • وقد أوضح تيتمس Titmuss ببراعة ـ فائدة البحوث السوسيولوجية فى كتابة المعنون « مقالات عن دولة الرفاهية » (*) • ويتناول تيتمس فى مقال بعنوان « التقسيم الاجتماعى للرفاهية » بعض الفروض التى وجهت الفكر الحديث فى السياسة الاجتماعية فى بريطانيا ، وخاصة الفرض الخاص بمدى

---

(١) يقول جونار ميردال فى مقاله (العلاقة بين النظرية الاجتماعية والسياسة الاجتماعية) المنشورة فى المجلة البريطانية لعلم الاجتماع : « القضية عندى أنه على حين لا يشارك العلماء الاجتماعيون الا بدور ضئيل فى الاعداد الفنى الفعلى للتشريعات ، وبدور أقل منه فى توجيه التغيرات الاجتماعية المقصودة ، فان تأثيرهم كان مع ذلك بالغا . واعتقد أن تأثيرهم هذا يرجع اساسا الى عرضهم وتحبيذهم لبعض الأفكار والنظريات العامة) .

Gunnar Myrdal, «The Relation between Social Theory and Social Policy, British Journal of Sociology IV (3) Sept. 1953.

(ص ١٢٥) . ويذكر ميردال من بين الذين أثروا فى السياسة الاجتماعية بهذه الطريقة : مالتوس ، وريكاردو ، وماركس ، وداروين ، وسبنسر ، وكينز ، ثم يقول انه حدث بعد ذلك ان شارك العلماء الاجتماعيون (وخاصة رجال الاقتصاد) بشكل متزايد فى الادارة ، ولكنه لا ينكر ان تحبيذ « بعض الأفكار والنظريات العامة » لا زال واحدا من أهم السبل التى يؤثرون بها على عملية صنع السياسة .

(*) Essays on the Welfare State.

تنفيذ خطط الرفاهية الاجتماعية وأثر الخدمات الاجتماعية فى اعادة توزيع الدخل من الأغنياء الى الفقراء • ويكشف تحليله الصعوبات الكثيرة التى تواجه سعى الانسان اليوم نحو المساواة ، والمصادر المتجددة دائمـا لمظاهر عـدم المساواة والعجز الاجتماعى • وهو يشك كثيرا فى قدرة الخدمات الاجتماعية على تحقيق المساواة ، نظرا لأن تلك الخدمات محددة تحديدا ضيقا أكثر مما يجب عادة ؛ كما أن هنا أنماطا أخرى من الاجراءات الجماعية التى تؤدى الى زيادة عدم المساواة قد أغفلت ولم ينتبه اليهـا أحـد • ويقول ان النظم الثلاثة المستقلة للخدمة الاجتماعيـة (وهى الاجتماعية ، والمالية ، والمهنية) تؤدى على العموم الى « توسيع وتدعيم مجال عـدم المساواة الاجتماعية » • ويدرس تيتمس فى مقالات أخرى من هـذا الكتاب البناء العمرى للسـكان من حيث علاقته ببعض الأفكار الشائعة عن عبء العجز الاقتصادى بين كبار السن من السكان وبعض المشكلات التى تترتب على مستويات السلوك المتعارضة المتوقعة من رب الأسرة فى الطبقة العامة داخل الأسرة وفى الصناعة • وتساهم هذه المقالات بشكل مباشر فى اثراء المناقشات العامـة المستنيرة للمسائل الرئيسية المتعلقة بالسياسة الاجتماعية ، وهى تستند الى أسـاس متين من الأفكار البحوث السوسيولوجية الحديثة •

ويمكن أن نضرب مثالا آخر من ميدان السياسة التربوية ؛ ذلك أن لمناقشات التى دارت مؤخرا عن التربية فى بريطانيا فى مجتمعات صناعية خرى يجب أن تأخذ فى اعتبارها البحوث السوسيولوجية التى توضح الصلات بين المنشـأ الطبقى الاجتمـاعى ، وفرصة التعليم ، والتحصيل الدراسى • وطالما أن السياسـة العامة ـ أو السياسات الخاصة بجماعات اجتماعية معينة ـ تستهدف تحقيق تكافؤ الفرص فى ميـدان التعليم ، وتوسيع وتحسين النظام التربوى القومى ، فعليها أن تنتفع بنتائج البحوث السوسيولوجية التى تكشف عن مصـادر وميكانيزمات عدم تكافؤ الفرص ، وعوامل ضعف التحصيل الدراسى ، واقتراح أساليب القضاء عليها •

وقد اختلف علم الاجتماع فى أدائه هذه الوظيفة الحساسة وفى كونه مصـــدرا للتغير الاجتماعى العمــدى اختلافا كبيرا عن الانثروبولوجيا الاجتماعية التى ارتبطت ــ فى جانبها التطبيقى ــ ارتباطا وثيقا بالادارة الاستعمارية • ويلاحظ ايفانز بريتشــارد أنه « ••• اذا قامت سياسة احدى الحكومات الاستعمارية على ادارة شعب من الشعوب من خـــلال رؤسائه ، فانه يصبح من المفيد أن تعــرف من هم رؤســاؤه ، وما هى الوظائف التى يضطلعون بها ، والسلطة والامتيازات التى يتمتعون بها ، والالتزامات التى يتحملونها ؛ وكذلك اذا أرادت أن تدير شئون شعب تبعا لقوانينه وعاداته الخاصـــة ، فلابد لها أولا من أن تعرف ماهى هذه القوانين والعادات »[١] • وقد أكد فيرث على العــديد الذى يمكن أن تقدمه الدراسات الانثروبولوجية لرجل الادارة الـــذى يجب ان يعالج مشكلات التغير الاجتماعى الناشئة عن التطــور الداخلى وعن الاتصال بالسلطة الاستعمارية[٢] • ويتفق كلا الكاتبين عــلى أن الانثروبولوجيا لا يمكن أن تطبق الا داخل حــدود السياســة التى ترسمها الحكومــة الاستعمارية لنفسها • ومن الجدير بالملاحظة أيضا أن الانثروبولوجيين الاجتماعيين ورجال الاجتماع قد اختلفت علاقاتهم بموضوع دراستهم اختلافا بعيدا • فأبناء المجتمعات البدائية على الجملة لا يقرأون الدراسات الأنثروبولوجية المكتوبة عنهم ، بينما يقرأ بعض أبناء المجتمعات الصناعية مؤلفات رجال الاجتماع • وهكذا يثير رجل الاجتماع ــ أو يتوقع أن يثير ــ بعض الاستجابات فى نفوس بعض الناس الذين يدرسهم ، مما يؤثر على دراسته • والواقع أن نهاية النظام الاستعمارى أكثر من حقيقة دراســة كثير من المجتمعات القبلية دراســة مستفيضة ، هى المسئولة عن تحول الدراســات الانثروبولوجية الاجتماعية حاليا ، وعن ذلك التقارب بين

---

(1) E. E. Evans - Pritchard, Social Anthropology (London 1951) pp. 109 - 10.

(2) Raymond Firth, Human Types (revised edition, London 1956) Chapter VII.

الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع فيما يتعلق بالدراسات النظرية والبحوث التطبيقية •

على أن التأثير العملى لعلم الاجتماع يمكن أن يكون أكبر مما كان بالفعل • فهناك علاوة على الجمهور الذى يهتم بالمسائل الاجتماعية اهتماما قويا ، قطاعا أكبر من السكان يمكن توجيهه ـ من خلال وسائل الاتصال الجماهيرى والمؤسسات التربوية ـ لكى ينظر الى بعض المشكلات الاجتماعية نظرة أكثر موضوعية وأقل انفعالا ، ويدرك ويرفض الآراء والسياسات غير السليمة • ويبدو ان علم الاجتماع قد ساهم من هذا الطريق فى تخفيف حدة التمييز العنصرى والتعصب [١] ، والنظر الى المجرمين ومعاملتهم على نحو أكثر انسانية •

والواقع أن علم الاجتماع قد استطاع بهذه الطرق المختلفة ، وأعنى : الوصف الدقيق للمشكلات الاجتماعية والبحث عن الأسباب والعلاج ، واعداد الاخصائيين الاجتماعيين ورجال الادارة ، وتنوير الرأى العام ، وكشف أنواع عدم المساواة والامتيازات وما تؤدى اليه من مجادلات سياسية ، استطاع علم الاجتماع بهذه الطرق أن يساهم فى تحقيق المثل الأعلى الذى صاغه ومؤسسوه صياغة دوجماطيقية وساذجة الى حد كبير وهو : اشتراك جميع الناس فى التحكم فى ظروف حياتهم الاجتماعية ، بحيث تدير الانسانية دفة حياتها بنفسها • وسوف نتناول فى الفقرة التالية ـ على عجل ـ واحدا من أبرز المظاهر الحديثة لهذا التوجيه الذاتى ، وأعنى عملية التغير الاجتماعى المخطط •

التخطيط الاجتماعى :

هناك اليوم قدر من التخطيط الاجتماعى فى جميع المجتمعات الحديثة •

---

(١) اذ قدم على الاقل الأساس لبعض المطبوعات التربوية الموجهة ضد التعصب العنصرى ، قارن على سبيل المثال سلسلة الكتيبات التى أصدرتها اليونسكو عن الأجناس .

وقد ظل فهم الناس للتخطيط حتى الوقت الراهن يكاد يقتصر على التحكم فى النشاط الاقتصادى وتوجيهه • ولم يلعب رجال الاجتماع سوى دور ضئيل فى تلك العملية • ونجد هـذا الوضع قائما أيضـا حتى فى تلك المجتمعات التى تبدو فيها الجوانب السوسيولوجية للنمـو الاقتصادى واضحة كل الوضوح ، كما هو الحال فى البلاد النامية مثلا • ولكن الناس بدأوا يدركون بسرعة ضرورة المعرفة السوسيولوجية وأهميتها لعمليـة التخطيط • ولقد توفر لدينا اليوم عـدد كبير من المؤلفات التى تتناول الجوانب الاجتماعية للنمو الاقتصادى ، وأخذ الاقتصاديون الذين ركزوا جهودهم على مشكلات التنمية الاقتصادية يعتمدون أكبر الاعتماد على النظرية والبحوث السوسيولوجية [١] •

وقد اعترفت برامج البحوث للجنة التخطيط فى الهند بأن رجـال الاجتماع يمكنهم أن يقدموا اسهاما هاما فى عملية التخطيط الاقتصادى • غير أن علماء الاجتماع لم يقدموا بعد على اغتنام الفرصة كاملة ؛ سواء من حيث اجراء دراسات مفصلة أو دراسة أهـداف ومشكلات التخطيط الهندى على نطاق موسع • ومن الاستثناءات البارزة لهذا دراسـة ديوب الرائعة عن تطور القرية [٢] التى يجدر بنا أن نستعرض نتائجها فى شىء من التفصيل فيما يلى :

« على حين أن يتحمل رجال التخطيط والادارة المسئولية الأساسية عن وضـع وتنفيذ مشروعات التنمية الريفية ، فان العلماء الاجتماعيين يستطيعون أن يقدموا لهم عونا لا يقدر فى ميادين التنظيم الاجتماعى ، والعلاقات الانسانية ، والثقافة والقيم التى سوف تتأثر بتلك المشروعات •• وينبغى على الدراسات السوسيولوجية التى ننصح بها هنا أن تقـدم تحليلات متكاملة للثقافة والتنظيم الاجتماعى فى بعض المجتمعات القروية الممثلة لمختلف أقاليم الهند اللغوية والثقافية • ويجب أن تهتم الى جانب

---

(١) انظر على وجه الخصوص كتابات جونار ميردال وآرثر لويس •
(2) S. C. Dube, India's Changing Villages.

تصـــوير التنظيم الاجتمـــاعى ، والاتجاهات ، وقيم النـــاس ، بابراز اتجاهات التغير ودوافعه بشكل خاص • ولابد من محاولة اكتشاف الجماعات التى تعمل بمثابة عوامل التغير وحمله فى المجتمعات القروية • كما أن مشكلة الاختيار عند قبول الأفكار والمستحدثات التى يقـــدمها العالم الخارجى تستحق هى الأخرى دراســـة مفصلة • ومن موضوعات البحث الأخرى التى تتميز بامكانيات نظرية وعملية كبرى ، موضـــوع القيادة وصنـــع القرارات فى المجتمعات القروية • وسيعرض الباحث فى هذا الصـــدد لمشكلات ديناميات الجماعة والانقسامات الموجودة داخلها بقدر كبير من العناية • كما تستوجب الأشكال التقليدية للأنشطة التعاونية فى القرى الهندية دراسة جادة هى الأخرى •

وقد أوضحت هذه الدراســـة الأهمية الحيوية للاتصال فى أى برنامج لتنمية المجتمع الريفى • ويضطرم هـــذا الميدان بتحديات مثيرة لبحوث العلوم الاجتماعية فمن الضرورى الكشف عن قنوات الاتصال الموجـــودة فعلا فى الريف الهندى ، وتقدير دور ووظيفة أنواع عوامل الاتصـــال المختلفة • ومن الأمور الجوهرية بنفس الدرجـــة تحديد أنماط الموضوعات والاثارة التى تؤثر تأثيرا فعالا فى تلك المجتمعات • ويلزم كذلك أن نقيم بعناية استجابة مختلف قطاعات السكان القرويين لمختلف أساليب الاتصال • كما أن دور التعليم المدرسى فى الاتصـــال وفى نشر الأفكار الحديثة يستحق الدراســـة والتقييم هو الآخر •البحوث الامبيريقية فى هذا الميـــدان لازمة كل اللزوم لوضع برامج اتصال ملائمـــة وفعالة فى نفس الوقت •

« ومن الميادين الأخرى التى يستطيع فيها العالم الاجتماعى أن يقدم اسهاما مفيدا لحركة تنمية المجتمع الريفى فى الهند ميدان اعداد دراسات حالة امبيريقية لمشروعات محددة ومواقف ميدانية معينة • وقد أكدنا أكثر من مرة فى ثنايا هذه الدراســـة على أهمية هـــذه الدراســـات كوسيلة تعليمية فى برامج اعـــداد اخصائى التنمية الريفية • فدراســـة الحالة المفيدة التى تحلل الاتجاهات المعقدة ، والمعتقدات والقيم ، ثم تقييم دور

كل منها فى موقف ميدانى معين ، تعتبر من أفيد وسائل تعريف اخصـائى المستقبل بمشكلات وصعوبات عمله المقبل • ويمكن اختبار الفروض التى ستسفر عنها هذه الدراسـة مرة أخرى من خلال الدراسات التقويميـة الأشمل والأعم ، ومن أجل وضع تعميمات أصـدق وأدق •••

« كما يجب تشجيع مشاركة العالم الاجتماعى فى برامج اعـداد اخصائى التنمية • اذ يمكنه أن يساهم بدور واضح فى انجاح هذه البرامج من خلال تقديم آرائه العملية الملموسـة فى الموقف القروى ، ومن ثم يصحح صورة الحياة القروية المهتزة بعض الشىء فى ذهن رجل الادارة بصفة عامـة •

« وأخيرا تعتبر المشروعات التجريبية من المجالات الهامة الأخـرى التى يمكن أن يتم فيها تعاون مثمر بين رجال التخطيط والعلوم الاجتماعية وذلك فى مراحل تخطيط وتحليل وتقييم هـذه المشروعات التى تتم على أسـاس تجريبى • فالمسح الذى يصممه العلماء الاجتماعيون بدقة قبل تنفيذ المشروع يجب أن يسبق مراحل تحـديد وبدء المشروع التجريبى نفسـه » •

وقد بدأ الاعتراف بشكل متزايد بقيمة علم الاجتماع : سـواء فى البحث أو اعداد العاملين ، فى عدد من الميادين الأخرى المتصلة بالتخطيط الاجتماعى فى الهند • فنجد علم الاجتماع يشغل مكانا هاما فى مجال اعداد الاخصائيين الاجتماعيين [١] ؛ وأصبح يلعب دورا أكثر أهمية فى اعـداد اخصائى التنمية الريفية وغيرهم من المسئولين عن برامج التنمية الريفية •

على أن الجوانب الأوسع لاستخدام علم الاجتماع فى التغير الاجتماعى المخطط لم تحظ بعد بمناقشة مستفيضـة [٢] • ومن الواضـح أن دور

(1) See M. S. Gore, Sociology and Social Work (Bombay 1962).

(2) But see the Symposium on Sociological Aspects of Social Planning(by Gunnar Myrdal, S. Ossowski and Charles Bettelheim, in Transactions of the Fourth World Congress of Sociology, Vol. II (London 1959).

رجل الاجتماع ظل مقتصرا الى حـد بعيد على كونه ناقـدا خارجيا ، يكشف عن بعض أسباب الفشـل والعقبات التى تعترض انجاز الخطط الاقتصادية • وتبدو هذه النقطة واضحة بشكل خـاص فى استعراض أوسوفسكى Ossowski لأوجه قصور وأخطاء التخطيط فى بولنده فيما بعد الحرب العالمية الثانية (١) • وتشغل المشكلة الاقتصـادية فى الهند مكانة جوهرية فى الوقت الحالى • وبوسع رجال الاجتماع أن يقـدموا أكثر اسهاماتهم العملية افادة بدراسـة أثر الثقافة التقليديـة ، والطائفة ، والأسرة على الانتاج الزراعى والصناعى ، ودراسة أنجح الوسـائل للوصول الى الأهداف المنشودة فى بعض مشروعات التخطيط المعينة • كما أن عليهم كذلك أن يبحثوا الآثار الاقتصـادية والاجتماعية للنمـو السكانى السريع ووسائل التحكم فى هذا النمو • وغنى عن البيان أن رجال الاجتماع سـوف يحتاجون فى مثل هـذه البحوث الى التعاون مع علماء اجتماعيين آخرين كرجال الاقتصاد ، والسكان ، والانثروبولوجيا ، وعلم النفس ، والى الاهتمام بأساليب تحقيق هـذا التعاون على الوجه الأكمل ، ذلك أن الفكرة قد ظلت فى الغالب وهمية ، أو لم تتحقق فى الواقع الا من خلال تجاوز عدد من الدراسات المستقلة تمام الاستقلال •

ويجب ألا نتصـور أن دور رجل الاجتماع سـوف يقتصر دائمـا على دور الناقد برغم أهميته التى لا جدال فيها ، أو أنه سيقصر دراساته على العوامل الاجتماعية للنمو الاقتصادى المخطط • فالتصنيع والنمـو الاقتصـادى يؤديان الى ظهور مشكلات اجتماعية جديدة كالجريمـة ، والأمراض العقلية ، والملل ، وعدم الرضى عن العمل الصناعى ، واستغلال أوقات الفراغ التى يتحتم عليه أن يشارك فى دراستها • كما أن التخطيط الاجتماعى نفسـه يخلق مشكلات البيروقراطية والمركزية ، والعلاقة بين الفرد والمجتمع المحلى ، وبين السلطات الحكومية والجمعيات الخاصة وغيرها من الموضوعات التى أصبحت من أبرز موضوعات الدراسة السوسيولوجية •

---

(١) انظر الحاشية السـابقة •

وهناك فى النهاية صلــة أكثر عمومية بين علم الاجتماع والتخطيط الاجتماعى ، ذلك أن نمــو علم الاجتماع كان مسئولا الى حــد ما عن توسيع فكرة التخطيط من مجرد الاقتصاد المخطط الى فكــرة المجتمع المخطط . كما استجاب علم الاجتمــاع فى نفس الوقت للتطورات التى حدثت فى دنيا الفكر السياسى والعمل السياسى . وكما كتب نهرو بصدد المناقشات التى دارت فى لجنة التخطيط القومى عام ١٩٣٨ : « لقد كانت الفكرة الأصلية وراء انشــاء لجنة التخطيط هى زيادة التصنيع .. غير ان التخطيط لا يستطيع أن يتجاهل الزراعة التى كانت عماد حياة الشعب كله ، ثم أن الخدمات الاجتماعية تتمتع بنفس القدر من الأهمية . وهكذا قادنا شىء الى آخر ، بحيث أصبح من المستحيل عزل شىء معين على حــدة ، أو التقدم فى اتجاه واحــد دون تقدم مواز فى الاتجاهات الأخــرى . وكلما أمعنــا التفكير فى عملية التخطيط هــذه كلما نمت فى سرعتها وفى معدلها بحيث كادت تستوعب كل نشاط تقريبا . ولا يعنى هــذا أننا نسعى الى تنظيم كل شىء والتحكم فيه ، ولكننا يجب أن نأخذ كل شىء فى اعتبارنا عندما نكون بصدد اتخاذ قرار بشأن قطاع معين من قطاعات الخطة [1] » . ومن واجب عالم الاجتماع أن يساعد على عملية أخذ كل شىء فى الاعتبار ، بأن يحدد بوضوح ويصف بدقة الصلات القائمة بين الظواهر الاجتماعية المختلفة ، الأمر الذى يجعل عملية التخطيط أكثر فعالية ، ويساعد على تجنب النتائج غير المتوقعة وغير المرغوبة وعلى الرغم من أنه لا يلزم أن يكون ناقدا بالضرورة ، الا أنه يقدم وسائل النقد . وهو فى كلا الجانبين يخــدم هدفا واحــدا يلتزم به عــلم الاجتماع والتخطيط على الســواء التزاما تاريخيا وهو : نمــو الحرية الانسانية وترقية العقل الانسانى .

([illegible] rlal Nehru, The Discovery of India, p. 402.

الفصل التاسع

المشــكلات الاجتماعية (*)

على الرغم من تعدد استخدامات علم الاجتماع ، كما حاولت توضيح ذلك فى الفصل السابق ، الا أنه يبدو أن كثيرا من علمــاء الاجتمــاع ، وبخاصـــة الذين يهتمون منهم بالخدمـــة التطبيقية ، يتطلعون الى علم الاجتماع التطبيقى فى ضوء قدرته على علاج بعض الشرور الاجتماعيـــة (أو اقتراح هـــذا العلاج على الأقل) • ومع ذلك فلم تبـــذل ســـوى محاولات نادرة ، للكشف بدقة عن طرق استخدام مبادىء علم الاجتماع ، ومفاهيمه ، ومادته ، استخداما مباشرا للتوصل الى حلول للمشـــكلات الاجتماعية [1] • ونستطيع أن نتعرف على الوضع الراهن من خلال المحاولة المنظمة التى قامت بها الجمعية الدولية لعلم الاجتماع لتلخيص تطبيقات المعرفة السوسيولوجية فى المجالات المختلفة [2] • ولقد لاحظ أصحاب

(*) ترجم هذا الفصل الدكتور محمد على محمد عن المصدر التالى :
Bottomore, T. B., Sociology, London, 1965.

(١) من الجـــدير بالذكر انه برغم كثرة ما يتردد حـــول العـــلم التطبيقى ، الا انه لا يوجـــد سوى عدد محدود جـــدا من المؤلفات والدوريات التى تتناول مباشرة علم الاجتمـــاع التطبيقى . وهناك دوريـــة بعنـــوان : علم الاجتماع التطبيقى عرضت لبعض المحاولات فى الولايات المتحـــدة بين عامى ١٩٢١ — ١٩٢٧ . وربمـــا تكون اهم دورية فى الوقت الحـــاضر فى هذا الميدان هى : المشـــكلات الاجتماعية (التى تصـــدر عن جامعة انديانا باشراف جمعية دراســـة المشكلات الاجتماعية) . ومن بين المؤلفات القليلة الهـــامة التى ناقشت المشـــكلات الاجتماعية فى علاقتها بالنظرية الســوســـيولوجية والبحث مناقشـــة منظمة ، كتاب راب وسيلزنيك برغم انه عرض للموضوع عرضـــا مدرسيا .
انظر : E. Raab & G. J. Selznick, Major Social Problems (N. Y. 1959).
وســـوف أعتمد فى هـــذا الفصل اعتمادا أساسيا على هـــذين المصدرين بالـــذات .

(2) See, Transations of the Fourth World Congress of Sociology (London, 1959), Vol. II.

المقالات الأساسية أنه لا توجد سوى أمثلة محدودة جدا هى التى كشفت عن تطبيق مباشر وناجح لعلم الاجتماع على المشكلات المختلفة التى تناولوها ، ومن ثم اكتفوا بعرض البحوث الحالية ، والاهتمام بصفة خاصة بالتساؤلات المنهجية •

وعلى أية حال ، فاذا كان من العسير أن نشير الى مشكلة بالذات ، أمكن حلها بنجاح ملحوظ بواسطة النظريات والبحوث السوسيولوجية ، الا أنه من المفيد أن نتعرف على ما أمكن تحقيقه على نطاق ضيق ، وماذا نتوقعه أو نأمل فيه فى هذا الميدان ، اذا استطاعت الدراسات السوسيولوجية أن تبلغ درجة ملائمة من التطور • ولعلنا نبدأ بفحص معنى المشكلة الاجتماعية • يقول راب Raab وسلزنيك Selznick « انها مشكلة فى العلاقات الانسانية التى تهدد المجتمع ذاته تهديدا خطيرا ، أو تعوق المطامح الرئيسية لكثير من الأفراد » [١] • وهما يذهبان الى أبعد من ذلك حينما يصفان المظهر الأول للمشكلة الاجتماعية بقولهما : « توجد المشكلة الاجتماعية حينما لا توجد لدى المجتمع القدرة على تنظيم العلاقات الانسانية بين الناس ، وتضطرب النظم السائدة ، وينتهك القانون ، وينعدم انتقال القيم من جيل الى آخر ، ويتحطم اطار التوقعات • والمثال على ذلك أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر الا اهتماما محدودا بجناح الأحداث ، بحيث أصبح هو الطريق الموصل الى الجريمة ، كما أنه يهدد الأمن الشخصى والملكية • كذلك يخشى ألا يستطيع المجتمع أن ينقل القيم الاجتماعية الايجابية الى الشباب • وبعبارة أخرى ينظر الى المشكلة الاجتماعية بوصفها تمثل انهيارا داخل المجتمع ذاته » [٢] • ومن ناحية أخرى عرفت باربارا ووتون Wooton فى مؤلفها : **العلوم الاجتماعية والباثولوجيا الاجتماعية**[٣] ما أطلقت عليه « الباثولوجيا الاجتماعية » تعريفا ضيقا على النحو التالى : « انها تضم كافة الأفعال ، التى يتم من

---

(1) Op. cit. p. 4.

(2) Op. cit. p. 6.

(3) Social Science and Social Pathology, (London 1959).

أجل منعها انفاق الأمـوال العامة ، أو التى يعاقب من يرتكبها ، أو هى كل ما يحتاج الى انفاق عام » • وينصب الاهتمام هنا على تعريف ميدان الدراســة تعريفا دقيقا قدر المستطاع ، يجعلنا نتجنب الصعوبات التى ترجع الى تباين الأفكار الذاتية حـول ما ينظر اليــه باعتباره يمثـل « مشكلات اجتماعية » • غير أن هذا التعريف يحدد نطاق الدراسة تحديدا غير ملائم ، طالما أنه يشـير فقط الى أفعال لا الى مواقف ، كما يهتم بتلك الأفعال التى تجذب اهتمام الدولة خلال فترة زمنية معينة • وهكذا فهو يستبعد من مجال الدراسة كثيرا من المواقف الهامــة ، وضروب السلوك ، التى يتسع نطاق الاعتراف بها كمشكلات اجتماعية مثل : الفقر ، وبعض أنماط أو درجات الصراع الصناعى ، والحرب فى العصور الحديثة • فى ضــوء ذلك كله أستطيع أن أتبنى ذلك التعريف الشامل الذى اقترحــه راب وسيلزنيك •

وهناك مشكلتان بالذات ، من بين المشكلات العديدة ، حظيتا بالدراسة الدقيقة والبحث هما : الجريمة والجناح ، والعلاقات الصناعية • وتكشف البحوث التى أجريت فى هــذين المجالين بوضــوح تام عن الصعوبات والاحتمالات الخاصــة بعلم الاجتماع كعلم تطبيقى • وربما تكون الجريمة والجناح هى التى جذبت اليها معظم اهتمام الأقطار الصناعية فى السنوات الأخيرة أكثر من المشكلات الأخرى • ويرجع ذلك الى الارتفاع المستمر فى معدلاتها من ناحية ، والى تناقص أهمية مشكلات أخرى مثل الفقر من ناحية أخرى • والواقع أن فحص انجازات البحوث السوسيولوجية فى هــذا المجال لابد وأن يفيد من مؤلف باربارا ووتون الذى أشرت اليه قبل قليل ، والذى قدم عرضا شاملا وتحليلا لمختلف الأعمال الحديثة • وقد اختارت ووتون احــدى وعشرين بحثا رئيسيا كمجال لدراســتها [1] ، ولاحظت أن هذه البحوث تشير الى اثنى عشر عاملا مختلفا « باعتبارها يمكن أن ترتبط بالجريمة أو الجناح » • وهذه العوامل هى :

---

(١) على اســاس الدقة المنهجية .

١ ـ حجم أسرة الجانح .
٢ـ وجود جانحين آخرين فى الأسرة .
٣ ـ عضوية الأندية .
٤ ـ التردد على الكنيسة .
٥ ـ سجل العمالة .
٦ ـ المكانة الاجتماعية .
٧ ـ الفقر .
٨ ـ اشتغال الأم خارج المنزل .
٩ ـ التغيب عن المدرسة .
١٠ ـ تصدع الأسرة .
١١ ـ المستوى التعليمى .
١٢ ـ الحالة الصحية [١] .

وقد كشفت بعد ذلك عن أننا لا نستطيع أن نعتبر أحد هذه العوامل سببا بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح ، ومن ثم خلصت الى نتيجة عامة مؤداها : « أن هذه الدراسات ـ برغم أنها اختيرت بهدف التحليل المنهجى المقارن ـ يمكن أن تنتهى بنا الى تعميمات محدودة جدا ، وذات تدعيم مشكوك فى قوته » [٢] . ولقد عبر باحثون آخرون عن وجهات نظر مماثلة . فجون ماك John Mack يلاحظ أن « مجموعة العوامل التى يمكن أن ترتبط بالجناح يتم حصرها فقط بالاعتماد على مدى مثابرة الباحث ، والمناهج المتاحة للاستخدام المتخصص وقت اجراء البحث . ومن المسلم به عموما ، أن كل هذه المقارنات تساعد على اقامة ارتباط مؤداه : الجناح يصاحب التصدع الأسرى ، والتقلب المزاجى ، وضعف القدرات

(1) Op. cit., Chapter III, pp. 81 - 135.
(2) Op. cit., p. 134.

الفكرية ، مثل التخلف العقلى ، أو انخفاض مستوى الذكاء ... الخ [١] .

وثمة اعتراف واسع النطاق بأن أهم اسهام للبحث فى هذا الميدان يتمثل فى دحض التفسيرات الشائعة للجريمة والجناح . فقد لاحظت باربارا ووتون : « أن القيمة الحقيقية للبحوث حتى الآن ـ فيما يتعلق بالتساؤلات الخاصة بالباثولوجيا الاجتماعية ـ هى اثبات عدم صحة كافة الأساطير الشائعة ، خصة وأن هناك نقصا واضحا فى توافر شواهد موثوق بها عن ارتباط العوامل التالية بالجريمة والجناح : الالحاد ، وعدم العناية بنوادى الشباب ، والحياة فى نطاق أسر تعانى مشكلات ، أو انشغال المرأة فى العمل ، أو أن صغار السن أكثر عرضة للجريمة من الكبار ، وأن انحرافات الأبناء هى نتيجة خطيئة الآباء ، أو أن المشكلات الأسرية تنتقل من جيل الى آخر . يضاف الى ذلك أن أية شواهد يمكن التوصل اليها سوف تصبح بدورها محاولات جديدة للبحث » [٢] .

كذلك كتب هيرمان مانهايم Hermann Mannheim فى محاولته لتقديم مسح مختصر لعلم الجريمة فى أمريكا يقول : « ان اثبات الحقيقة التى مؤداها : أن السكان البيض الأمريكيين ـ لا المهاجرين ـ هم الذين يتسببون فى ارتفاع معدلات الجريمة ، وأن المجتمع الأمريكى هو المسئول عن الجريمة بين الزنوج ، أكثر من الزنوج أنفسهم ، لا يعد أمرا هاما فحسب ، بل هو شىء غير مألوف ويعبر عن شجاعة فائقة ... كما قد يحتاج الأمر الى شجاعة غير عادية ، حينما نكتشف ـ على نحو ما ذهب ادوين سذرلاند Sutherland ـ أن بعض رجال الأعمال الأمريكيين ، هم فى الحقيقة من المجرمين المعتادين » [٣] .

---

(1) John Mack, «Juvenile Delinquency Research : A Criticism», Sociological Review 3 (37) July 1955, quoted by Gordon Rose, «Trends in the Development of Criminology in Britiain», British Journal of Sociology IX (1) March 1958.

(2) Op. cit., p. 326.

(3) Hermann Mannheim, «American Criminology : Impressions of a European Criminologist». British Journal of Sociology V. (4) December. 1954.

والواقع أن هذه النتائج عظيمة الفائدة ، سواء فيما يتعلق بتجنب السلطات العامة اتخاذ اجراءات علاجية غير ملائمة ، أو للتأثير فى الرأى العام على المدى البعيد • لكنه من العسير أن نقول أنها تقدم أساسا ثابتا لاتخاذ خطوات عملية مباشرة نحو المشكلات • ونستطيع فى الوقت الحاضر أن نميز خطين فكريين أساسيين بين الذين يعملون فى الميـــدان ويبالغون فى القيمة العملية لبحوثهم • فهناك من يرون أن دارسى الجريمة والجناح لم يفعلوا أكثر من وضع خريطة عامة تصور المجالات الرئيسية فى الحياة الاجتماعية التى يمكن أن يظهر فيها الجناح ، وأن المرحلة التالية لذلك هى التفرقة بين مختلف أنماط الجناح ، والبحث عن الاسباب النوعية المرتبطة بكل نمط منها على حدة [١] • ولاشك أن مثل هذه النظرة تنطوى ضمنيا على اعادة صياغة لتلك القاعدة التى وضعها دور كايم من أن لكل ظاهرة اجتماعية سببا وحيدا ، وأنه حينما يبدو أن للظاهرة أسبابا متعـــددة ، فان ذلك دليل على أننا لسنا بصدد ظاهرة واحدة ، بل أمام ظواهر عديدة متميزة ، لكل واحدة منها سببها النوعى [٢] • غير أن هذه القاعدة قـــد أعيد صياغتها دون اعتبار للصعوبات التى تواجهها ، أو امكانيات تطبيقها الواقعى فى دراسة الجريمة والجناح • وقد ظهرت هـــذه الصعوبات فى الدراسة دور كايم الخاصة عن الانتحار ، وسجلت منذ وقت بعيد • فمن الملاحظ أولا أن هناك درجة عالية من التعسف فى التفرقة التى أقامها بين النماذج المختلفة للانتحار [٣] • وثانيا أن الارتباطات السببية التى أشار

---

(1) See Gordon Rose, «Trends in the Development of Criminology in Britain» British Journal of Sociology IX (1) March 1958, p. 62.

(2) See : The Rules of Sociological Method, Ch. VI.

الواقع أن دوركايم قـــدم أمثلة لظواهر تبـــدو لها أسباب متعـــددة هى الجريمـــة والانتحار . وهو يذهب الى « أنه اذا كان الانتحار يعتمد على أكثر من سبب واحـــد ، فذلك يرجع الى وجـــود نماذج مختلفة للانتحار واقعيا . والأمر كذلك أيضـــا فيما يتعلق بالجريمـــة » . ولقد ظهر تطبيق القـــاعدة القائلة « بوجـــود نتيجـــة واحدة لسبب واحـــد بوضوح فى دراســـة دوركيم للانتحـــار » .

(٣) ومعنى ذلك ان هـــذه التفرقة ليســـت قائمة على الفروق الملاحظة فى الظواهر المدروســـة ، ولكنها تحددت من خـــلال تصـــور مسبق للأسباب المحتملـــة .

اليها لا يمكن بحال أن تكون مقنعة أو موثوق بها بصورة ملائمة • وهكذا يميل معظم علماء الاجتماع اليوم الى قبول فكرة مل J. S. Mill التى تقول بأن للظواهر الاجتماعية أسبابا متعددة أكثر من اعترافهم بالنقدالذى وجهه دور كايم الى صياغاته ، وأن الباحث فى مشكلة اجتماعية قد يشعر بانه يمكن أن يفيد من النظرية الموجهة ، أكبر من الفائدة التى تقدمها له تلك النظرية التى تشتمل على علاقة تلازمية بين الظاهرة وسببها • ولسوء الحظ أنه بالرغم من اهتمام التحليل السوسيولوجى بالعوامل والقوى والمؤثرات التى يقال أنها تكشف عن الظروف أو الشروط [1] ، الا أنه لم يحدث سوى تقدم ضئيل فى قياس هذه القوى بصورة دقيقة ، يمكن معها التنبؤ • يضاف الى ذلك أن القوى والعوامل المدروسة . قد تكون متعددة وغير متجانسة ، بحيث يتعذر تحليل الارتباطات المتبادلة بينها تحليلا دقيقا •

أما الخط الفكرى الذى الثانى الذى اهتم بصعوبات التفسير السببى ، فقد اقترح مدخلا مختلفا ، صاغته باربارا ووتون صياغة ممتازة فى فقرة تستحق أن تقتبس كاملة على النحو التالى :

ان معظم البحوث التى سنعرض لها فى الصفحات التالية ، كان يوجهها ذلك الأمل المتمثل فى أن الارتباطات بين المظاهر المختلفة للباثولوجيا الاجتماعية ، وبين الظواهر الاجتماعية الأخرى ستعبر عن علاقة بين السبب والنتيجة ، وأن ذلك بدوره سوف يمكننا من معرفة الأسباب بدقة • ومع ذلك فانه يصعب القول بأن هذا النوع من البحوث قد حقق نجاحا واضحا • ذلك أن التعميمات التى أمكن التوصل اليها كانت ضعيفة • فقليل منها هو الذى تسنده أعمال الباحثين ، بل ان تلك التى اعتمدت على هذه الأعمال كانت تكشف عن تباين كمى كبير • يضاف الى ذلك أن معظم هذه التعميمات لا يمكن أن تعتبر أسبابا ••• وعلى العكس من ذلك يلاحظ

---

(١) المثال على ذلك فكرة « الضغوط — المتعددة » المؤثرة فى الولاء السياسى للفرد .

أن سجل التجارب فى التنبؤ مشجع جدا وينمو نمــوا سريعا أيضا • ومع ذلك فان عوامل التنبؤ التى استعانت بها بعض البحوث الهامة ـــ كما سبق أن لاحظنا ـــ لا يمكن أن تكون أسبابا بالمعنى الذى حددناه ••• ان النتائج الثابتة والمحققة التى توصل اليها بحث مانهايم ووليكنز ، والتى ظهــر منها أن الخبرة السابقة فى المدارس الاصلاحية ، أو خلال فترة الاختبار القضائى ، مع التغير المستمر فى العمل ، يصعب الاعتماد عليها فى التنبؤ بسلوك المجرمين بعد الفترة التى يقضونها فى البروستالات ؛ هذه النتائج لا يمكن أن تفسر بأن الغاء المدارس الاصلاحية أو نظام الاختبار القضائى مثلا ، أو سن قانون يمنع العمال من ترك الخدمــة بارادتهم ، ســوف يؤدى الى نتائج أفضل • كذلك برغم أن العوامل التى استخدمها جلوك وجــلوك E. Glueck & S. Glueck جداول التنبؤ (مثل تغير نظام الأسرة) قد تعتبر أسبابا للجناح ، الا أننــا ما نزال ننتظر نتائج التحقق مــن صــدقها [1] •

ويبدو أن العلوم الاجتماعية يمكن أن تنطوى على فائدة أكبر فيما يتعلق بالدور الذى تقوم به فى اتخاذ قرارات عملية • اذ أن التنبؤ قد يكون هدفا أقل طموحا من السببية ، وهــو بالتأكيد يلائم قدراتنا الحالية والوسائل الفنية المتاحة • وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نتحدث كثيرا عن أسباب بعض الأحــداث الاجتماعية ، الا أننا قد نكون فى وضع يمكننا معه أن نختار من بين طائفة محدودة من القرارات أكثرها ملاءمــة للتوصل الى النتائج المرغوبة • والمبرر لذلك هو أن نطاق البدائل المحتملة محدود جــدا فالعوامل التى تلقى الضــوء على النجاح النسبى لبعض أساليب معاملة المذنبين ـــ مثلا ـــ يمكن حصرها بصــورة تفوق تحكمنا فى الملاحظات العديدة الضرورية للتوصل الى معرفة أسباب ارتكاب هؤلاء الناس تلك الجــرائم » [2] •

---

(1) Glueck and E. Glueck, 500 Criminal Careers, (New York 1930).

(2) Op. cit., pp. 323 - 25.

على أن بعض الدارسين الاجتماعيين قد توصلوا الى نتائج مماثلة . فقد أقام سارجانت فلورينس P. Sargant Florence تفرقة بين العلم التطبيقى والبحث الاجرائى ، حيث كتب يقول : « حينما يطلق على علم معين أنه تطبيقى ، فنحن نفترض أننا استطعنا اقامة بناء لنظرية عامة ، أو مبادىء مذهب محدد بواسطة العلم النظرى ؛ وهى بالتالى على درجة عالية من الثبات ... ومن ثم فاننا نهتم فقط بتطبيق هذه النظرية العامة عن طريق الاستنباط على حالة خاصة ... أما البحث الاجرائى – من ناحية أخرى – فهو لا يفترض بالضرورة أية نظرية ، أو مبدأ ثابت يمكن الاستنباط منه ؛ ذلك أن التعريف الاصطلاحى للبحث الاجرائى بأنه استخدام المنهج العلمى ، من أجل وضع أساس تحليلى وموضوعى يعتمد عليه المنفذون فى قراراتهم (انظر التقرير الأول للجنة الكفاية الانتاجية فى الصناعة ١٩٤٩ ، ص ١٧) يؤكد تأكيدا واضحا على المنهج أكثر من النظرية » [١] . كذلك طالب وليكنز L. T. Wilkins – الذى اشترك مع مانهايم فى الدراسة التنبؤية عن التدريب فى البروستالات – بتوسيع نطاق مناهج التنبؤ فى البحث الاجرائى [٢] .

وليست هناك ضرورة لاختيار أحد المدخلين واستبعاد الآخر تماما . اذ أن البحث يمكن أن يستعين بكلا الخطين الفكريين . غير أن هناك حاجة الى ايضاح نقطتين أخريين فيما يتعلق بالأهمية النسبية لهما فى الاستراتيجية العامة للبحث : الأولى أن البحث الاجرائى ليس هو علم الاجتماع التطبيقى ، فهو اجراء يعتمد على الخبرة العملية والمعرفة العامة ، أكثر من اعتماده على معرفة سوسيولوجية متخصصة ، أو على الطريقة السوسيولوجية فى التفكير . أما علاقته بعلم الاجتماع فتتمثل أساسا فى استخدام أساليب البحث ، والطرق الاحصائية الشائعة فى البحوث

---

(1) P. Sargant Florence, «Patterns in Recent Social Research,» British Journal of Sociology 1 (3), September 1950.

(2) Some Developments in Prediction Methodology in Applied Social Research,» British Journal of Sociology, VI (4) December 1955.

السوسيولوجية [1] • ولهـذا فهو يستطيع القيام بدوره دون اعتبار للنظريات أو الأوصاف السوسيولوجية (والسيكولوجية) • الا أن ذلك أمر غير مرغوب فيه من الناحيتين النظرية والعملية معا • ففى هذه الحالة لن يكون « ضوء العلوم الاجتماعية ساطعا » ، على نحـو ما أشـارت باربارا ووتون ، بوصفها ترشـد القرارات العملية ، وانما سوف يزداد الاعتمـاد أكثر فأكثر على بعض أساليب البحث ، ويصبح دور العلـوم الاجتماعية (كبناء نظرى وصفى) محدودا جـدا • كذلك سنلاحظ أنه حتى بالنسبة للتوجيـه العملى لن يكون اسهام البحث الاجرائى ـــ فى صـورة دراسات تنبؤية على الأقل ـــ كبيرا كما ذهب البعض ، ذلك أن النجاح أو الفشل فى التنبؤ بأفعال معينة ، لا يعنى دائما القدرة على حل المشكلة الاجتماعية المرتبطة بهذه الأفعال • تشهد على ذلك دراسة التدريب فى البروستالات ، التى أشارت اليها ووتون بصفة خاصة • فلقد استمرت المشكلة الاجتماعية للذين فشلوا فى هذه التدريبات ، كما أن التنبؤ الصادق بالفشل فيها لم يقدم أية دلائل على أسبابه ، وبالتالى لم يساعد فى التوصل الى العلاج الملائم •

والملاحظة الثانية أن محاولات صياغة تفسـيرات سببية للجريمـة والجناح قد خلصت الى عوامل غير متجانسة ، ومن ثم ظهرت تفسيرات تشير الى طائفة من الخصائص النفسية الفرديـة (مثل التقلب المزاجى والتخلف العقلى) والى مجموعة متنوعة من الظروف الاجتماعية (مثـل الطلاق ، والرعاية الأبوية ، والبيئة الاجرامية) • ونستطيع أن نلمس فى هـذا الميدان بالذات ، ذلك الاهتمام بالمشكلة العامة الخاصة بالعلاقة بين التفسير النفسى والسوسيولوجى • غير أنه لا توجد سوى بعض أعمال قليلة اهتمت بصياغة هذه المشكلة صياغة واضحة ؛ بل لا توجـد على الاطلاق ـــ فيما أعلم ـــ أية دراسـة استعانت بنموذج نظرى يؤلف بين بيانات سوسيولوجية وسيكولوجية •

---

(١) سنرى فيما بعد أنه غالبا ما ينظر الى علم الاجتماع التطبيقى فى ضـوء منهج البحث •

أما الميدان الثانى للبحث التطبيقى الذى أرى الاهتمام به فهو ميدان العلاقات الصناعية • ولقد كان الهدف الرئيسى للبحوث فى هذا الميدان هو اكتشاف أسباب الصراع الصناعى فى المشروعات الخاصة وعلى النطاق القومى ، بالاضافة الى المعوقات الأخرى للكفاية الانتاجية مثل ارتفاع معدلات الغياب ، والمرض ودوران العمل • وقد ظهرت فى هذا الميدان أيضا نفس الصعوبات التى واجهت دراسة الجريمة والجناح ، لكن هناك صعوبات أخرى ترجع الى تشعب المشكلات الصناعية •

غير أننى قبل تناول هذه المسائل ، أود أن أناقش نقطة أشرت اليها من قبل ، وهى أن الاسهام الأساسى لعلم الاجتماع يتمثل فى مهارة البحث • ويبدو ذلك بوضوح فى علم الاجتماع الصناعى بصفة خاصة • فقد لاحظ عدد ممن اشتركوا فى المسح الحديث للبحوث السوسيولوجية فى الصناعة [1] « أنه لاشك فى أن عالم الاجتماع ــ حينما تستعين احدى المنشآت بخدماته ــ يظهر بمظهر الشخص المدرب على استخدام أدوات معينة (مثل المقابلة) ، أو أنه فى الحقيقة ذلك الشخص القادر على أن يكون محايدا ازاء الجميع ، أكثر مما تتوفر لديه معرفة خاصة قابلة للتطبيق » [2] • ويرتبط ذلك ارتباطا واضحا بالقضية التى أثارتها باربارا ووتون والتى ذهبت فيها الى أن اسهام العلوم الاجتماعية فى الحياة العملية يتمثل فى تأكيد الاتجاه العلمى ، وفى استخدام بعض الأساليب الفنية للبحث • والواقع أن هذا التصور واسع الانتشار • ففى مجال البحوث الطبية ــ مثلا ــ يذهب البعض الى أن « كثيرا من الأطباء يقتربون من علماء الاجتماع ، حين ينظرون اليهم على أنهم أشخاص على درجة عالية من المهارة فى فن المقابلة وتقييم استمارات البحث » [3] • غير أن

---

(1) René Clémens et Pol Evrard, «La Connaissance sociologique et son application à la vie industrielle», Transactions of the Fourth World Congress of Sociology, II pp. 1 - 12.

(2) Op. cit., p. 3.

(3) Mary E. W. Gross and George G. Reader, «Collaboration Between Sociologist and Physician», Social Problems 4 (1) July 1956.

هـذا الاسهام لا يمثل سـوى جانب محدود فقط من علم الاجتمـاع التطبيقى ، خاصـة وأن أساليب البحث هذه تستخدم فى كافـة العلوم الاجتماعية • ولقد أشار كل من كليمنز R. Clémens وايفرار Evrard الى هذه الحقيقة • فبينما اعترفا بوجود حالات محدودة فقط لتطبيق مبادىء علم الاجتماع تطبيقا ناجحا فى حل مشكلات معينة ؛ حاولا أن يوضحـا اسهام علم الاجتماع الصناعى التطبيقى فى النهوض بالتنظيم • ولهـذا الاسهام جانبان : أولا : دراسـات البناء الاجتماعى لمشروعات العمل ؛ بحيث تساعد فى تطوير نظام السلطة والاتصال وبناء جماعات العمـل ؛ وثانيا : البرامج التدريبية للمديرين والمشرفين • وقد اعتبر كليمنز وايفرار الاسهام الثانى يمثل أكثر التطورات نجاحا • « اذ أننا نستطيع أن نلمس نتائج المحاولات الجادة لتطبيق علم الاجتماع بصـورة منظمة فى مجال تدريب أولئك الذين يشغلون أوضاع السلطة فى الحياة الصناعية ، ذلك أن للبرامج التدريبية العديدة للمديرين والفنيين ، والمشرفين ، وقادة النقابات ، تمثل أهم عوامل التغير الاجتماعى فى الصناعة الحديثة » (١) • على أن هـذا التقييم الايجابى لا يحظى بموافقة عامة • فقد كتب وليم فوت وايت W. F. Whyte يقول : « ان من المؤكد أنه قد حدثت تغيرات هامة فى العلاقات الانسانية فى الصناعة ، لكن ليست لدينا مبررات كافية تدفعنا الى الاعتقاد بأن هذه التغيرات قد تحققت نتيجة للبحث والتدريب المعتمد عليه • اذ أن هناك مئات الآلاف من برامج العلاقات الانسانية فى الصناعة ، ولست أعرف أكثر من اثنين فقط هما اللذان خضعا لتقويم حقيقى يرتكز التدريب الدولى (*) ، حيث كانت استجابات العمال لرؤسائهم الذين تلقوا هـذا التدريب أكثر سلبية بعـد البرنامج ، اذا ما قورنت باتجاهاتهم قبل تطبيقه • أما الحالة الثانية فيمثلها ديترويت ايدسون Detroit Edison

---

(١) Op. cit, p. 3.

(*) International Harvester Programme.

حيث يلاحظ أن الخســارة المسجلة التى حققها أحــد الأقسام ، كانت تفوق المكاسب التى حققها القسم الآخر [١] .

ويرى وايت أن عــدم ملاءمــة البحث التطبيقى فى الصناعة ترجع الى الفشــل فى ادراك السياق الاجتماعى الأشمل للمشكلات الصناعية . كذلك أشــار جورج فريدمان G. Friedmann الذى قدم اسهاما واضحا فى دراســة مشــكلات العمل الصناعى فى علاقتها بنماذج مختلفة للانساق الاجتماعية والسياسية ــ الى انتقادات مماثلــة . فمن بين الصعوبات الرئيسية للبحث التطبيقى فى هــذا الميدان تلك التى ترجع الى الحقيقة التى مؤداها : أننا حينما ندرس أسباب مشــكلة عملية معينة ، نواجه بشبكة من العوامل المتداخلة ، تتعدى نطاق الموقف المحــدد الذى تظهر فيه المشــكلة ذاتها . فدراســة معوقات الانتاجية ؛ أو مقاومة التغــير التكنولوجى ، أو أساليب رفع مستوى كفاءة الادارة ، أو التخفيف من الصراعات الصناعية أو منعها أو حلها سلميا ، تدفعنا بالضرورة الى الاهتمام بتساؤلات أخرى أشمل منها تتعلق بنظام الملكية ، والتدرج الاجتماعى ، والحراك المهنى ، وبنــاء الأسرة والأيديولوجيات ، والتقاليد الثقافية السائدة [٢] . يضاف الى ذلك أننا حينما ندرس شبكة العوامل المتداخلة هذه ، قد لا نكشف فقط عن تعقد الأسباب المؤدية الى مشكلة اجتماعية بعينها ، ولكننا ســوف نوضح الارتباطات بين المشــكلات الاجتماعية . فقد يتطلب حــلّ مشكلة معينة ــ مثلا ــ أن نبدأ أولا بحل مشــكلات

---

(1) William F. Whyte, «Problems of Industrial Sociology,» Social Problems 4 (2) October 1956. pp. 148 - 60.

يوضح هــذا المقال بصفة عامة مشكلات البحث التطبيقى ، ويقــدم بعض الاقتراحات الهامة لاجراء دراسات اكثر فعالية .

(٢) بالرغم من ان هــذا التشعب يظهر بوضــوح فى حالة المشكلات الصناعية ، الا اننا نستطيع ان نكشف عنه ايضــا فى مجالات اخــرى . فقد تتاثر معدلات الجريمــة والجناح فى المجتمع باسلوب الحياة الســائد الــذى يؤكد بقوة بالفة المنافسة الاقتصادية ، والانجاز الفردى فى ضــوء الثروة ، او عدم ملاءمة فرص التعليم العام .

أخرى ، أو أن حل احدى المشكلات قد يعوق حل مشكلة غيرها ، أو يؤدى الى ظهور مشكلة جديدة •

وإذن فحينما يحاول عالم الاجتماع تطبيق معرفته عليه أن يواجه نوعين من الصعوبات : أولا : تلك التى تتعلق باقامة ارتباطات سببية محددة ، وثانيا : تحديد المشكلة تحديدا لا يعزلها كثيرا عن علاقاتها بالملامح العامة الرئيسية للبناء الاجتماعى والثقافى • وأننى أعتقد أن بحث هاتين المشكلتين سوف يجعلنا نسلم بوجود نماذج مختلفة للمشكلات الاجتماعية سواء من حيث أهميتها أو امكانية التوصل الى حلول لهـا • فهناك بعض الشرور الاجتماعية ــ مثلا ــ التى لا يمكن تجنبها أو استئصالها تماما • فقد ذهب دور كيم الى أن الجريمة ظاهرة طبيعية فى المجتمعات الانسانية نستطيع التخلص منها الى حد ما عن طريق الضوابط الاجتماعية والجزاءات العقابية ، تؤدى أيضا الى تحطيم بعض القيم الاجتماعية الراسخة ، هذا فضلا عن أن لكل مجتمع معدله الطبيعى الخاص للجريمة • وربما نستطيع تفسير ارتفاع معدلات الجريمة والجناح فى المجتمعات الصناعية الحديثة بأنه يشير الى الضعف النسبى للضبط الاجتماعى فى هذه المجتمعات • وبالمثل يمكن تفسير ارتفاع معدلات الطلاق ــ فى جانب معين ــ باعتباره نتاجا لسعى الأفراد نحو تحقيق غايات أخرى ــ مثل الحرية الشخصية ، والحب الرومانسى المثالى ــ التى تعد فى ذاتها غايات مرغوب فيها • كذلك يمكننا أن ننظر الى كثـير من المشكلات الاجتماعية التى تعانى منها المجتمعات المختلفة فى الوقت الحاضر ، بوصفها مصاحبات لعمليات التصنيع والتحضر التى تؤدى الى اضطراب النظام القائـم • على أن ذلك كله لا يجب ان يجعلنا نخلص الى نتيجة مؤداها : أن البحث السوسيولوجى فى هـذه الحالات عديم الجدوى ، اذ أن الدراسات السوسيولوجية قد تشجع على ظهوراتجاه أكثر واقعية نحو هذه المشكلات ، وتحول ــ بصفة خاصة ــ دون الأحكام الأخلاقية المتطرفة ، التى غالبا ما تبالغ فى الصعوبات ؛ كما قد تساعد هذه الدراسات كذلك ــ على الأقل ــ فى اقتراح أساليب القضاء

على هذه الشرور دون أن يؤثر ذلك تأثيرا سيئا فى القيم الاجتماعية الأخرى وتقدم طرقا أكثر فعالية لمواجهة النتائج المترتبة على ذلك • وهكذا سيهتم علم الجريمة الحديث بأساليب مقاومة الجريمة والجناحوبالطريقة الأكثر نجاحا فى معاملة المذنبين • وتهـدف دراسات الزواج والأسرة الى كشف العوامل التى يمكن أن تتسبب فى الصراع الزواجى والطلاق ، والتى يمكن الاستعانة بها فى الاستشارات الزواجية ، والأساليب الأخرى التى تستهدف التقليل من حدوث هذه المشكلات ، أو حلها دون أن تنهار الأسرة •

وهناك مشكلات اجتماعية أخرى يمكن حلها ، أو هى تمثل خطرا داهما على المجتمع الانسانى بحيث يتعين التوصل الى حل جـذرى لها • ونجد فى الفئة الأولى منها مشكلة الفقر فى البلاد المتخلفة اقتصاديا • وهنا يتطلب الحل من عالم الاجتماع أن يبدأ أولا بدراسة الوقائع ، لكى يتمكن من كشف عامل أو مجموعة عوامل تسبب المشكلة • وقد يكون من العسير — فى حالات أخرى — معرفة الأسباب ، لكن البحث السوسيولوجى سوف يساعد على الأقل فى القضاء على تلك المعتقدات الخاطئة حول الأسباب ، وتقديم وصف كاف لموقف المشكلة ، بحيث يسهم ذلك فى ترشيد علاجها • والواقع أن تجريب وسائل مختلفة للعـلاج ، وتقييم نتائجها بعناية — بالاضافة الى البحث الاجرائى — يمكن أن يساعد على حـل المشكلة أو السيطرة عليها ، وحتى وان كنا لانزال نجهل أسبابها الى حـد كبير • أما الفئة الثانية من المشكلات الداهمة ، فيمكن أن نقدم أظهر مثال لها فى عصر الأسلحة النووية الذى نعيشـه ، وهى مشكلة الحرب • وليس هناك من يستطيع الزعم بأن عالم الاجتماع وحده أو عالم الاجتماع والنفس معا سـوف يقدمان حـلا شاملا لهذه المشكلة • كذلك لا يعترض أحـد على أن الحرب بالأسلحة النووية سـوف تكون دمارا ، أو أنها من المحتمل أن تقضى تماما على البشرية ، ومن ثم يمكن أن تسهم البحوث الاجتماعية والنفسية — على الأقل — فى معرفة الأسباب المؤدية الى تطور مواقف التوتر والصراع ، وبالتالى تساعد القادة المسئولين على تجنبها • كمـا يتعين على علماء الاجتماع — نتيجة لذلك — أن يبذلوا جهـدا غير عادى

فى بحث مشـكلات الحرب والسـلام ، وأن ينشروا نتائج بحوثهم على أوسع نطاق ممكن • ومن المؤسف حقا أن فئة قليلة جـدا منهم هى التى اهتمت بهذا العمل [1] ، برغم الصعوبات التى تواجهه • فهو عرضـة للتأثر بالنزاع السياسى ، كما يصعب الى حد كبير اخضاع هـذه الظواهر للتصميم الدقيق للبحث المستخدم بتوسع فى الوقت الحاضر •

ان هـذا المثال الأخير قد كشف بوضوح عن خاصية حاولت التعبير عنها بجلاء فى مواضع متفرقة من هـذا الفصل والفصل السابق • فعالم الاجتماع نادرا ما يستطيع التوصل الى حـل مباشر للمشكلة ، أو اقتراح سياسة ملائمـة تماما ، حتى وأن كان يعلم الأخطاء بدقة • ذلك أن كل حل لمشكلة ، أو وضع سياسـة معينة ، هو قرار سياسى ، يعبر عن ارادة جماعة خاصـة لتغـير أسلوب معين للحياة أو الاحتفاظ به مستقرا ، والتعرف وفقا لمثاليات اجتماعية خاصـة • واذن فعالم الاجتماع يمكن أن يقدم المعلومات ، ويوضح سياق المشكلات ، ويشـير الى الأسباب والظروف ، ويكشف عن فوائد ونفقات ضروب السلوك البديلة • وقد تؤثر دراساته فى المـدى البعيد ــ وان كنت متأكدا من ذلك ــ فى المثاليات الاجتماعية ذاتها ، غير أن القرارات السياسية فى نهاية الأمر تستند الى الحكم ، أو الحكمة السياسية والمصالح • ولهذا فان أى افتراض آخر يحاول أن ينسب الى علماء الاجتماع دور فلاسفة الملوك فى صورة حديثة ، يمثل عودة الى الأوهام التى تنطوى عليها السياسة الوضعية عند كونت •

ولعله من الملائم فى نهاية هـذا الكتاب ، أن أبدد أى تصور خاطىء لقيمة علم الاجتماع بوصفها ترجع الى تطبيقاته المختلفة فى الحياة العلمية ، التى أوضحناها فيما سبق • اننى لا أستطيع الاجابة عن التساؤل الذى

---

(١) انظر الاسهامات الرئيسية فى هـذا الميدان :
Erich Fromm, May Man Prevail ? An Enquiry into the Facts and Fictions of Foreign Policy (N. Y. 1961) & R. Aron, Paix et Guerre entre les Nations (Paris, 1962).

مؤداه : ما هــو استخدام علم الاجتماع ؟ بأكثر من أنه يوسع دائرة تعاطفنا وتخيلنا ، ويزيد من فهمنا لكائنات انسانية أخرى خارج النطاق الضيق للعصر الذى نعيش فيه أو الموطن الذى ننتمى اليــه أو الموقف الاجتماعى المحدود ، بدلا من أن أذهب ببساطة الى أنه يقــدم أساليب اكتشاف علاج الأمراض الحالية . لكن هذه الأهداف كلها ليست متعارضة تماما . وربما كانت ذات أهمية عملية واحــدة على المــدى البعيد . ولهذا فان معظم علماء الاجتماع يشعرون فى كل مجالات عملهم ، بأنهم يقدمون اسهاما من أجل النهوض بالحياة الاجتماعية .

قراءات مقترحـــة

أشرت فى المتن الى أن التراث المتعلق بعلم الاجتماع التطبيقى ليس وفيرا • ومع ذلك فباستطاعة القارىء أن يرجـــع الى المؤلفات والدوريات التاليـــة :

E. Raab and G. J. Selznick, Major Social Problems (New York, Row, Peterson & Co; 1959).

Transactions of the Fourth World Congress of Sociology, Vol. II (London, International Sociological Association, 1959).

R. M. Titmuss, Essays on «The Welfare State» (London, Allen & Unwin, 1958).

Social Problems (published by the Society for the Study of Social Problems, 1953, onwards).

يمكننا أن نجد استعراضا جيـــدا للبحث الاجتماعى التطبيقى ، وعلى الأخص فى مجال الجريمـــة والجناح فى :

Barbara Wooton, Social Science and Social Pathology (London, Allen & Unwin, 1959).

اذا أراد القارىء مناقشة عامة مفيـــدة للتخطيط الاجتماعى فيمكن الرجوع الى أعمال المؤتمر الدولى الرابع لعلم الاجتماع • انظر :

Transactions of the Fourth World Congress of Sociology, Vol. II.

وللتعرف على الجوانب المختلفة للتخطيط والسياسة الاجتماعية فى الهند يمكن الرجوع الى المؤلفات التالية :

S. C. Dube, India's Changing Villages (London, Routledge & Kegan Paul, 1958).

Report of a Seminar on Some Aspects of Social Planning (Agra, Institute of Social Sciences, 1960).

R. N. Saksena (ed.) Sociology, Social Research and Social Problems in India (Bombay, Asia Publishing House, 1961).

الباب الثالث

الانثروبولوجيا والتغــير الثقافى

الفصل العاشر : مشكلات التغير الثقافى

الفصل العاشر

مشكلات التغير الثقافى (*)

---

١ ـ طبيعة المشكلة :

فرغنا الآن من عملية تعريف الثقافة ووصفها التى بدأناها فى الفصل الرابع من هذا الكتاب • ولاشك أن وصفنا للثقافة ليس شاملا فى كثير من جوانبه ، ذلك أننا قد اقتصرنا على تناول المفاهيم الرئيسية ، ملقين عليها القدر الكافى من الضوء ، لكى نعطى للقارىء فكرة عن تنوع السلوك الانسانى الذى يكاد لايحده حد • كما لاحظنا أن كل مجتمع انسانى ، متعلما كان أو أميا ، يتميز بثقافة خاصة تحكم سلوك أعضائه من حيث علاقتهم ببيئتهم ، وعلاقات التفاعل الاجتماعى التى تتم بينهم ، وعلاقتهم بعالم ما فوق الطبيعى •

وقد أوضحت تعريفات الثقافة التى ناقشناها أن جزءا من الثقافة على الأقل يتصف بأنه تقليدى • والواقع أن هذه السمة كامنة فى الحقيقة التى مؤداها أن الانسان يتعلم الثقافة « كعضو فى المجتمع » • أى أنه يتعلمها عن الأعضاء الآخرين فى الجماعة الاجتماعية • ومن هنا فان الثقافات قد تعتبر أشياء ثابتة مستقرة • بل اننا نجد فى كل ثقافة لدينا عنها تاريخ أو آثار أن هناك بالفعل بعض العناصر الثقافية التى تظل متصلة

(*) ترجم هذا الفصل الدكتور محمد الجوهرى عن المصدر التالى :
Palph L. Beals and Harry Hoijer, An Introduction to Anthropology, Fourth Edition, The Macmillan Company, New York, 2nd Printing, 1972, pp. 574 - 599.

عبر الزمان • ولكننا لاحظنا خلال الفصـــول السابقة حقيقة أخرى على نفس القـــدر من الوضوح ، وهى أن الثقافات ليست ساكنة ولا ثابتة على الاطلاق •

وتبدو هذه الحقيقة واضحة بجلاء حتى بالنسبة لأقل الملاحظين خبرة • اذ نجـــد ــ على سبيل المثال ــ أن أجدادنا كانوا يأتون بعض أساليب السلوك المختلفة « البالية » بعض الشيء ، التى تتضح فى أزيائهم ، وفى كلامهم ، وفى عاداتهم الاجتماعية • وتمدنا الكتب ، والصحف ، والصـــور القديمـــة بنفس الشواهد • ومن أطرف نماذج التغير الثقافى أن تطالع الاعلانات فى الصحف والمجلات القديمـــة • صفوة القول أنه تماما كمـــا تختلف الثقافات المعاصرة عن بعضها ــ فى قليل أو كثير من السمات ــ بسبب تباعدها المكانى ، كذلك الحال بالنسبة للثقافة الواحدة التى تختلف اختلافا طفيفا من جيل الى آخر ، على حين يزداد هذا الاختلاف مـــن قرن الى آخر ، ويظل يزداد حدة كلما تباعدت عن بعضها الفترات الزمنية التى نقارن بينها • والثقافات لا تتغير بالطبع بنفس السرعة ، فمن الممكن أن تشهد احدى الحقب تغيرات كبرى فى ثقافة معينة ، وتغيرات شديدة الضآلة فى ثقافة أخرى • ومن أهم المشكلات التى تواجه الأنثروبولوجى ، بل والمشتغلين بالعلوم الاجتماعية على العموم ، تحليل وتصنيف البيانات الثقافية من أجل الوصول الى فهم أفضل لظواهر التغير الثقافى والثبات الثقافى •

وقد أدى ظهور التحليل الوظيفى والبنائى فى ميدان الأنثروبولوجيا منذ ثلاثينات هذا القرن الى رفض العوامل التاريخية ، ورفض الاتجاهات التطورية والتاريخية ، كما تجاهل ظاهرة التغـــير الثقافى • وكانت تلك الدراسات الوظيفية تصف نفسها بفخر بأنها دراسات آنية Synchronic ، أى أنها تدرس الثقافة الواحدة أو مجموعة الثقافات فى لحظة زمنية معينة • أما الدراسات التاريخية فكانت توصف بأنها دراسات تتابعية diachronic •

وكانت الدراسات التاريخية فى الأنثروبولوجيا تعتبر دراسات تخمينية ولا يمكن الركون اليها • ولذلك فلا يمكن استخـــدام الوقائع التاريخية الا اذا كانت محققة وثابتة • ولكن لا شك أن هذه الأفكار المتطرفة قـــد تغيرت تغيرا جذريا فى السنوات الأخيرة • فقد تخلت العلوم الطبيعية منذ أمـــد بعيد عن تصورات القرن التاسع عشر عن العلم باعتباره بحثا عن قوانين ثابتة لا تتغير • وأصبحت تلك العلوم اليوم تسلم بأن معظم النتائج التى تنتهى اليها انما هى قضايا احتمالية • ويصدق نفس الكلام بطبيعة الحال على الدراسات الآنية والتتابعية فى العلوم الاجتماعية • وأصبح الأمر الأكثر أهمية هو ما اذا كانت الدراسات وصفية أو تفسيرية ، أو ما اذا كانت دراســـة تخصيصية أو تعميمية • فالدراسات الآنية والتتابعية يمكن أن تنتمى الى كلا النوعين •

والدراسات الآنية تؤكد أو تفترض سلفا وجـــود الثبات الثقافى • وســـوف نستطرد فيما بعـــد تفصيل الفروق بينهما ، ولكننا نكتفى هنا بالقول مؤقتا أن جميع دراسات التغير الثقافى دراسات تتابعية ، لأنهـــا تغطى فترة زمنية معينة • على أننا يجب ألا ننظر الى الدراسات الآنيـــة والتتابعية كمناهج متعارضة فى دراسة الثقافة • ذلك أن الثبات والتغير معا من سمات أى ثقافة • فالدراســـة الآنية يمكن أن تتناول ــ مثلا ــ العلاقة بين نسبة الأسر فى ثقافتنا التى تسيطر عليها النساء وعلاقة ذلك بالانتماء السلالى ، أو الفقر ، أو الأداء الوظيفى لبرامج رعاية الأطفال المحتاجين • ولكن ما أن يتحول اهتمامنا الى النسب المتغيرة لمثل هـــذه الأسر ، حتى تتحول الدراسة حتما الى دراسة تتابعية •

٢ ــ الاختراع والانتشــار :

من الممكن ــ كما لاحظنا فى الفصل الرابع ــ التمييز بين مصطلح **ثقافة** وعبارة **ثقافة معينة** تمييزا جزئيا على النحو التالى : يشير مصطلح **ثقافـــة** الى مجموع مخططات الحياة التى يمارسها الانســـان فى كل مكان

وزمان ، على حين أن عبارة ثقافة معينة تشير الى مجموعة بعينها من مخططات الحياة موجودة فى مجتمع معين فى مرحلة معينة من مراحل تاريخه • وهذا التمييز على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لدراسة التغير الثقافى • لأنه من الواضح أن التغير فى ثقافة ما لا يمكن أن يحدث الا عن طريق الاختراع ، كأن يصبح أحد التجديدات فى ميادين التكنولوجيا ، أو التنظيم الاجتماعى ، أو الدين ، أو اللغة جزءا من التراث الثقافى للانسان ككل • ونلاحظ ــ من ناحية أخرى ــ أن التغير فى ثقافة ما يمكن أن ينشأ اما نتيجة اختراع يتم داخل مجتمع معين ، أو نتيجة اتصال بين المجتمعات وما ينشأ عن هذا الاتصال من استعارة أو انتشار عنصر ثقافى معين من مجتمع الى آخر •

من الواضح اذن أن كل نمط ثقافى ، سواء كان يتضمن تقنية معينة ، أو أسلوبا من أساليب السلوك مع الأقارب ، أو طريقة معينة فى الحديث ، أو شكلا من أشكال العبادة الدينية ، من الواضح أن كل نمط من هذا ، وكذلك كل نتاج لتلك الأنماط يرجع فى أصله الى عملية اختراع قدمه شخص معين فى مكان معين • وعلى الرغم من أن بعض الأنماط والمنتجات الثقافية تظل بالتأكيد داخل حدود ثقافتها الأصلية ، ولا تتعرض الا لتغيرات بطيئة عبر الزمن ، فانه من المؤكد بنفس الدرجة أن أنماطا ومنتجات ثقافية أخرى تنتشر من ثقافتها الأصلية الى الثقافات المجاورة • ومن ثم فهى لا تخضع للتغيرات التى يحدثها فيها الزمن فحسب ، وانما تخضع كذلك لتغيرات متنوعة تدخلها عليها الثقافات المختلفة التى دخلت اليها • فالاختراع والانتشار ، اذن ، من العناصر الأساسية فى دراسة التغير الثقافى •

وتنقسم الاختراعات الى نوعين رئيسيين : الاختراعات الأولية أو الأساسية ، وهى تلك التى تقوم على اكتشاف عنصر جديد ، والاختراعات الثانوية أو التحسينية ، وهى تلك التى تقوم على مجرد تطبيق (جديد) لمبدأ معروف من قبل • فالقوس يمثل اختراعا أساسيا : فقد حدث أن

اكتشف شخص ما ، ربما عن طريق الصدفة ، أنه اذا ثنيت قطعة رفيعة من الخشب عن طريق توصيل حبل بين طرفيها ، فانها تمثل مصـــدر قوة لم يكن معروفا من قبل • ونحن لا نعرف متى ولا أين تم صنع أول قوس (ويحتمل أن يكون هذا قد تم فى مكان ما من العالم القديم قرب نهاية العصر الحجرى القديم) ، ولا نعرف كيف استخدم المخترعون الأصليون تلك الأداة الجديدة • ولكنه من الواضح ، من واقع التاريخ الذى أعقب ذلك ، أن فكرة القوس طبقت فى صورة عديد من الاختراعات الثانوية • ومن هذه الاختراعات استخــدام القوس فى دفع السهام ، والقوس الثاقب الذى يستخدم فى عمــل الثقوب ، أو توليد النار عن طريق الاحتكاك ، وكذلك القوس الموسيقى ، وسائر الأدوات الأخرى (كالهارب Harp ، والبيانو ، والكمان ، والبانجو) التى تستخدم حبلا مشدودا لاصــدار نغم موسيقى • وبنفس الطريقة أدى اكتشاف البخار المتولد عن غليان المــاء ، والبخار المتولد عن احتراق البنزين ، والكهرباء كمصــادر جديدة للطاقة الى خلق عدد كبير من الآلات وأدوات النقل الحديثة •

ان القول المأثور بأن « الضرورة أم الاختراع » هو ككثير من الأقوال الأخرى فيه من الصـــدق أقل مما فيه من الفساد • حقيقة أننا نجــد — وخاصة فى مجتمعاتنا المعاصرة — أن كثيرا من الاختراعات الثانوية ، بل بعض الاختراعات الأساسية كذلك ، هى ثمرة البحوث والتجارب الموجهة عمــدا • الا أن هــذا الوضع نادر فى سائر المجتمعات الأخرى ، وهــو لم يعرف فى مجتمعنا الا مؤخرا فقط • والأرجح أن معظم الاختراعات التى صنعها الانسان قد تمت بطريق المصادفة البحتة ، كنتائج غير متوقعة لبعض الأفعال ، وربما للعب ببعض المواد والأدوات • ومن الظواهر التى نلاحظها فى جميع المجتمعات أن الحرفيين المهرة كثيرا ما يتسلون باستكشاف امكانيات الأدوات والوسائل التى يستخدمونها عن طريق محاولة التأليف بين الوسائل بطرق مختلفة ، ومحاولة تعجيل نتائجها وتحسينها • فهــذا النوع من الفضول ، علاوة على الخبرة والمهارة التى تعرفها الحرفة ،

وليس الضرورة ، هـو الذى يؤدى الى ظهور الاختراعات الأساسية . وقد يؤدى كذلك الى تطبيق المبادىء المعروفة فى استخدامات جديدة .

وباستثناء الاختراعات الكثيرة التى لدينـا معلومات وافية عنها فى التاريخ الحديث لثقافتنا ، فليست لدينا سـوى معلومات ضئيلة الغاية عن أصـول الاختراعات الأساسية التى شهدها التاريخ الانسـانى . فمعلوماتنا عامة كل العموميـة عن تاريخ سيطرة الانسـان على النـار واستخدامه للقوس فى استخداماته الكثيرة ، والأساليب الفنية التى تقوم عليها الزراعة وتربية الحيوانات الداجنة ، وغيرها كثير من الاختراعات الرئيسية التى تنهض عليها ثقافاتنا المعقدة الراهنة ــ بما فيها العجلـة ، والقوس ، والتقويم ، والكتابة ، وطرق تربية الحيوان والنبات ، وطرق تصنيع المعادن ــ كل ما نعرفه عنها أنها قد حدثت فى مكان ما فى الشرق الأدنى والمناطق المحيطة فى فترات متباينة تتراوح بين سنة ١٠٫٠٠٠ قبل الميلاد وبداية التاريخ المسيحى . وقد انتشرت هذه الاختراعات من مكان نشأتها الى أن وصلت الأماكن التى تنتشر فيها حاليا ، مارة أثناء ذلك بعديد من التغييرات والتعديلات والتحسينات بواسطة اختراعات أخرى ثانوية .

على أننا يجب ألا نفترض أن جميع الاختراعات قد تمت فى العالم القديم فقط . اذ نجـد أن الهنود الحمر الأمريكيين ــ وخاصة هنـود المكسيك ، وأمريكا الوسطى ، وبيرو ــ قد توصلوا الى طرق تربية النباتات ، وطرق تصنيع المعادن ، والكتابة ، والتقويم (وذلك على سبيل المثـال لا الحصر) بشكل مستقل تماما عن أبناء العالم القديم . وحدث بعـد عام ١٤٩٢ (*) أن دخلت كثير من منتجات اختراعات العالم الجديد الى

(*) يشير المؤلف الى واقعة اكتشاف العالم الجديد على يد الرحالة كريستوفر كولمبوس فى عام ١٤٩٢ . (المترجم)

ثقافات العالم القديم وتكاملت معها • من هذا مثلا دخول محاصيل الذرة ، والفول ، والقرع ، وكثير من محاصيل العالم الجديد الى الثقافات الزراعية الراقية فى أوروبا ، وآسيا ، وأفريقيا • كما عرف العالم القديم بعد ذلك التاريخ طرق تشغيل البلاتين • ومن هنا فان الثقافة التكنولوجية المعاصرة — كما تتمثل فى الثقافات الأوروبية والأمريكية المعاصرة — لها تاريخ معقد ، لأن العناصر المكونة لها ترجع الى مصادر متباينة أشـد التباين ، ومنتشرة فى جميع أنحاء العالم •

على أن الأنثروبولوجيين لا يعجزون فحسب عن أن يحددوا طريقا دقيقا زمان ومكان ظهور كثير من الاختراعات ، وانما مازال أمامهم الكثير الذى يجب أن يعرفوه عن عمليات الاختراع والانتشار ، وعلاقة هاتين العمليتين بالتغير الثقافى • وقد شهد الشرق الأدنى — كما رأينا — عددا كبيرا من الاختراعات الأساسية فى فترة مـن فترات تاريخه ، وذلك فى ميدان التكنولوجيا ، صحبتها بعض التجديدات الرئيسية فى ميدان التنظيم الاجتماعى والسياسى ، والدين ، وعدد كبير من العناصر غير المادية للثقافة • ويمكن أن نلاحظ نفس الظاهرة بالنسبة للصين ، حيث شهدت فى فترة ما من تاريخها بعض الاختراعات الهامة مثل نسج الحرير ، وتصنيع الورق ، والطباعة بالحروف المتحركة ، وصناعة البارود ، والبوصلة الملاحية • كذلك استطاع هنود المانيا Maya أو بعض جيرانهم فى أمريكا الوسطى — خلال فترة زمنية قصيرة — ابتكار بعض التجديدات الهامة كالتقويم ، والكتابة ، ونوع من الحسـاب الرياضى والفلكى ، وطرازا متميزا من العمارة ، الى جانب بعض المدن الكبرى ، وبعض الأشكال المعقدة من التنظيم السياسى • وقد أكد بعض المؤرخين أن هناك أربع اختراعات هامة فجرت — ابان عصر النهضة الأوروبية — سلسلة ضخمة من التغيرات الثقافية مازالت موجودة فى كل من أوروبا وأمريكا حتى الوقت الحاضر • وهذه الاختراعات هى : الورق والطباعة ، مما أدى الى سرعة انتشـار المعرفة ، ثم البارود — ثالثا — الذى ساعد على قيام دول استعمارية عظمى ؛ ورابعا البوصلة

التى أدت الى تسهيل الملاحـة وتقدمها وما ترتب على ذلك مـن عصر الاكتشافات ، والتجارة الدولية ، والاستعمار • وقد حدثت هذه الاختراعات الأربعة جميعها فى أول أمرها خارج أوروبا •

وتوضح هذه الأمثلة أن التجديدات الأساسية — سواء كانت نتيجة الاختراع أو الانتشار — لا تتم منفردة وانما فى مجموعات ، وأنه ربما كانت هناك ثمـة علاقـة وظيفيـة تربط بينها • والحقيقـة أن بعض الأنثروبولوجيين يؤكدون أن الاختراعات التكنولوجية الأساسية — وخاصة ما يتعلق منها بالبحث عن الطعام — تؤدى دائمـا الى تفجير حلقات من التغيرات الاجتماعية والثقافية السريعة ، والى تنشيط حركـة التجديد فى كافة ميادين الثقافة الأخرى • الا أن الشواهد على هـذا الرأى مازالت قليلة ، ذلك أن هناك بعض ميادين الثقافة — كاللغة ، والفنون ، وأنساق المعتقدات الدينية — التى تبدو فيها التجديدات مستقلة بشكل واضح عن التكنولوجيا ، أو التى تبدو فيها التجديدات على الأقل غير مرتبطة ارتباطا وثيقا مباشرا بالتغير التكنولوجى •

ولذلك كنا نركز فى دراستنا للتغير الثقافى على التكنولوجيا فى المقام الأول لأن الشـواهد المـادية التى يقدمها لنا علم الآثار توسع وتثرى نظرتنا التاريخية الى هـذا الجانب من جوانب الثقافة ، على نحو أفضل مما تتيحه بالنسبة للجوانب غير المادية • ولو أن الشواهـد الأقل وفرة بالنسبة للجوانب غير المادية من الثقافة توحى بأن عمليات التغير هى نفسها تقريبا • فهناك بعض الأفراد الذين يتأملون العالم من حولهم ، أو ينظمون أنساقا فكرية جديدة ، أو يعدلون انساقا فكرية قديمـة • كما أن هناك أشخاصا آخرين يستمتعون باللعب ببعض الأشياء مثل أنساق القرابة ، وهو ما أوضحه — على سبيل المثال — الكين Elkin بالنسبة لشمال غربى استراليا [1] • وقد نفذ الى هذا الاقليم فى السنوات الأخيرة نسق الطبقات

---

(1) A. P. Elkin, «The Complexity of Social Organization in Arnhemland», Southwestern Journal of Anthropology, 6 (1950), 1-29. =

الثمانية المعقد • وتوضح شــواهد الكين أن التغير الذى طرأ لم يكن نتيجــة بعض أوجــه القصور التى استشعرها البعض فى النسق القديم ، وانما كان بسبب ازدياد هيبة نسق الطبقات الثمانية ، ولأن بعض الأفراد يستمتعون باظهار كفاءتهم فى فهم واستخدام الشكل الأكثر تعقيدا • كذلك تحدث بعض التغيرات تدريجيا من خلال الحقيقة التى مؤداها أنه ليس بوسع كل فرد وكل جيل أن يكرر بدقة سلوك أسلافه الأمر الذى يؤدى الى ظهور التعديلات والتغييرات الثانوية باستمرار ، وان كان من الممكن أن تنحصر تلك التغييرات فى حــدود معينة تمليها البيئة والتكنولوجيا المتاحة كذلك تستعير المجتمعات بعض العادات القرابية ، أو الكلمات الجديدة ، أو العادات أو الموضات الجديدة ، أو المعتقدات الدينية الجديدة ، وتغير فيها تغييرا خفيا أو ظاهرا لكى توائم بينها وبين أنماطها الثقافية الخاصة واتجاهاتها •

وحتى لو سلمنا بالرأى القائل أن الثقافات تتغير ككيانات كلية وليس بمجرد اضافة تجديدات متفرقة ، فسيظل أمامنا العديد من المشــكلات الأساسية • فنحن لا نعرف ــ على سبيل المثال ــ لمــاذا توجد فترات التجديد الثقافى ، كتلك الفترات التى ذكرناها بالنسبة للشرق الأدنى والصين وأمريكا الوسطى وأوروبا ، لمــاذا توجــد فى تلك الأوقات بالذات • كما أننا لا نعرف لمــاذا تتغير بعض الثقافات بسرعة أكبر من ثقافات أخرى • وعلى الرغم من أن بعض التجديدات التى تطرأ على الثقافة يمكن أن تعتبر نتيجة للتغير التكنولوجى ، فان علينا مع ذلك أن نحدد العوامل التى تؤدى الى هذه التغيرات فى مجــال التكنولوجيا ، والطريقة المحددة التى تؤدى بها التجديدات التكنولوجية الى احــداث تجديدات أخرى • وســوف نتناول فى الأجزاء التالية هذه المشكلات وبعض الحلول التى وضعت لها •

= انظر عن الكين ، حياته وأعماله :

الكين ، « الكين ، عميــد الانثروبولوجيين الاستراليين » ، ترجمــة دكتور محمــد الجوهرى ، مقال بالمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، عــدد ابريل ، ١٩٧٤ • (المترجم)

ويتبين بوضوح من المناقشـــة السابقة أن الانتشـــار كالاختراع تماما يمثل حقيقة من حقائق الثقافة ، الا أن دراسات الانتشار اليوم تزداد ندرة لعـــدة أسباب • من هذه الأسباب أن دراسات الانتشار يمكن أن تدلنا على ما حدث بالنسبة لجوانب معينة من الثقافة ، ولكنها لا تدلنـــا بالقدر الكافى على كيفية حـــدوث ذلك أو سبب حدوثه • ذلك أن دراسات الانتشار تميل الى الطابع الوصفى وليس التفسيرى ، بمعنى أنها تطرح مشكلات أكثر مما تقـــدم اجابات • ومـــن الأسباب الأخـــرى تركيزها المتزايد على التحليل المركز لثقافات بعينها • فاذا نظرنا م نوجهة نظر ثقافة معينة فســـوف نجـــد أنه ليس من الأمـــور ذات الخطورة ما اذا كان عنصر معين من عناصرها قد نشأ نتيجة عملية اختراع داخلى ، أو أنه استعير وتم تكيفه مع بقية عناصر الثقافة • ويبدو أن المشكلة الهامة اليوم تتمثل أساسا فى موضوع التجديد والتغير وتطرح تساؤلات عن أشخاص المخترعين وعن عمليات التجديد والقبول الثقافى •

٣ ــ التطور الثقافى :

بدأت الأنثروبولوجيا كميدان من ميادين الدراسة العلمية حـــوالى منتصف القرن التاسع عشر • وكان الدارسون فى ذلك الوقت يتحولون بشكل متزايد الى دراســـة الثقافة ، ليس فقط الثقافات المتقدمة فى أوروبا وأمريكا وآسيا ، وانما كـــذلك ثقافات الشعوب التى أطلقنا عليها اسم الشعوب الأمية • وقد حفز الى هذه الدراسات أساسا مصدران اثنان هما : تزايد المعرفة العلمية عن فترة ما قبل التاريخ فى أوروبا كما كشفت عنها البحوث الأركيولوجية ، وتزايد المعرفة بفنون وتقنيات وعادات ومعتقدات الشعوب الأمية ، وهى المعلومات التى جمعها الرحالة ، ورجال الارساليات الدينية ، والجنود •

وقد طرحت هذه البيانات مشكلة عويصـــة هى : علاقة الثقافات الأمية بالحضارات الكبرى فى كل من أوروبا وأمريكا • وكانت هذه المشكلة

تجل فى الماضى من خلال ما يعرف باسم نظرية التدهور ، التى تقوم على افتراض مستمد من اللاهوت مؤداه أن الانسان قد خلق فى أول أمره كائنا متحضرا أو شبه متحضر • ومن ثم فان هؤلاء الأميين هم أولئك الذين سقطوا من هـذا المستوى الحضارى الذى كان مرتفعا فى الأصل • وبذلك تدهورت ثقافاتهم ، لأسباب متباينة ، ووصلت الى مستوى لا يزيد كثيرا عن مستوى الأنعام •

الا أن هذا الفرض يثير كما هو واضح عديدا من الصعوبات • فقد أوضحت المعرفة المتزايدة بالشعوب الأمية أنه ليس هناك تقسيم بسيط بين المتحضرين والمتدهورين • ثم أنه توجـد بين الأميين أنفسهم فروق عديدة فى الانجـاز الثقافى • ثم كان الأخطر من هـذا ماكشفت عنـه الأركيولوجيا ــ بالنسبة لأوروبا نفسها ــ أنها لم تكن هى المستوى الأصلى للحضارة ، وأن الحضارة الأوروبية تضرب بجذورها الى ثقافات لا تختلف عن ثقافات الشعوب الأمية المعاصرة •

ونتيجة لهذه الاكتشافات ، ومحاولة تحليل وتنظيم المعلومات المتزايدة عن الشعوب الأمية ، ظهرت البدايات الأولى لأول تفكير علمى حقيقى فى المشكلات الأنثروبولوجية ، وهى مجموعـة الآراء التى تعرف باسم النزعة التطورية الثقافية • ونجـد أفضل عرض لهذه الآراء ، والنظريات ، والفروض فى كتاب ادوين تايلور المعنون « الثقافة البدائية » الذى طبع لأول مرة فى عام ١٨٦٥ وكتاب لويس مورجان المعنون « المجتمع القديم » ، الذى صـدر عام ١٨٧٧ (*) •على أننا يجب ألا نربط النزعة التطورية

(*) عن تايلور باللغـة العربيـة ، انظر : احمد ابو زيد : تايلور (فى مجموعة نوابغ الفكر الغربى) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

وعن لويس مورجان حياته وأعمالـه وخاصـة مؤلفه الرئيسى هـذا انظر : احمـد أبو زيد ، « المجتمع القديم » ، مقال بمجلة تراث الانسانية ، المجلد التاسع ، العدد الأول ، ١٩٧١ ، ص ص ٣٥ ــ ٦٢ . (المترجم)

الثقافية بالداروينة الاجتماعية الفجة عند هيربرت سبسر وأتباعه الذين طبقوا بشكل مخل المبـادىء التى فهموها من فكرة « البقـاء للأصلح » البيولوجية على المجتمعات وعلى الانسان فى المجتمع •

وعلى الرغم من أن مفهوم التطور كان قد نضج بالفعل فى العلـوم البيولوجية (فقـد نشر كتاب تشارلز داروين « أصـل الأنواع » فى عام ١٨٥٩) ، الا أنه ليست هناك كثير من الشواهد على أن هـذا العمل قد أثر تأثيرا كبيرا على النزعة التطورية الثقافية • ذلك أن التطورية الثقافية ليست مجرد توسيع للنزعة الداروينية بحيث تشمل البيانات الثقافية . على الرغم من أنها تنتمى كما هو واضح الى نفس المناخ الفكرى فهى تعتبر فى الحقيقة تطورا مستقلا • فالثقافات لم تكن تعتبر كيانات تباينت عن بعضها عبر الزمان صادرة عن شكل أصلى واحـد ، كالأنواع والأجناس الحيوانية • ونجـد بدلا من هـذا أن التطورية الثقافية كانت تنظر الى الثقافة ــ أنى وجـدت وأينما وجدت ــ ككيان متقدم باستمرار عبر الزمان يخضع فى جوهره لنفس التتابع فى التطور الموجـود بين كافـة شعوب الأرض •

وقد ظهر تأكيد التطورية الثقافية على فكرة التقدم ، أو على التطور الى الأمام ، فى جزء منه على الأقل ، كاجابة على نظرية التدهور الثقافى • فقد كان كل من تايلور ومورجان يرى من البديهى أن جميع القبائل والأمم قد تقدمت ثقافيا بوجه عام ، على الرغم من أن هـذا التطور قد مر ببعض النكسات العارضة ، وتم بدرجات متباينة بطبيعة الحال • ويقول مورجان فى هـذا الصـدد : « ان تاريخ النوع الانسانى واحـد فى مصـدره ، واحـد فى تجربته ، وواحـد فى تقدمه » [١] •

---

(1) Lewis H. Morgan, Ancient Society (New York : Henry Holt and Co., 1877), p. VI.

ثم انطلقت النزعة التطورية من الحقيقة المؤكدة التى مؤداها أن الشعوب القائمـة حاليا وكذلك الشعوب التاريخية قد عاشت ولازالت تعيش فى مستويات ثقافية متباينة ، لتضع تسلسلا للمراحل الثقافية ، أو ما أسماه مورجان المستويات الثقافية • وقد قدم مورجان أكثر هـذه السلاسل التطورية احكاما ، اذ يرى أن الثقافة تبدأ :

١ ــ بمرحلة التوحش الدنيـا ، حيث لم يكن الانسان يزيد كثيرا عن الحيوانات فى درجة التقدم ، ثم تقدم بعدها الى المرحلة التالية ، وهى :

٢ ــ مرحلة التوحش الوسطى ، ثم :

٣ ــ مرحلة التوحش العليا ، وذلك تبعا لبعض مظاهر التقدم التى أحرزها فى مجالات الأساليب الفنية ، والتنظيم الاجتماعى ، والدين •

٤ ــ ثم انتقلت الثقافة الى مرحلة البربرية الدنيا ، ثم :

٥ ــ مرحلة البربرية الوسطى ، ثم •

٦ ــ مرحلة البربرية العليا • وقد تميزت حركة الثقافة هذه من مرحلة الى أخرى باكتساب الانسـان تدريجيا لمزيد من الأساليب الفنية ، ونمو نظم اجتماعية أكثر تقدما •

٧ ــ وأخيرا وصلت الثقافة الى المرحلة السابعـة وهى مرحلـة الحضارة • وتتميز هذه المرحلة باختراع الكتابة الصوتية وبدايات الثقافة الأوروبية كما نعرفها اليوم • ويؤكد المفكر التطورى أن هذا التسلسل ضرورى وحتمى ، وهو يخضع ــ كما يقول مورجان ــ « للمنطق الطبيعى للعقل الانسانى والحـدود الضرورية لقواه » [1] •

---

(١) انظر نفس المرجع السابق ، صفحة ١٨ •

ويرى التطوريون أنه بوسعنا العثور على شواهد لثقافات كل مرحلة من هذه المراحل بين الشعوب المعاصرة والتاريخية • من هذا أن ثقافات سكان استراليا الأصليين وسكان بولينيزيا تشبه ذلك النمط من أنماط الثقافة الذى كان موجودا فى مرحلتى التوحش الوسطى والعليا على التوالى • وتشبه ثقافة الايروكوا ثقافة مرحلة البربرية الدنيا ، وثقافة شعب الزونى ثقافة مرحلة البربرية الوسطى ، وثقافة الاغريق على أيام هوميروس ثقافة مرحلة البربرية العليا • بينما تشير ثقافاتنا المعاصرة — فى كافة مراحل تطورها التاريخى — الى مرحلة الحضارة • ولا شك أننا لاحظنا أن ثقافة مرحلة التوحش الدنيا ليس لها نظير بين المجتمعات المعاصرة أو التاريخية • وانما هى فى الواقع مرحلة افتراضية كان لا بد منها لعبور الفجوة بين أكثر المراحل بدائية التى يوجد لها نظير فى المجتمعات المعروفة وبين مرحلة انعدام الثقافة التى كانت قائمة عند أسلاف الانسان قبل البشريين •

وينبغى أن نؤكد أن هذا المخطط العام لا يزعم أنه يكشف عن تاريخ ثقافات أو شعوب معينة ؛ وانما هو يوجز على وجه الاجمال تطور الثقافة ككل • فنحن هنا ازاء تلخيص لتطور الثقافة ، وليس تاريخ ثقافة معينة ، أو شعب معين • فمن الممكن تماما أن ينتقل مجتمع — ما — بفضل اتصالاته مع شعب آخر أكثر تقدما — من ثقافة ممثلة لمرحلة التوحش انتقالا مباشرا الى ثقافة من ثقافات عصر الحضارة ، ومن ثم يسقط مرحلة البربرية كلية • فالثقافة فقط — فى كل جوانبها — هى التى يمكن أن يقال أنها ترتقى من أدنى مراحل التوحش ، مارة بكل المراحل الوسيطة ، حتى تحقق ازدهارها الكامل فى مرحلة الحضارة •

ولم يحاول أى من المفكرين التطوريين أن يطبق هذا الفرض على الثقافة فى مجموعها • ولكنه طبق على بعض الجوانب المختارة كالفن ، أو المعتقدات الدينية ، أو الأسرة ، أو الزواج • وكثيرا ما درست هذه الجوانب

أو بعضها دون النظر كلية الى الاطار الثقافى الشامل الذى صدرت عنه • ولذلك كثيرا ما جاءت نتائج هذه الدراسات واهية كلية ، كما نجد مثلا بالنسبة لمحاولة مورجان وصف تطور الأنساق العائلية • فهو يؤكد هنا أولا أن الأسرة النووية الأحادية المعروفة فى المجتمع الغربى المعاصر قد سبقتها حتما العشائر الأبوية ، والعشائر الأمومية ، والأسرة « العاصبة » القائمة على الزواج الجماعى ، ومرحلة من الشيوعيةالجنسية ، مرتبة مرحلة بعد أخرى على التوالى • وليس هناك بالطبع أى دليل على هذا التتابع• اذ نجد كما لا حظنا من قبل ، أن الأسرة الزواجية الأحادية تمثل ظاهرة شائعة فى المجتمعات الانسانية • وهى لا توجد فقط عند الشعوب المتحضرة ، وانما توجد كذلك فى كثير من الثقافات الأمية (*) •

ورغم هذه الانتقادات فيجب ألا نتصور أن التطورية الثقافية قد ماتت ، أو نتصور ما هو أكثر خطأ من ذلك ، أن المفكرين التطوريين قد قدموا اسهاما ضئيلا ، أو لم يسهموا على الاطلاق فى تقدم الأنثروبولوجيا فنحن نجد أنه حتى روبرت لوى الذى يعد من أشد نقاد نظرية التطور الثقافى ــ يعتقد أنه من الممكن تماما اقامة الدليل على مراحل النمو الثقافى • ويكتب فى هذا الصدد قائلا : « ان التطور أبعد ما يكون عن الموت ، وما علينا الا أن نحدده بمزيد من الدقة » • [1] وقد بذلت بعض المحاولات ، وخاصة من جانب ليزلى هوايت أساسا ، للوصول الى هذا القدر الأكبر من الدقة • وسوف نعود الى هذا الموضوع فى فقرة تالية من هذا الفصل • (انظر الفقرة رقم ٩) •

(*) عن هذا الموضوع بالعربية انظر دراسة علياء شكرى عن « مشكلات أساسية حول الأسرة والتصنيع » ، المنشورة فى المصدر التالى ، السيد الحسينى وزملاؤه ، دراسات فى التنمية الاجتماعية ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣ ، ص ص ١٨٥ ــ ٢٢٣ • (المترجم)

(1) Robert H. Lowie, The History of Ethnological Thought (New York : Farrar and Rinehart, 1937), p. 27.

أما فيما يتعلق بالاسهامات الايجابية للمفكرين التطوريين فهى كثيرة ، يمكن أن نعدد من بينها الاسهامات التالية :

١ ــ كان المفكرون التطوريون أول من أدركوا واستخدموا مفهوم الثقافة ، وخلصوا هذا المفهوم من الخلط الذى كان قائما من قبل بينه وبين مفهوم العرق أو السلالة • ونجد تعريف تايلور للثقافة ، الذى لا زال ذائعا حتى الآن على نطاق واسع ، يؤكد هذه النقطة • حيث يقول : «ان الثقافة أو الحضارة ••• هى ذلك الكل المعقد الذى يشمل المعرفة ، والمعتقدات ، والفنون ، والأخلاق ، والقانون والعادات ، وأى قدرات أو عادات أخرى اكتسبها الانسان كعضو فى المجتمع » [1] •

٢ ــ كان المفكرون التطوريون من بين أول من أدركوا امكانيات قيام علم للثقافة ، بمعنى أنهم رأوا أن الظواهر الثقافية ليست عشوائية ، وانما هى تخضع ــ كظواهر الفيزياء والبيولوجيا ــ للقوانين والتعميمات العلمية وقد استطاع التطوريون أن يخلقوا نوعا من النظام فى دراسة الثقافة ، وهو ما يعد شرطا أوليا ضروريا لاجراء بحوث ناجحة ، على الرغم من أن كثيرا من محاولاتهم لتحليل البيانات الثقافية خضعت لانتقادات حادة • ومن ثم يمكن القول دون حرج ان المفكرين التطوريين قد شيدوا الأساس الأول لعلم الأنثروبولوجيا الثقافية ، الذى لم يكن محل ادراك واضح ممن سبقوهم •

٣ ــ كذلك أدى التطوريون من خلال محاولاتهم تحليل البيانات الثقافية ، خلال الانتقادات التى وجهت اليهم ، الى استثارة كمية هائلة من البحوث الميدانية الموجهة • وهو نوع من البحوث كان غير معروف تقريبا حتى ايامهم ، عندما كان المؤلفون يعتمدون بالدرجة الكبرى فى بياناتهم على كتابات وتقارير ملاحظين غير متخصصين •

---

(1) Edwin B. Tylor. Primitive Culture (Boston : Esteos and Lauriat, 1874), Vol. I, p. 1.

وقد طور المفكرون التطوريون نموذجا اجماليا للتغير الثقافى ، كان بمثابة اطار لوصفهم • ولكنهم اعتمدوا فى ذلك على مجموعة من الفروض عن الانسان والثقافة لتفسير الأحداث التى ينتظمها هذا النموذج • فكانوا يفترضون أن الظواهر الثقافية المتشابهة التى توجد فى أجزاء متباعدة من العالم تمثل اختراعات مستقلة ، والنتاج الحتمى لسلسلة محددة سلفا من التطور الثقافى •

ويمكن القول على أى حال بأن الاتجاه التطورى الذى كان معروفا فى القرن التاسع عشر له أكثر من مجرد قيمة تاريخية بحتة • فقد هيأ الأساس للمنهج الجدلى التاريخى عند الماركسية ، ولنظرتها « العلمية » الى التاريخ • التى تعتبر الرأسمالية مرحلة حتمية فى التطور الثقافى الاجتماعى يتحتم بنفس القــدر أن تليها مرحلة الشيوعية •

٤ ــ بواس والمدرســة الأمريكية :

هناك عدد من النظريات البديلة لتطورية القرن العشرين ، التى تمت فى أوائل القرن التاسع عشر ، وقد انطوى بعضها على فروض على نفس الدرجة من الخطأ • فتذهب نظرية « الدائرة الثقافيــة » ــ التى تعتبر نظرية ألمانية أساسا فى نشأتها ــ الى القول بعــدم وجــود الاختراع أساسا عند البشر ، وفسرت أوجه التشابه الثقافى على أنها نتيجة للانتشار فحسب • فهناك عدة ثقافات أساسية متميزة ظهرت فى أجزاء مختلفة من العالم ، ارتبط بها عدد من السمات الثقافية والاجتماعية المتميزة • ثم انتشرت هذه العناصر الى خارج المركز الذى نشأت فيه • وحينما تلاقت حدثت بعض عمليات الانصهار ، التى تفسر أوجه الاختلاف عن تلك الثقافات الأساسية التى افترضت تلك المدرســة وجودها • وأخذت عملية التفسير ــ طبقا لهذه النظرية ــ تزداد صعوبة بسبب الجهود التى بذلت للمواءمة بين النظرية وبين الحقائق المتزايدة ، حتى فقد هذا الاتجاه توازنه • وقد اضطلعت تلك المدرســة ببعض البحوث الميدانية المركزة ، كثير منها ممتاز ،

ولكنها كاتجاه فى التفكير لم يعد لها اليوم ســوى قليل من الأتباع • وان كان علينا على أى حال أن نقدرها كمجهود من أجل وضع تعميمات فيما يتعلق بالثقافة •

وهناك كذلك « المدرسة الهليوليثية Heliolithic البريطانية » التى يرجع الفضــل الأكبر فى تأسيسها الى اليوت سميث (وهو عالم تشريح بارز) التى تقول بعــدم قدرة الانســان أساسا على الاختراع ، وان كانت تنسب كل الاختراعات الأساسية الى المصريين • ومن ذلك المركز انتشرت الى الخارج مختلف العناصر الثقافية ، حاملة النور الى ســائر البشرية التى كانت تعيش فى توحش • وقد حاولت المدرســة أن تفسر كثيرا من نقاط الضعف فى النظرية بالقول بأن عجز بعض الثقافات عن تمثل الثقافة الجديدة تمثلا كليا ، أدى بها فى الغالب الى التدهور • والمدرسة الهليوليثية تستمد أهميتها اليوم الى حــد كبير (شأنها فى ذلك شــأن نظرية الدائرة الثقافية) من أن مبالغاتها هى التى أدت جزئيا الى تلك الآراء ضــد التاريخيــة التى تبناها بشكل حــاد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعيون البريطانيون الأوائل ، مثل راد كليف براون وبرونيســلاو مالينوفســكى •

أما اتجاه فرانز بواس وتلاميذه وأتباعه فى الولايات المتحدة فأكثر من تلك المدرستين أهمية وأبعد منهما تأثيرا ، وقد ركز آراءه أساسا حول سكان أمريكا الأصليين • وكانت فلسفة المنهج عند بواس قــد تطورت كاستجابة حادة للنزعة التطورية • وكان يعارض هــذه النظرية الثقافية بقوة باعتبارها نظرية فلسفية أو منطقية مبتسرة تقوم على التأمل أكثر مما تقوم على البحث العلمى الدقيق • ولذلك اتجه بواس بدلا من هــذا الى البحوث الميــدانية لبعض المشكلات المحددة تحديدا دقيقا • وقد بلغ من تحديدها أن الباحث يستطيع أن يتحكم بشــكل صارم فى المتغيرات العديدة الداخلة فى البيانات الثقافية • وكان بواس يرى أن دراســة العديد من مثل هذه المشــكلات يمكن أن يؤدى بنــا الى نظرية متسقة وسليمة من الناحية العلمية •

ومع ذلك فهناك قليل من الشواهد على أن بواس قد استطاع أصلا التوصل الى أى نظرية من هذا النوع . وهو لم يكتب على الأقل شيئا يمكن أن يعد صياغة منظمة لنظرياته ومنهجه . ولكنه توصل بالاشتراك مع العديد من مساعديه وتلاميذه الى منهج فى دراسة المشكلات الثقافية يعتبر ذا طابع امبيريقى قوى . ولالقاء الضوء على هذا المنهج سوف نعرض فى ايجاز لجزء من دراسته لميثولوجيا التسمشيان Tsimshians، وهى قبيلة هندية تعيش على ساحل كولومبيا البريطانية . وتعتبر هذه الدراسة ، كما يذهب « ليزلى سبير » أحد تلاميذه ، نموذجا ممتازا للمناهج الامبيريقية ، والفروض الأساسية فى اتجاه بواس [1] .

وتعتبر دراسة بواس فى جزء منها محاولة لتحديد توزيع الحكايات الشعبية داخل المنطقة (الساحل الشمالى الغربى) الذى تعيش فيه قبائل التسمشيان ، ثم العمل من خلال ذلك على تفسير وأصول أساطير التسمشيان وتاريخها . ولذلك عقد بواس مقارنة بين حكايات التسمشيان وحكايات جيرانهم ، واكتشف أنه على الرغم من أنه لا يوجد فى المنطقة شعبان يرويان أى حكاية من الحكايات بنفس الطريقة تماما ، الا أن الروايات الموجودة عند القبائل المختلفة تتشابه مع بعضها البعض على نحو ما . وهكذا وجد أن حكاية « الأسير المهجور » تروى بعشرين رواية . ولما قارن بواس بين هذه الروايات المختلفة تبين أن الحكاية يمكن أن تجزأ الى خمسة أحداث أو موتيفات ، لكل واحدة منها تنويعات

Leslie Spier, «Historical Interrelation of Culture Traits : Franz Boas' Study of Tsimshian Mthology», Analysis 31 in S. A. Rice (ed.), Methods in Social Science (Chicago : University of Chicago Press, 1931), pp. 449 - 457, p. 457.

ويمكن الرجوع الى دراسة بواس المذكورة المنشورة فى التقرير السنوى الحادى والثلاثين الصادر عن : Bureau of American Ethnology (Washington, D. C., 1916), pp. 20 - 1537.

وقد اعتمد عرضنا الموجز بصفة أساسية على تحليل سبير المشار اليه .

تتراوح بين واحد وتسعة تنويعات • فالحـدث الأول يروى بتسعـة تنويعات (تحمل الأرقام من ١ ـــ ٩) •والحدث الثانى يروى بثمانية تنويعات (من ١ ـــ ٨) • والحدث الثالث يروى بطريقة واحدة • والحدث الرابع يروى بطريقتين • والحدث الخامس يروى بست تنويعات (١ ـــ ٦) • وقد وجـد عند التسمشيان أن الحكاية تتضمن الأحداث الخمسة جميعها ، وان كان كل منها يروى بطريقة مختلفة على النحو التالى :

الحدث الأول : تنويعة رقم ١

الحدث الثانى : تنويعة رقم ٢

الحدث الثالث : (ويروى فى المنطقة كلها بطريقة واحدة)

الحدث الرابع : تنويعة رقم ١

الحدث الخامس : تنويعة رقم ١

ووجد بواس أن شعب Masset يعرف رواية أبسط للحكاية ، تضم ثلاثة أحداث فقط على النحو التالى :

الحدث الأول : تنويعة رقم ٩

الحدث الثانى : تنويعة رقم ٣

الحدث الخامس : تنويعة رقم ٢

أما الحدثان الثالث والرابع فلا وجود لهما كلية •

أما الرواية الموجودة عند قبيلة Tingit فتسقط الحدث الثالث فقط ؛ وتتداول الأحداث الأربعة الباقية على النحو التالى :

الحدث الأول : تنويعة رقم ٣

الحدث الثانى : تنويعة رقم ١

الحدث الرابع : تنويعة رقم ١

الحدث الخامس : تنويعة رقم ٤

وقد وجد أوجه تباين مماثلة فى الروايات الأخرى للحكاية حيث لم تتطابق أى روايتين منها على الاطلاق •

وطبق بواس هـذا التحليل على ٧٥ حكاية مستقلة مـن حكايات التسمشيان ، العـدد الأكبر منها أكثر تعقيدا بكثير مـن الحكايـة التى استخدمناها فى المثال السابق • ونتيجة لهذا التحليل توصل الى النتائج التاليـة :

١ ــ ان أوجه الشبه القائمة بين حكايات التسمشيان وجيرانهم ليست ناشئة على وجه العموم عن اختراعات مستقلة ومتوازية ، وانمـا هى ناشئة عن الاستعارة أو الانتشار •

٢ ــ على أن الحكايات لا تنتشر كموضـوعات أو عناصر ثقافيـة منفصلة ــ كما اتضح من خلال أساليب اختلاف الروايات من قبيلة الى أخرى ــ وانما كل حدث ينتشر مستقلا تمام الاستقلال عن بقية الأحداث ولذلك يصبح له تاريخ انتشار خاص متميز •

٣ ــ تبين أن كل قبيلة تتناقل روايتها للحكاية ككيان كلى موحد على نحو يدل على أن الأحداث المنتشرة التى تتكون منها يعاد تفسيرها ثانية من جانب الثقافة المستقبلة ، رغم تباين الأصول التى تنتمى اليها • وربما كانت عملية اعادة التفسير هـذه تسـتهدف المواءمة بينها وبين التراث الأدبى السائد • كذلك يتفق هذا مع الحقيقة التى مؤداها أن الأحداث تتباين فى طريقة قصها من قبيلة لأخرى ربما كنتيجة لعملية اعادة التفسير الثانوية هـذه •

ويرى « سبير » فى تحليله لدراسة بواس عن ميثولوجيا التسمشيان أنها تمثل نموذجا للنظرة الى الثقافة الشائعة فى المدرســة الأمريكية • وهذه النظرة ترى أن الثقافات تتكون من عناصر متفرقة ، أى من موضوعات يمكن فصلها عن بعضها البعض ــ كأحداث حكاية التسمشيان ــ يمكن أن تكون أنماطا متميزة للسلوك أو ثمرة هــذه الأنماط السلوكية التى تبدو فى الأشياء المــادية • وتكتسب هذه العناصر الثقافية طابعها نتيجة لبعض العوامل التاريخية أساسا ، التى يلعب فيها الانتشار دورا بارزا • ومن هنا فان أى ثقافة معينة تتكون فى معظمها من عناصر وفدت الى الثقافــة من مصادر شديدة التباين عن بعضها ؛ على الرغم من أنها قد تتضمن بعض العناصر القليلة التى ظهرت عن طريق عملية الاختراع المستقل • فسبير يرى أن الغالبية العظمى من الأنثروبولوجيين الأمريكيين يعتبرون أن كل ثقافة تتكون من عدد كبير من العناصر المنفصلة التى ترتبط ببعضها مــن خلال سلسلة من الأحداث التاريخية • فدارس هذه الثقافة لم يكن يعتقد أن هذه العناصر ترتبط ببعضها ارتباطا وظيفيا ، وانما هى ترتبط ببعضها فى نظر حملة الثقافة بسبب عملية اعادة التفسير التى خضعت لها هــذه العناصر • ولاشك أن هذا الرأى قد فند الرأى القائل بأن الأشــكال الثقافية توجــد فى تسلسل حتمى أيا كان ، وهو موقف أساسى من المواقف التى يتمسك بها أصحاب النزعة التطورية الثقافية [1] •

ومن الواضح أن هذا المفهوم للثقافة الذى عرضه سبير بصــورة أكثر تطرفا الى حد ما مما يعتقده كثيرون من أعضاء المدرسة الأمريكية ، يرفض بالتحديد أى فكرة لوضع تعميمات عن التغير الثقافى • فاذا كان وجــود ثقافة ما فى مجتمع معين ، وما يمكن أن يطرأ عليها من تغييرات ، هو نتيجة « حتمية تاريخية معينة » ؛ فان الأمل يصبح ضعيفا فى أن تخضع هذه العوامل المحددة لأى قوانين أو تعميمات • ولكن هذا لا يعنى

---

(١) انظر المرجع الســابق ، ص ٤٥٥ .

بطبيعة الحال أن التطور الثقافى ليس له وجــود • فبواس ومدرسته لم يكونوا يعارضون التطور بقدر ما كانوا يتجنبون الخوض فيه ، مفضلين عنه البحوث التاريخية ذات الموضوعات المحددة تحديدا دقيقا • وقد كان هذا التركيز على المشكلات التاريخية وعلى ظاهرة الانتشار مميزا للمدرسة الأمريكية خلال الثلث الأول من هذا القرن ، وأدى الى ظهــور أداتين منهجيتين أخريين هما : نظرية المنطقة الثقافية The Culture Area ونظرية العمر والمنطقة The Age - Area Theory ، وهو ما سنفصل فيه الكلام فيما يلى •

٥ ــ نظرية المنطقة الثقافية ونظرية العمر والمنطقة :

كان كلارك ويسلر C. Wissler ــ وهو معاصر لبواس ــ أول من صاغ بوضوح نظرية المنطقة الثقافية ونظرية العمر والمنطقة ، وذلك فى ثلاثة كتب هى :

١ ــ الهندى الأمريكى الأحمر ، الذى صدر عام ١٩١٧ •

٢ ــ الانسان والثقافة ، الذى صدر عام ١٩٢٣ •

٣ ــ العلاقة بين الطبيعة والانسان عند سكان أمريكا الأصليين ، الذى صــدر عام ١٩٢٦ •

ومن الواضح كما تشير الى ذلك عناوين كتابين من هذه الكتب الثلاثة أن نظرية المنطقة الثقافية ونظرية العمر والمنطقة قد طورا لأول مرة من خلال دراسات أجريت على الهنود الأمريكيين الحمر ، على الرغم من أن كلا المفهومين قد طبقا منذ ذلك التاريخ على مناطق اثنوجرافية أخرى • وقد استخدمت مفاهيم شبيهة بمفاهيم المنطقة الثقافية ، والعمر والمنطقة فى العلوم البيولوجية قبل ويسلر بوقت طويل • كما ذكر ويسلر نفســه المصطلح منذ عهد بعيد يرجع الى عام ١٩٠٦ ، علاوة على أنه هناك أمثلة

على استخدامه قبل هذا التاريخ أيضا ، خاصـــة بمناسبة تنظيم معروضات بعض المتاحف الأنثروبولوجية . الا أن أهمية المؤلفات الثلاثة المذكورة ترجع الى أنها تمثل صياغات واضحة وموجهة نظريا لهـــذين المفهومين [1].

واذا نظرنا الى مفهوم المنطقة الثقافية فى ذاته وجدنا أنه مجرد أداة لتصنيف الثقافات ــ أو بالأحرى لتصنيف مجموعات من العناصر الثقافية ــ بالنظر الى الأقاليم الجغرافية . وقد ظهر هــذا المفهوم فى الواقع كوسيلة لترتيب المواد والبيانات الثقافية المحفوظة فى المتاحف (وقد عمل ويسلر لعدة سنوات أمينا للمتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى) . ثــم اتجــه ويسلر وآخرون فيما بعد الى استخدام هذا المفهوم كأداة فى الدراسات التاريخية .

وقد لاحظ ويسلر فى محاولته تصنيف الكميات الهائلة من المــواد والبيانات المتوفرة عن ثقافات الهنود الحمر الأمريكيين ما يلى :

١ ــ أن بعض العناصر الثقافية المعينة (ســواء كانت تضم بعض الأشياء المــادية كالأدوات ، أو الأوانى ، أو المساكن ، أو طرق معينــة للتنظيم الاجتماعى أو المعتقدات الدينية) تميل الى التجمع فى أقاليم معينة ــ ولذلك أطلق عليها اسم المناطق الثقافية ــ وأن تقتصر على هذه الأقاليم . ويرى ويسلر أن هناك عند سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر) خمسة عشر منطقة ثقافية من هــذا النوع ، أبرزها المناطق التالية : فى السهول العظمى من أمريكا الشمالية (منطقة السهول) ، وعلى ساحل المحيط الهادى الى الجنوب من ألاسكا وحتى أوريجون (منطقة الساحل الشمالى الغربى) ، وفى جنوب غرب الولايات المتحدة حتى شمال المكسيك وجنوب كليفورنيا (منطقة الجنوب الغربى) ، وشرق أمريكا الجنوبيــة

---

(1) Robert W. Erich and Gerald M. Henderson, «Culture Area», International Encyclopedia of the Social Sciences (New York : The Macmillan Company and The Free Press, 1968), Vol, 3, pp. 563-568.

من جيانا حتى الأرجنتين (منطقة الغابات الاستوائية) ، الأرجنتين جنوبا حتى الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية (منطقة باتاجون) ، الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية من اكوادور حتى منتصف شيلى تقريبا (منطقة الأندين) .

٢ ــ أن كل شعب من شعوب أو قبائل منطقة ثقافية معينة يتميز بالعناصر المميزة للمنطقة بدرجة تقل أو تكثر من شعب لآخر ، على الرغم من أنها ليست متطابقة ثقافيا .

٣ ــ أن بعض شعوب منطقة ثقافية معينة (وفى الحالات المثالية تلك الشعوب الواقعة فى المركز الجغرافى لتلك المنطقة أو تقريبا منها) تتميز بكل العناصر الثقافية المميزة لتلك المنطقة ، أو بالغالبية العظمى منها على الأقل . وهنا توصف ثقافات تلك الشعوب بأنها طرازية أو ممثلة للمنطقة ، وتمثل مركزها الثقافى .

٤ ــ أن بقية شعوب المنطقة الثقافية (وفى الحالات المثالية تلك الشعوب التى تتجمع خلف منطقة المركز الجغرافى) تتميز بقدر أقل من العناصر الثقافية الميزة لتلك المنطقة . ويتقلص عدد تلك العناصر تبعا لدرجة بعد هذه الشعوب عن المركز الثقافى للمنطقة .

٥ ــ أن الشعوب التى تعيش على تخوم المنطقة تكون ذات ثقافات هامشية أو مختلطة ، بمعنى أن عناصر ثقافاتها تكون مشتقة من أكثر من مركز ثقافى واحد .

ولتوضيح هذا المفهوم نعرض فيما يلى بايجاز لمنطقة السهول فى أمريكا الشمالية . اذ يوجد فى هذه المنطقة حوالى عشرين عنصرا ثقافيا متميزا نذكر من بينها : صيد حيوان البيسون (الثور الأمريكى) للأكل (مع نقص واضح فى الزراعة أو الصيد) ، استخدام الخيمة المخروطية الشكل والمصنوعة من الجلد للسكنى ، استخدام عربة Travois التى يجرها

الكلاب (وهى عبارة عن ذراعين يربطان الى الكلب ويترك طرفاها الآخران يجران على الأرض ، وتستخدم فى نقل الاحمال) ، والتروس المستديرة ، والأوانى المصنوعة من الجلد (ونقص الفخار والسلال) ، والتنظيم الدائرى للخيام المخروطية فى المعسكر (او ما يعرف باسم المعسكر الدائرى) ، والاهتمام بالحرب والأوسمة الحربية والجماعات الحربية من الذكور ، وتجربة الرؤيا Vision كوسيلة أساسية لالتماس الهداية والمشورة من الكائنات فوق الطبيعة ، ورقصة الشمس ، وهى طقس دينى محكم • وهناك احدى عشرة قبيلة ، ذات موقع مركزى الى حـد ما تتميز من هذا العناصر أو بمعظمها • أمـا القبائل التى تقع على مسافة بعيدة من هـذا المركز الثقافى فلديها عـدد أقل من العناصر المميزة لتلك المنطقة ، ولكنها تستبدلها بعناصر أخرى • من هذا مثلا أن تستخدم الأوانى الفخارية بدلا من الأوانى الجلدية ، أو تعرف الزراعة بـدلا من الاعتماد الكامل على الصيد ، أو تعرف البيوت المغطاة بالطين بدلا من الخيام الجلدية المخروطية الشكل •• الخ • أما القبائل الهامشية التى تعيش على تخـوم المنطقة فلديها أقل عدد من العناصر المميزة لثقافة السهول • وهى تجمع بينها وبين عدد مساو من العناصر المميزة لمناطق مجاورة • ويرى ويسلر أن المراكز الثقافية يسهل تحديدها نسبيا ، أما تخوم المنطقة الثقافية فمن الصعب تحديدها • ومن النادر ، هذا اذا كان من الممكن أصلا ، تعيين حـدود فاصلة بين المناطق الثقافية المتجاورة •

واذا نظرنا الى مفهوم المنطقة الثقافيـة كمجرد أداة تصنيفية ، وجدنا أداة مريحة تستخدم على نطاق واسع • وقد حدد هيرسكوفيتس وآخرون المناطق الثقافية فى أفريقية خاصة الجزء الواقع جنوب الصحراء أساسا (*) ، وحدد لنتون المناطق الثقافية فى مدغشقر • كما بذلت عدة

(*) انظر حول هذا الموضوع باللغة العربية ، وليم باسكوم وميلفيل هيرسكوفتز (مشرفان على التحرير) ، الثقافـة الافريقيـة . دراسـات فى عناصر الاستمرار والتغير ، ترجمة عبـد الملك الناشـف ، المكتبة المصرية صيدا ــ بيروت ، ١٩٦٦ • (المترجم)

محاولات (أحدثها محاولتى بيكون ونارول) لتقسيم آسيا الى مناطق ثقافية • بل انه يمكن القول ان بعض الأقاليم الكبرى غير المحددة تحديدا دقيقا مثل اندونيسيا ، وميلانيزيا ، وميكرونيزيا ، وبولونيزيا ، الواقعة فى جنوب المحيط الهادى تمثل مناطق ثقافية •

الا أن ويسلر قد حاول أن يضفى على مفهوم المنطقة الثقافية مدلولا تاريخيا أكبر عن طريق الربط بينه وبين مفهـوم العمر والمنطقة ويرتكز مفهوم العمر والمنطقة على فرضين اثنين هما :

١ ــ أن العناصر الثقافيــة تتجه الى الانتشار بنفس المعدل فى كل الاتجاهات انطلاقا من نقطة المنشأ •

٢ ــ ان المنطقة التى انتشر فيها عنصر معين تدل الى حد ما على عمر هذا العنصر بالقياس الى العناصر الأخــرى المنتشرة داخل نفس الاقليم • وهكذا فاذا كان هناك عنصران ثقافيان ، مثلا أ ، ب قد انتشرا من نفس المصــدر ، الا أن العنصر أ قد انتشر فى منطقة أوسع مــن العنصر ب ، فاننا نستنتج أن العنصر أ أقدم من العنصر ب •

فاذا عدنا الآن الى مفهوم المنطقة الثقافية فاننا يمكن أن نعتبر أن مركزها الثقافى هو بمثابة نقطة المنشأ (على الأقل داخل تلك المنطقة) الذى ظهرت فيه عناصرها المميزة ، ثم انتشرت منه الى الخارج تجاه حدود المنطقة • يترتب على ذلك اذن أن العناصر الموجودة عند تخوم منطقة ثقافية معينة (حيثما تنتمى تلك العناصر الى المنطقة) تمثل أقدم الراقات الثقافية الموجودة فيها (لأنها انتشرت على أوسع نطاق) • وكلما اتجهنا نحــو المركز قل تدريجيا عمر العناصر الثقافية الموجودة فيها • وهكذا فان مركز أى منطقة ثقافية ليس فقط هو الأقليم الذى توجد فيه الثقافة بصورتها الطرازية ، وانما هو كذلك الأقليم الذى عاشت فيه تلك الثقافة أطول تاريخها • وعليه فان ثقافات التخــوم والمناطق التى تقــع بين

التخوم والمراكز تمدنا بالوسيلة التى نستطيع مـن خلالها اعادة رسم صورة تاريخ الثقافة الموجودة فى المركز •

وقد وجهت انتقادات عديدة الى هذه الوسيلة فى اعادة رسم صورة التاريخ الثقافى بالاستعانة بنظرية المنطقة الثقافية ونظرية العمر والمنطقة • وقيل أن التحديات المرتكزة على نظرية العمر والمنطقة مشكوك فى صحتها • ذلك أن العناصر الثقافية نادرا ــ هذا اذا حدث على الاطلاق ــ ما تنتشر بنفس المعدل فى كل الاتجاهات انطلاقا من مركز نشأتها ، ومن ثم فلابد من ادخال مزيد من التحديدات على الفكرة القائلة بأن العناصر الثقافية التى تتباين مناطق انتشارها تتباين أيضا من ناحية العمر • فهناك بعض العوامل الجغرافية والاجتماعية التى يمكن أن تعوق انتشار عنصر ما فى اتجاه معين وتعجل به فى اتجاه آخر • وهكذا فان العناصر يمكن أن تنتشر على امتداد طرق التجارة بسرعة أكبر من انتشارها فى اتجاهات أخرى • ثم أن هناك بعض مركبات العناصر ــ كالزراعة بدون رى ــ التى لاتستطيع الانتشـــار فى اقليم غير مناسب لها ، كالصحراء الجافة على سبيل المثال • كما أن هناك بعض العناصر الثقافية ــ كبعض العناصر الطقوسيـــة أو بعض العناصر اللغوية ، أو السمات المميزة لنسق عشائرى معين ــ قـــد تنتشر بسرعة أقل من عناصر ثقافية أخرى ، كالأدوات ، أو المساكن ، أو الأوانى ، أو بعض قطع الملابس •

والأهم من ذلك كله أن الانتشار يبدو دائما كعملية اختيار • اذ من الواضح أن شعبا معينا لا يقبل كافة العناصر التى تفد اليه ، كما أن العناصر الجديدة التى يمكن أن تكون مقبولة فى مرحلة معينة من تاريخ هذا الشعب قد ترفض بنفس الدرجة فى فترة أخرى • وقد يساعدنا على توضيح هذه النقطة أن نعرض بايجاز للتاريخ المعروف لرقصة الأرواح ؛ وهى طقس هندى أمريكى حديث انتشر بسرعة وعلى نطاق واسع بين قبائل الهنـــود الحمر الأمريكيين خلال فترتين محددتين من التاريخ الحديث • وتستهدف رقصـــة الأرواح احياء الميت عن طريق بعض الوسائل الشعائرية ، وبالتالى

اعادته الى أمجاد والى حرية حياة السكان الأصليين القديمة ، بعيدا عن سيطرة البيض • وقد كانت تلك الرقصة مغرية على وجه الخصوص للقبائل الهندية التى عانت بدرجة أكبر فى ظل سيطرة البيض ، والتى كانت أضعف من أن تقاوم البيض بالوسائل الحربية •

وقد ظهرت رقصة الأرواح فى أول مرة فى عام ١٨٧٠ عنـــد قبيلة بايوتس Paiutes فى نيفادا ، فى وقت كان فيه البايوتس يعانون مـــن مشكلات اقتصادية فادحـــة ، وخسائر عالية فى الأرواح بسبب انتشـــار المرض • ثم انتشرت رقصـــة الأرواح بسرعة من البايوتس الى قبائل هندية أخرى فى نيفادا وفى كثير من أنحاء كاليفورنيا • وكانت كل تلك القبائل تعانى أساسا من نفس المشكلات التى كان يعانى منها البايوتس • غير أنه كانت هناك بعض القبائل الهندية فى شمال كاليفورنيا التى لم تتقبل رقصـــة الأرواح هذه ، على الرغم من أنها كانت تعانى من نفس المشكلات الاقتصادية ومن سوء الحالة الصحية ، وعلى الرغم أيضا من أنها سمعت بتلك الرقصة وعرفتها • ويرجع السبب الى خوفهم الكبير من الميت ، وقد كان هـــذا الخوف من القوة بحيث كان يمنعهم من المشاركة فى أى طقس يستهدف اعادة الميت الى الحياة • كذلك لم يلق هـــذا الطقس قبولا من جانب هنود منطقة السهول ، وان كان ذلك راجعا الى اعتبارات أخرى • ففى ذلك الوقت ــ أى عام ١٨٧٠ ــ كان هنود السهول مازالوا من القدرة بحيث يستطيعون مقاومة البيض عن طريق الحرب • ولذلك لم يكونوا فى حاجـــة الى طقوس تخفف من آلامهم •

الا أن رقصة الأرواح سرعان ما ماتت فى عام ١٨٧٠ ولم تدب فيها الحياة الا فى ١٨٩٠ على يد أخلاف الجيل الذى أنشأها • وفى ذلك الوقت كان هنود كاليفورنيا قد فقدوا تكاملهم وتخلصوا من أوهامهم ، ومـــن ثم لم تكن علاقة لهم بتلك الحركة الجديدة • أما هنود منطقة السهـــول فكانوا قد وصلوا الى ظروف حرجة شبيهة بظروف البايوتس فى عام ١٨٧٠، ولذلك شغفوا شغفا شديدا باستعارة رقصـــة الأرواح الجديدة ، بعـــد

أن أعادوا تفسير الهـدف منها باعتبارها وسيلة للعودة الى البيســون (الثور الأمريكى) ، ومهنة الصيد القديمة ، والحياة الحربية القديمة ، والقضاء على البيض بواسطة أرواح الأسلاف • الا أن النافاهو قــد ظلوا على رفضهم لرقصــة الأرواح ، على الرغم من أنهم كانوا فى ظروف حرجة ، وذلك لنفس السبب وهو الخوف الشديد المسيطر من الميت • وهو نفس السبب الذى دفع هنود شمال كاليفورنيا الى رفض هذا الطقس فى عــام ١٨٧٠ •

ومن الواضح من هذا المثال (ومن الممكن أن نســوق عديدا مــن الأمثلة المشابهة) أن الانتشار ليس عملية ميكانيكية ، بمعنى أنه يتم بنفس الطريقة بالنسبة لكافة العناصر الثقافية فى كافة الأوقات • وانما هــو عملية بالغة التعقيد تخضع لكثير مــن الظروف والاعتبارات الثقافية ، والسوسيولوجية ، والجغرافية • الا أن كثيرا من دراسات العمر والمنطقة وغيرها من الدراسات الانتشارية قد أخفقت بشكل صارخ فى ادراك المتغيرات العديدة التى تؤثر فى خلق تباين عن النموذج المثالى الذى حدده ويسلر • على أن كثيرا من الانتقادات التى وجهت لم توجــه الى الاستخدامات الخاطئة للنموذج ، وانمــا الى النمــوذج نفســه • ومن ثم تجاهلت استخدامه فى تحديد المتغيرات • وقد وجهت بعض الانتقادات القاسية ــ التى قد تبلغ حدا بعيدا من الغرابة ــ من جانب بعض الأنثروبولوجيين المحدثين الذين برزوا فى استخدام النماذج •

حقيقة أن المناطق الثقافية تتميز بعمق زمنى ، ولكنها تتميز فى نفس الوقت بالسمات الدالة على الثبات ، والسمات الدالة على التغير التى تبدو فى غالبية الظواهر الثقافية • وقــد تعتبر من ناحية ما عمليات تكيف ايكولوجية مشتركة تضم بيئات محددة • فعند ظهور التجديدات فى ميدان التكنولوجيا يمكن أن تتغــير عمليات التغيير الأساسية ليس فى طبيعتها فحسب ، وانما فى حدودها كذلك • الا أن الركائز الجغرافية المستقرة

نسبيا تعمل على المحافظة على الاستمرار فى وجه التغير [١] • ومن المفاهيم المفيدة الأخرى مفهوم تراث **المنطقة المشترك** الذى طوره بينت Bennett فى دراساته عن بيرو • فقد أوضح بينت فى دراسته لهــذا الاقليم أن هناك نوعان من التراث قد وجدا على مــدى فترة زمنية طويلة • وقــد تعرض كل منهما للتغير على مــدى الزمن ، وتفاعلا ببعضهما البعض • الا أنهما حافظا مع ذلك على هوية كل منهما المستقلة الى حد كبير [٢] • وهناك الاتجاه النشوئى الذى اقترحه رومنى Rommey لأول مرة ، والذى يمكن تطبيقه على المناطق الثقافية ، كمــا يمكن تطبيقه على الوحــدات الأخرى [٣] • (لا يشير مصطلح نشــوئى genetic فى هــذا السياق الى معناه البيولوجى الصارم ، وانما يهتم فقط بأصول وتطور وحــدة ثقافية معينة) • ويفترض هذا الاتجاه أن الشعوب التى تشترك فى بعض السمات اللغوية أو البيولوجية ، أو الثقافية فى الوقت الحاضر قد تطورت عن طراز أصلى أقدم • ويحاول هذا الاتجاه اعادة رسم تاريخ هــذا التطور عن طريق أكمل ربط ممكن بين البيانات الاثنولوجية ، والأركيولوجية ، واللغوية ، والأنثروبولوجية الفيزيقية • وبغض النظر عن الفشل أو النجاح الذى انتهت اليه التفسيرات التاريخية المختلفة لمفهوم المنطقة الثقافية ، وهو يعد أداة مفيدة فى تنظيم البيانات على نحــو مفيد للدراسات المقارنة ، ولدراسات التاريخ الثقافى ، والديناميات الثقافية ، والعمليات الثقافية [٤] •

---

(1) A. L. Kroeber, Cultural Areas and Natural Areas of Native North America (Berkeley : University of California Press, 1963). (first published in 1939 as Vol. 38 of University of California Publications in Aemrican Archaeology and Ethnology) and Configurations of Culture Growth (Berkeley : University of California Press, 1944).

(2) Wendell C. Bennett, «The Peruvian Co - tradition», ed. Wendell C. Bennett, A Reappraisal of Peruvian Archaelogy (Menasha, Wis. : Society for American Archaeology, Memoir No. 4, 1948), pp. 1-7.

(3) A. Kimball Romney, «The Genetic Method and Uto - Aztecan Time Perspective», Davidson Journal of Anthropology, 3, No. 2 (1957), 35 - 41.

Erich and Henderson, op. cit., p. 566.

٦ ـ النسبية الثقافية :

الملاحظ أن دراسات بواس وغيره من علماء الأنثربولوجيا الأمريكيين قد ارتكزت على نظرة تعددية الى تاريخ الثقافة ، على خلاف النظرة الواحدية التى كان يؤمن بها التطوريون الأوائل • فقد كانوا يعتقدون أن كل ثقافة تمثل كيانا كليا متميزا له تاريخه الفذ • أما الدراسات المقارنة فقد تركت ليضطلع بها الباحثون فى المستقبل • وكانت الحاجة الأولية الملحة تتمثل فى الحصول على أكبر عينة ممكنة من الثقافات المتميزة (المستقلة) ، ويعمد الباحثون الى وصفها ككيانات كلية متكاملة وظيفيا ، وكمحصلة لظروف تاريخية معينة ، وكان يعتقد أنه بعد انجاز هذه المهمة ، سوف يصبح من الممكن عندئذ تطوير نظرية اثنولوجية تتميز بالاتساق الداخلى وبسلامتها من الناحية العلمية •

وقد تمخضت تلك الدراسات عن اسهامين رئيسيين : أولهما أن مفهوم الثقافة أصبح محددا بوضوح أكبر ـ رغم ازدياد الاختلاف بين التعريفات ـ وانتشر خارج نطاق المشتغلين بالدراسات الأنثروبولوجية ، حتى أصبح هذا المفهوم اليوم ، كما وصفه كروبر ، يمثل : « أحد المفاهيم الرئيسية فى الفكر الأمريكى المعاصر [1] » • ويتمثل الاسهام الثانى فى ظهور مفهوم جديد ، هو مذهب النسبية الثقافية ، الذى يحظى اليوم بأهمية محورية فى معظم النظريات الأنثروبولوجية ، سواء فى داخل الولايات المتحدة أو فى خارجها •

ويعد مفهوم النسبية الثقافية وفكرة التعدد الثقافى المرتبطة به الى حد كبير جزءا من رد الفعل العنيف من جانب بواس وآخرين ازاء النزعة

---

(1) A. L. Kroeber and Clyde Kluckhohn, «Culture : A Critical Review of Concepts and Definitions», Papers of the Peabody Museum of American Archaeology and Ethnology (Harvard University), XLVII, No. 1 (1952), p. 3.

التطورية التى كانت موجودة فى القرن التاسع عشر • فقد كانت نزعة واحدية ؛ كما كانت تتميز بمشاعر التمركز نحو السلالة الى حد ما فى تناولها للموضوعات • فبينما كان المفكرون التطوريون يعتبرون الثقافات المختلفة أساسا بمثابة شاهد على مراحل معينة من سلسلة تطورية تشمل العالم بأجمعه ، نرى كثيرا من مفكرى القرن العشرين يعتبرون كل ثقافة عبارة عن كيان كلى متميز ، يعتبر هو وثقافات أخرى من نفس المنطقة المحددة نتاج بعض العوامل التاريخية المتباينة ، ذات الدلالة المحلية • وكانت نزعة التمركز حول السلالة السائدة عند المفكرين التطوريين تجعلهم يرون فى الحضارة (وخاصة الحضارة الأوربية) نموذجا للذروة (وان لم تكن بالضرورة المرحلة النهائية) التى بلغها التطور الانسانى • أما اليوم فان كثيرا من علماء الأنثروبولوجيا المحدثين يستبدلون بهذا الموقف فكرة مؤداها أن كل ثقافة يمكن أن تقيم على أساس ظروفها الخاصة وواقعها ، وأنه من المستحيل من الناحية الوضوعية تعيين مستويات للتقدم الثقافى تشمل العالم بأجمعه •

على أن هذا الموقف لا ينكر وجود العموميات الثقافية ، اذ أن هناك قبل كل شىء درجة من التشابه الصورى حتى بين أشد الثقافات تباينا ، وان كانت أوجه الشبه فى المضمون تبدو قاصرة على مناطق تقل حدودها كثيرا عن حدود العالم برمته • وهكذا يقول هيرسكوفتس : « ان الأخلاق تمثل أحد السمات العامة فى الثقافة ، وكذلك الحال بالنسبة للاستمتاع بالجمال ، وبعض معايير الصدق • الا أن كثيرا من الأشكال التى تظهر بها هذه المفاهيم تعد نتاج التجربة التاريخية المتميزة للمجتمعات التى تمارسها [١] » • وعلى هذا الأساس فان العموميات الثقافية ليست سوى مقولات صورية وعامة (منها على سبيل المثال الحق ، والجمال ،

---

(1) M. J. Herskovits, Man and His Works (New York : Alfred Knopf, 1948), p. 76.

والأخلاق) التى يختلف مضمونها واسلوب التعبير عنها تبعا لكل تراث ثقافى متميز • فالبشرية ككل تقدس الصدق ، وتستمتع بالجمال ، وتسلك سلوكا أخلاقيا ، ولكنها تفعل ذلك كله بطرق متباينة أشـد التباين ، بحيث أنه يبدو من المستحيل التوصل الى تحديد مجموعة موضوعية من القيم المطلقة • وحيثما توجـد أوجه شبه فى المضمون الثقافى ، فانه يمكن تفسير هـذا التشابه ، اذا كانت المجتمعات التى تماس ذلك السلوك تعيش على اتصال فيما بينها ، عن طريق الاتصال بين المجتمعات أو الاستعارة الثقافية •

٧ ـ علم الثقافة المقارن :

نلاحظ أن وجهة النظر النسبية والتعددية المتطرفة بعض الشىء لاتلقى قبولا من كافة الأنثروبولوجيين المحدثين • وقد حاول البعض ، وان لم يصادفهم الكثير من النجاح ، ايجاد وسيلة لتصنيف البيانات الثقافية المتنوعة التى تجعل التعميم العلمى أمرا ممكنا ومفيدا فى نفس الوقت • وهنا نجـد اتجاهين عامين فى البحث • أولهما اتجاه آنى فى جوهره يحاول ـ كما يقول كلاكهون ـ أن يتوصل الى اجابة عن السؤالين التاليين : ـ « هل هناك حدود ـ على قـدر من الوضوح ـ يخضع التنوع الثقافى القائم بينها لانتظامات بشرية عامة فى النواحى البيولوجية والسيكولوجية ، وعمليات التفاعل الاجتماعى ؟ ثم هل تؤدى هذه الحدود ، وكذلك الاتجاهات المصاحبة لها نحـو التشابه فى الشكل والمضمون ، الى خلق مقـولات ثقافية عامـة ، بمعنى أنها يمكن أن تمثل أسسا مرجعية ثابتـة للوصف والمقارنة ، وربما كذلك التماثل الأساس أو التقريبى [١] » • أما الاتجاه

---

(1) Clyde Kluchohn, «Universal Categories of Culture», ed. A. L. Kroeber, Anthropology Today (Chicago : University of Chicago Press, 1953, pp. 507 - 523), p. 507. Reprinted by permission.

هذا وقد ترجم هذا المقال الهام الى اللغة العربية : انظر :

كلايد كلاكهون : « المقولات العامة للثقافة » ، ترجمة الأستاذ فاروق عبـد القادر ، مراجعة الدكتور يوسـف مراد ، مقال بمجلة مطالعات فى العلوم الاجتماعية ، العدد الاول ، شتاء ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ، تصـدر عن قسم العلوم الاجتماعية فى مركز التعاون العلمى لليونسـكو فى الشرق الأوسـط دار المعارف ، القاهرة ، ص ص ٩ ـ ٣٥ • (المترجم)

الآخر فاتجاه تتابعى يبحث عن الانتظامات أو القوانين التى يخضع لها التغير الثقافى ، ســواء كانت تلك القوانين قابلة للتطبيق بشكل عام ، أو فى حــدود معينة واضحة فقط .

ويواجه كلا الاتجاهين صعوبات راجعة فى المقام الأول الى مناهج البحث الحديث ، أعنى طرق جمع المــادة الثقافية ، وتنظيمها ، والمقارنة بينها ، وكذلك الى الاهتمام القوى بالتخصيص التاريخى الذى قد يصل الى حــد استبعاد التعميم العلمى تماما أو يكاد . وهنــاك ــ فى رأى كلاكهون ــ طريقتان أساسيتان فى تصنيف المــادة الثقافية . أولهما ــ وهى التى يستخدمها معظم الأنثروبولوجيين مع كثير من الاختلافات فى التفاصيل ــ تقسم المــادة الى مقولات (فئات) مختارة (كالقانون ، والتنظيم الاجتماعى ، والدين ، والاقتصاد) . وهو بذلك لا يختلف كثيرا عن تعريف تايلور للثقافة الذى عدد فيه عناصرها المختلفة . ومن الملاحظ أن هذه الطريقة لا يمكن استخدامها الا بشكل مبتسر فقط (للأغراض المقارنة) ، وتؤدى ــ فى أحسن الظروف ــ الى حــد أدنى فقط مــن تضارب فى المعنى . ولكن الأهم من ذلك أن هــذه الطريقة ترتبط بواقع الثقافة المدروســة ، وان كانت لاتخلو من نظرة تعصب للسلالة ، ذلك لأنها تعتمد اعتمادا زائدا على مقولات خاصة بالثقافة الأوروبية الغربية . فاذا طبقت على مادة ثقافية غير أوروبية ، وجدنا أن التصنيفات التى من هــذا النوع كثيرا ماتفصل بين عناصر من المــادة تنتمى الى بعضها ، وتضم تحت مقولة واحدة كثيرا من العناصر التى كان يجب أن تفصل عن بعضها . ولذلك فان السؤال النظرى الهام الذى يقول : « هل هــذه المقولات قابلة للتطبيق بشكل عام على كل الثقافات ؟ لم يكن محل بحث حقيقى . لأنه يبدو أن الباحث ــ من أتباع هذا الاتجاه ــ يجيب عليه فعلا بشكل فرضى قبل أن يبدأ البحث .

المنهج الثانى هــو تحديد بعض المقولات على أســاس ما تحدده الثقافة نفسها ، وما يتضح فى لغتها . وقد استخدم الباحثون لتحقيق هذا

الغرض عدة طرق متنوعة ، ابتداء من الاســتخدام المــرن للمصطلحات الوطنية ، حتى أسلوب العرض الذى يستهدف تصــور الثقافة كما لو كان صــادرا عن دارس محلى من أبناء تلك الثقافة • وقد حاولت الدراسات الحديثة فى ميــدان البحــوث التى تعرف باسم البحــوث اللغويــة الاثنولوجية (*) التوصل الى اكتشــاف المفاهيم والمقولات المتضمنة فى اللغة الوطنية ، وذلك لكى تستطيع وصف كل ثقافة فى كيانها الكلى المتميز وصفا على أكبر جانب من الدقة •

وعلى الرغم من أن هــذا المنهج لم يطبق بالفعل الا فى وصف عدد ضئيل من الثقافات ، الا أنه من الواضح أنه يثير صعوبات بالنسبة للبحوث المقارنة • فالطابع التخصيصى لهذا المنهج واضح ، فلكى يتجنب الوقوع أسير نزعة التمركز حول السلالة ، نجده على وشك أن يقع فريسة النسبية المفرطة • ولمــا كان الاهتمام الأساسى هنا ينصب بالتحديد على تلك السمات التى تجعل الثقافة كيانا متميزا ، ولمــا كانت لغة الدراســات الوصفية الثقافية لا تهيىء أساسا مشتركا للمقارنة ، فانه يصبح من الصعب عقد مقارنة بين الثقافات ، اللهم الا بطريقة غامضة وحدسية •

وهكذا نجــد أنفسنا أمام ظاهرة التناقض البارزة فى نظرية الثقافة المعاصرة ، وأعنى الرغبة فى الحفاظ على المزايا المؤكدة التى تنجم عن النظرة التخصيصية والنسبية ، ثم الحرص ــ فى نفس الوقت ــ على

(*) يغطى ميدان اللغويات الاثنولوجية Ethnolinguistice دراسة العلاقة بين اللغة والثقافة . وقد اشــار عديد من الباحثين الى الغموض الشديد فى معنى هذا المصطلح . فهو عند سابير Sapir يمثل دور الدراسات اللغوية المتعلقة بتاريخ الثقافات ، وعند فوجلين Voeglin دراســة الارتباط بين السلوك الثقافى والكلمات فى موقف معين ، وعند ميد Mead دراســة اللغة كأداة من أدوات البحث فى علم الاثنولوجيا ، وعند فورف Whorf علاقة السلوك والتفكير باللغة ... الخ . قارن محمد الجوهرى وحسن الشامى ، قاموس مصطلحات الأثنولوجيا والفولكلور ، الذى سبقت الاشارة اليه صفحتى ٢٩٩ ــ ٣٠٠ . (المترجم)

ايجاد وحـــدات غير مرتبطة بثقافة معينة يمكن على أساسها اقامة علم مقارن فعلا لدراســـة الثقافة •

على أننا لا نعدم جهودا لحل هذه المعضلة • فقد رأينا فى ســـياق سابق أن الأنثروبولوجيين الأوائل (أى قبل عام ١٩١٠) كانوا على يقين من وجـــود بعض المقولات الثقافية العامة ، ومن ثم كانوا غير نسبيين فى نظرتهم • وقد وضع ويسلر ــ فى الفترة من عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٤٠ ــ قائمـــة مؤقتة بالأنماط الثقافية العامة ، كانت تماثل فى جوهرها المقولات التى تتخذ طابع الحصر ، والتى تناولناها من قبل • وكانت مرتبطة حتما بأساليب التفكير الأوربية الغربية • كذلك ساهم دوركايم وموس Mauss فى علم الاجتماع ، وفرويد وأتباعه فى علم النفس ، وبعض الجغرافيين فى البحث عن حل للمشكلة على أسس مختلفة ، ولكن دون أن يصادفوا قدرا كبيرا من النجاح • أما عن المفكرين النظريين الاحدث فنجـــد أن دراسات كل من مالينوفسكى ، ورادكليف براون ، وكلاكهون ، وستيوارد ، وغيرهم تقدم لنا نظرات ثاقبة مفيدة ، دون أن تقدم حلا نهائيا ، أو يمكن قبوله على نطاق واسع • ولا نستطيع أن نعرض هنا لأعمال كل هؤلاء ، ولكن قد يكون من المفيد أن نتناول بالمعالجة اثنين من الاتجاهات الحديثة المتميزة • أولهما هـــو الاتجاه الوظيفى فى تناول الثقافة ، والآخر عبارة عن صــــورة محدثة من التطور الثقافى •

٨ ــ الوظيفية والمفاهيم المرتبطة بها :

تبينا من قبل أن المدارس التاريخية المختلفة فى الأنثروبولوجيا ــ وخاصـــة المدرسة الأمريكية ــ تنظر الى الثقافة الواحدة باعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة ببعضها ، المتباينة فى نشأتها وتاريخها ، والتى تبدو متجاورة نتيجة بعض الأحداث التاريخية المعينة ، فكأن أولئك المفكرين ينكرون وجـــود علاقات وظيفية أساسية بين تلك العناصر • ويرون أن

حملة ثقافة معينة ، يعتبرون أن هناك علاقة ما ضرورية بينها ، وذلك من خلال عملية تبرير عقلى فقط [١] .

وسرعان ما تصدى البعض لذلك المفهوم عن الثقافة ، وخاصة الوظيفية الى قدر من التفصيل فى كتابات مالينوفسكى العديدة (التى بدأت حوالى عام ١٩٢٠) • الا أننا يمكن أن نجد أوفى معالجة لها فى كتابيه : « نظرية علمية فى الثقافة ومقالات أخرى » (الذى صدر عام ١٩٤٤) ؛ « وديناميات التغير الثقافى » (الذى صدر عام ١٩٤٥) (*) • يؤكد مالينوفسكى فى البداية أن كل ثقافة حية هى عبارة عن كيان كلى وظيفى ومتكامل ، شبيهة بالكائن الحى ، وأننا لا نستطيع أن نفهم أى جزء من أى ثقافة الا فى ضوء علاقته بالكل • فالأداء الوظيفى للعنصر الثقافى داخل النسق الكلى للثقافة هو الذى يفسر هذا العنصر ، ويكشف عن هويته الحقيقية • فنحن لا نستطيع أن نفهم العنصر الثقافى عن طريق اعادة رسم صورة تاريخ نشأته وانتشاره ، وانما من خلال طرق تأثيره وتأثره بعناصر النسق الأخرى • فمن الواضح أن التاريخ لا يلعب دورا فى هذه النظرة • فالثقافة تدرس كما هى موجودة بالفعل وحسب على مستوى زمنى واحد ، وليس فى ضوء نموها التاريخى أو التطورى •

أما الجانب الثانى فى نظرية مالينوفسكى فهو محاولة لتفسير الثقافة ذاتها ، من أجل تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الانسانية ، ومن ثم تفسير وجودها عند الناس • وهنا أيضا نجده لا ينظر الى هذا الموضوع كمشكلة تاريخية ، ومن باب أولى لا ينظر اليه كمشكلة تطورية • وانما

---

(1) L. Speir, «Historical Interrelations of Culture Traits : Franz Boas' Study of Tsimshian Mythology», Analysis 31 in ed. S. A. Rice, Methods in Social Science (Chicago : University of Chicago Press,. 1931), pp. 449 - 457, p. 455.

(*) Malinowski, Bronislaw, A Scientific Theory of Culture and Other Essays, and The Dynamics of Culture Change.

يحاول مالينوفسكى ــ بدلا من هــذا ــ أن يربط الثقافة ، فى كل جوانبها الرئيسية ، بالاحتياجات الانسانية • أى يوجــد علاقــة بين متطلبات الانســان ككائن حى بيولوجى وأساليبه فى اشباع هذه المتطلبات ، التى يمكن أن تنطبق بصفة عامة على الانسانية جمعاء •

وفى رأى مالينوفسكى أن البشر فى كل مكان عليهم أن يشبعوا سبع احتياجات بيولوجية أساسية ، اذا ما أرادوا أن يكتب لهم البقاء • وهذه الاحتياجات هى : الاحتياجات الغذائية ، الاحتياجات التناسلية ، واحتياجات الجسم الى الراحة ، والأمن ، والحركة ، والنمو ، والصحة • ونجــد فى كل مجتمع فى العالم نوعا من الاستجابة الثقافية لكل من هذه الاحتياجات نوردها فيما يلى : نظام معين للتموين (بالمواد الغذائية) ، نسق القرابة ، المأوى ، وسائل الحماية ، الأنشطة المختلفة ، التربية ، وأخيرا وسائل حفظ الصحة • وان كان مالينوفسكى يحــذر من النظر الى الاحتياجات البيولوجية باعتبارها قوى تدفع البشر الى البحث الأعمى عن اشــباع الاحتياجات • لــذلك يتعين أن ننظــر الى كل زوج مــن الاحتياجات والاستجابات (مثل الاحتياجات الغذائية ونظام التموين) كوحدة واحدة لاتنفصم ، أو على أنهما يمثــلان الجانبين البيولوجى والثقافى ــ على التوالى ــ لنفس الظاهرة • ذلك أن الاحتياجات المعتادة للحياة نجدها فى كل مكان ترتبط برابطة لا تنفصل مع بعض أساليب الاشباع المنظمــة والدائمــة ، والا تعذر أن تقوم للمجتمعات البشرية قائمــة •

وتؤدى الاستجابات الثقافية للاحتياجات البيولوجية الأساسية بدورها الى خلق بعض الاحتياجات الثانوية • وهى احتياجات ثقافية فى طبيعتها أكثر منها بيولوجية ، تتميز هى الأخرى بأنها مشتركة بين أبناء البشرية جميعا • ولتوضيح هــذا يمكن أن نقارن بين حاجة الجسم الى الغذاء ، التى تتم مواجهتها ببعض أساليب الحصــول على الطعام ، وبين الحاجة الثانوية الى تدريب أبناء ثقافة ما على الاستخدام السليم والانتفاع بهذه

الأساليب • ومن الواضح أن مثل هذا التدريب ليس أقل ضرورة للوجود الانســانى من عملية الحصــول على الطعام نفسه ، ولكنها ترتبط بالحاجة البيولوجية الكامنة وراءهما بشكل أقل مباشرة • واذا نظرنا الى الاحتياجات الثانوية فى مجموعها وجدنا أنها تنقسم الى اربعة دوافع ثقافية فعالــة رئيسية ، يجــد كل منها استجابة له فى قسم أو جانب كبير من جــوانب الثقافة • وهكذا نجــد أن الأنســاق الاقتصادية تعتبر استجابة للدافع الفعال الى صنع الأدوات ، والمعــدات ، والأشياء المــادية الضرورية الأخرى ، واستخدامها ، وصيانتها ، واستبدالها • كما تعتبر نظم الضبط الاجتماعى استجابة للدافع الفعال الى وضع القواعد والقوانين لتنظيم السلوك الانسانى فى كل جوانبه • وتمثل التربية المقولة الثالثة ، وهى عبارة عن استجابة للدافع الى اختيار المشاركين فى الثقافة ونظمها ، واعدادهم وتزويدهم بالمعــرفة اللازمة لأدائهم الأدوار المنوطة بهم • أما الفئــة الرابعة والأخيرة فهى التنظيم السياسى وهو استجابة للدافع الى ضرورة تحديد السلطة داخل كل مجتمع ، وتزويدها بالصلاحيات ، وبالوسائل الكفيلة باستخدام تلك الصلاحيات •

وتتميز نظرة مالينوفسكى الى الثقافــة ــ من بين ما تتميز به ــ باستخدامها مفهوم الوظيفة ، وتأكيدها على الاتجاه غير التاريخى فى فهم الظواهر الثقافية • وربما كانت تلك السمــة الأخــيرة هى التى تربط مالينوفسكى برادكليف براون ، الذى كثيرا ما يعد خطأ عالما وظيفيا مثل مالينوفسكى • ولم يعرض أى مؤلف نظرى حتى الآن عرضا شاملا لآراء رادكليف براون فى الثقافة • وربما كان أفضــل عرض لها ماورد فى مقاله : « مناهج الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية » (المنشور فى : مجلة جنوب أفريقيا العلمية ، المجلد العشرون ، ١٩٢٣) ، وكذلك مقاله : « الوضع الراهن للدراسات الأنثروبولوجية » (تقرير المؤتمر المئوى للجمعيــة البريطانية لتقدم العلوم ، ١٩٣٢) ، وأخيرا مقاليه عن « القانون البدائى »

و « الجزاء الاجتماعى » المنشـــورين فى دائرة معارف العلوم الاجتماعية (١٩٣٥) (*) •

وعلى خلاف مالينوفسكى يوجه رادكليف براون اهتمامه الى دراسة المجتمع ، لا الى الثقافة ، ويعتبر نفسه عالم اجتماع أو أنثروبولوجيا اجتماعيا أكثر منه دارسا للثقافة • وهو يؤكد أن المجتمع يتكون ــ شأنه فى ذلك شـــأن الكائن الحى ــ من أجزاء متداخلة وظيفيا ومتبادلة الاعتماد على بعضها • وكما أن أجزاء الكائن الحى تعمل معا للحفاظ على الكل ، كذلك تساهم التقاليد والنظم الموجودة فى المجتمع فى الحفاظ على بقـــاء الكائن الحى الاجتماعى واستمراره • وتلك هى بالفعل الوظيفة الرئيسية ــ وان لم تكن الوحيدة ــ لتلك التقاليد والنظم ، اذا نظرنا اليها فى مجموعها، وأعنى هنا ضمان بقاء المجتمع نفسه • الا أن راد كليف براون لم يحاول ــ كما فعل مالينوفسكى ــ أن يفسر المجتمع أو الثقافة فى ضوء الاعتبارات البيولوجية • وكرس جهده ــ بدلا من هذا ــ لدراسة المجتمعات نفسها دراســـة مقارنة ، معتمدا على المادة المتاحة التى قدمها علم الأنثروبولوجيا الاجتمـــاعية •

ولم يكن هدفه من تلك الدراسات تاريخيا ولا تطوريا • فهو يرفض هذين الاتجاهين معا رفضا قاطعا مفضلا عليهما البحوث غير التاريخية • ويسعى راد كليف براون الى تحقيق الأهـــداف التالية :

(*) Radcliffe - Brown, «Methods of Ethnology and Social Anthropology» (South African Journal of Science, Vol. 20, 1923), «The Present Position of Anthropological Studies» (Report of the Centenary Meeting, British Association for the Advancement of Science, 1932), «Primitive Law» and «Social Sanction» in the Encyclopedia of the Social Sciences, 1935.

١ ـ الوصف الدقيق للأداء الوظيفى للأبنية الاجتماعية الموجودة فعلا فى المجتمعات الانسانية مؤكدا بوجه خاص على دورها فى الحفاظ على البنـــاء الاجتماعى •

٢ ـ التصنيف المنهجى للظواهر الاجتماعية ، مع استخدام مصطلحات على قدر مناسب من الدقة •

٣ ـ صياغة القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية ، وذلك من خلال المناهج العلمية التى تناظر مثيلاتها فى العلوم الطبيعية •

وقد استطاعت دراسات مالينوفسكى وراد كليف براون أن تحـــول كثيرا من علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين عن اهتمامهم السابق بالدراسات التاريخية ، لكى يبدوا اهتماما جديدا بفحص مناهجهم واتجاهاتهم واعادة تحديدها • وينعكس هذا التأثير ـ على سبيل المثال ـ فى تحليل لينتون للعنصر الثقافى الذى يرى أنه يتميز بأربعة جوانب أو سمات على الأقل هى : الشكل ، والاستخدام ، والوظيفة ، والمعنى • وقد عرف تلك الجوانب الأربعة على النحـــو التالى :

١ ـ يتضمن شكل العنصر الثقافى بعض الجـــوانب مثل الهيئـــة ، والأبعاد ، وطرق الصياغة ، وكل العوامل الأخرى التى تساهم فى وجوده الظاهر أو الملموس • وتتميز أشكال العناصر الثقافية المـــادية أو غـــير المـــادية بامكان ملاحظتها بسهولة ، وامكان تناقلها بسهولة من ثقافـــة لأخـــرى •

٢ ـ كذلك الاستخدام يتميز بسهولة ملاحظته وتناقله ، وهـــو يتضمن طرق استخدام شعب معين للعنصر الثقافى • فالفأس على سبيل المثال يمكن أن يستخدم لقطع الأشجار ، أو يمكن أن يقتصر استخدامه على بعض الأغراض الحربية (مثـــل قطع رؤوس الأعداء) أو على مناسبة طقوسية معينة • والاستخدام لايرتبط حتما بالشكل ، ذلك أن العناصر

الثقافية ذات الأشكال المتماثلة أو المتشابهة يمكن أن تستخـدم بطرق مختلفة أشـد الاختلاف فى الثقافات المتباينة .

٣ — أما وظيفة العنصر الثقافى فتتميز بأنها أوسع من استخدامه . وهى تنصب على مكانة ذلك العنصر فى الثقافة الكلية . فقد نجد على سبيل المثال أن الشعب الذى يسكن الغابات قد يستخـدم الفأس فى وظائف متنوعة تتصل بالزراعة وتطهير الأرض لاعدادها لانتاج المحاصيل . أما فى مجتمع آخر لا يعرف الأساليب الزراعية ، فان الفأس يمكن أن يؤدى وظيفته فى سياق مختلف تمام الاختلاف ، ومن هذا مثلا فى بناء المساكن ، وصنع القوارب ، وغير ذلك من العمليات الانشائية المماثلة . ومن ثم لا نجد هنا أيضا أى علاقة حتمية بين الوظيفة وأى من الاستخـدام أو الشـكل . فالواجب الثلاثة مستقلة عن بعضها تمام الاستقلال .

٤ — وأخيرا يشير المعنى الى مجموع الارتباطات التى يقيمها الشعب فى مجتمع معين حـول عنصر ثقافى ما . وهكذا نجـد فى غابات الأمازون مثلا — حيث لا تعرف الأحجار الا كأشياء يمكن الحصـول عليهـا فى التجارة — أن الفأس الحجرى يمثل أداة ذات قيمة عالية يجب الحفاظ عليها ، واستخدامها والعناية بها عناية فائقة . والواضح أن هذا المعنى سـوف لا نجد له أثرا عند الشعوب التى تعيش فى بيئة تتوفر فيهـا الأحجار ، وحيث يمكن أن تستبـدل الفؤوس — اذا فقـدت أو أتلفها الاستخدام — دون مشاكل تذكر . والمعنى هو الآخر سمة مستقلة ، يصعب — هذا اذا كان من الممكن أصـلا — تناقله من ثقافة لأخرى ، شأنه فى ذلك شأن الوظيفة [١] .

---

(١) Ralph Linton, The Study of Man (New York : D. Appleton — Century Co., -936), pp. 402 - 404.

هذا وقد صدرت لهذا الكتاب الهام ترجمـة عربية انجزها عبد الملك الناشف بعنوان دراسة الانسـان : المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت ، ١٩٦٥ . (المترجم)

ومن الواضح أن هذا التعريف الأكثر تعقيدا للعناصر الثقافية يلقى ضوءا جديدا على الدراسات التى تتناول توزيع العناصر الثقافية ، وعلى مفاهيم المنطقة الثقافية والعمر والمنطقة . وعلى الاستنتاجات التاريخية التى يمكن التوصل اليها بهذه الوسائل • كما يؤكد هذا التعريف على التداخل والترابط القائم بين العناصر الثقافية وعلى الصعوبة البالغة فى تحديد معايير التشابه القائم بين عناصر الثقافات المتباينة •

وقد عمل كثير من أتباع مالينوفسكى ورادكليف براون فى السنوات الأخيرة على السير قدما بعملية تحليل التكامل الثقافى • وكان من شأن الاهتمام الفائق الذى وجهه كثير من الأنثروبولوجيين الاوائل الى تحليل العناصر الثقافية وتوزيعاتها (أعنى اهتمامهم بالنظر الى الثقافة ككل) أن حجب الحقيقة التى مؤداها أنهم استطاعوا رغم نظرتهم التجزيئية ، النظر بصفة عامة الى الثقافات ككيانات كلية متكاملة • وقد أكد بواس — رغم ماذهب اليه نقاده — الحاجة الى تحليل الثقافات المختلفة كل على حدة بالتفصيل • ويبدو أنهم لم يكونوا يفتقرون الى الاهتمام بالتكامل ، بقدر ما كانوا يفتقرون الى بعض أدوات التحليل الحديثة •

وتهتم الأنثروبولوجيا المعاصرة أكبر الاهتمام ببناء الثقافة (أعنى العلاقة القائمة بين أجزائها) ، بدرجة تفوق اهتمامها بالموضوعات الخاصة نفسها • وقد أحرزت أكبر قدر من التقدم فى تحليل البناء الاجتماعى • وينظر نادل Nadel — على سبيل المثال — الى المجتمع كمجموعة من المكانات ، التى يشغلها أفراد متباينون فى فترات مختلفة ، وهو ما يفرض أنماطا معينة من السلوك ، ويخدم وظائف متنوعة فى المجتمع • وهو يرى أن هناك علاقة منظمة بين المكانات الموجودة فى المجتمع ببعضها • ويرى أن هذا النسق أو مجموعة الأنساق الفرعية تمثل البناء الاجتماعى • وتساهم هذه الاتجاهات وأمثالها فى امدادنا بشكل متزايد ببعض الأدوات التحليلية الفعالة فى دراسة الاستمرار والتغير فى الثقافة • ومن الواضح أنه اذا كانت الثقافات منظمة على نحو دقيق ، فان التغير لا يمكن أن

يكون مجرد عملية احلال بسيطة ، أو عملية اضافة ، أو حــذف لبعض العناصر المتفرقة ، وانما ينطوى على تغيرات فى جانب من النسق الثقافى ، أو فى النسق برمته • على أننا قد تناولنا بالفعل هذه النظرة للثقافة (وهى النظرة التى توجه كتابنا هذا) فى موضوع سابق (*) •

٩ ــ دراسات حديثة فى التطور الثقافى :

ارتكزت النزعة التطورية فى القرن التاسع عشر على الايمان بفكرة سير التطور فى خط واحـــد ؛ وهى الفكرة التى ترى أن كل الثقافات تمر فى الحقيقة بنفس مراحل النمو ؛ وأنه من الممكن أن ندرج كل ثقافة ــ على أســاس مبلغ التقدم الذى وصلته ــ تحت واحدة من الفئات الأساسية الثلاث : التوحش ، أو البربرية ؛ أو الحضارة • الا أنه أصبح من الصعب اليوم الدفاع عن مثل هذه الفكرة • فالمعلومات الأثنوجرافية والأركيولوجية الحديثة لا تؤيد قضاياها الرئيسية ، وانما تشير على العكس الى عديد من أنماط وعمليات التغير الثقافى المتنوعة •

ويرى ستيوارد Steward أن النزعة التطورية المحدثة (التى يطلق عليها اسم التطور الشامل) تتحاشى الوقوع فى هذه المشكلة : اذ تدرس الثقافة الانسانية ككل ، وليس ثقافات معينة • وقد حدد هوايت هــذه القضية بشكل أوضح عندما قال : « أن الأداء الوظيفى لأى ثقافة معينة ســوف يتحدد بالطبع من خلال الظروف البيئية المحلية • ولكننا فى دراستنا للثقافة ككل ، يمكن أن نأخذ فى اعتبارنا معدل التأثير الصــادر عن كل البيئات بحيث تشكل عاملا ثابتا يمكن استبعاده من أحكامنا العامة على التطور الثقافى [١] » • ويعبر تشايلد Childe عن نفس الفكرة الى حــد

(*) انظر على وجه الخصوص الفصل الرابع من كتاب بيلز هــذا ، خاصة الفقرتين ٦ ، ٧ من ذلك الفصل . (المترجم)

(١) Leslie White, The Science of Culture (New York : Farrar, Straus and Young, 1949), p. 368.

كبير عندما كتب يقول ان التعــدد الثقافى الذى تكشــف عنه البحــوث الاثنوجرافية والأركيولوجية يمثل « عقبة فى طريقنا ، اذا ما كنا نستهدف تحديد مراحل عامة فى تطور الثقافات • ومن ثم يتعين علينا اذا أردنا الكشف عن قوانين عامة تصف تطــور جميع المجتمعات ، أن نسقط أو نقلل من الملامح المميزة للبيئات المعينة [١] » •

ويعد هوايت أكثر هؤلاء الأنثروبولوجيين الثلاثة الذين أشرنا اليهم هنا وضوحا فى اتجاهه التطورى • فهو يكاد يكون بحق الأنثروبولوجى المعاصر الوحيد الذى كرس نفســه جديا لدراســة مشكلة التطور الثقافى • ويمكن القول بوجه عام بأنه يتأثر بآراء مورجان تأثرا وثيقا بعض الشىء ، الى حــد أننا نكاد نعتبر دراساته صياغة حديثة للقضية الأساسية عند مورجان • وان كان هوايت قد قدم اضافة لها شأنها فى توضيحه لآراء مورجان واضفاء مزيد من الدقة عليها •

ويرى هوايت أن الانسان كسائر الحيوانات الأخرى يستغل بيئته لكى يحصل منها على الوســائل اللازمة لتدعيم حياته والابقاء على نوعه • الا أن الانســان على خــلاف سائر الحيوانات قد خلق ثقافة تســاعده فى هذه العملية • وقد أصبحت هــذه الثقافة على مــدى آلاف السنين الطويلة لوجــوده على الأرض ـ تدريجيا ـ أداة أكثر فعالية فى صراع الانســان من أجــل الحفاظ على نفســه • ويرى هوايت أن من أهم مشكلات الأنثروبولوجيا دراســة هذا التطور الثقافى ليس فقط من أجل تحديد مراحل تسلسل النمو الثقافى ، وانمــا كذلك من أجل تحــديد العامل أو العوامل المسئولة عن هذا التطور • وقد وجــد هذا العامل فى مفهوم الطاقة ، وانتهى الى صياغــة القانون التالى للتطور الثقافى : « تتطــور الثقافة عندما تزداد كمية الطاقة التى يستخدمها الناس محسوبة على أساس

---

(1) V. Gordon Childe, Social Evolution (London and New York H. Schuman, 1951), p. 35.

نصيب الفرد فى العام ، أو عندما تزداد كفاءة الوسائل التكنولوجية التى تسخر فيها هذه الطاقة ، أو عندما يزداد هذان العاملان معا [١] » •

ولكى يوضح هوايت هـذا القانون طبقه على فكرة مورجان التى مؤداها أن الثقافة قد تطورت فى ثلاثة مراحـل رئيسية : من التوحش الى البربرية الى الحضـارة • ويوضح هوايت أن الانسـان فى مرحلة التوحش لم يكن لديه سـوى طاقته الجسمية الخاصـة ؛ اللهم الا فى حالات الاستخدام العرضي والنادر للنار ، والريح ، والمـاء • ومن ثم كانت ثقافته فى تلك المرحلة محـدودة سـواء من الناحية التكنولوجية أو من ناحية التنظيم الاجتماعى ، كما يبدو ذلك مثلا عند الشعوب الأمية كسكان أستراليا الأصليين •

وتكشف الشواهـد الأركيولوجية على أن كل الشعوب أثنـاء العصر الحجرى القديم كانت تعيش تلك المرحلة من مراحل التطور الثقافى • ولم تنم الثقافة خلال تلك المرحلة الا بمقدار زيادة كفاءة التكنولوجيا (وهى تتضمن وسائل استهلاك تلك الطاقة) ، أى تبعا لاختراع أدوات وأساليب جديدة • ومازلنا نجد فى عالم اليوم أنه على الرغم من أن الثقافة قـد تطورت الى حـد بعيد الى ما بعد مرحلة التوحش ؛ الا أنه مازالت هناك بعض الشعوب التى تعتمد ثقافاتها على الطاقة البشرية وحدها ، والتى مازالت حتى الآن فى مرحلة التوحش • والنقطة المهمة هنا أن التوحش لا يدل على فترة زمنية معينة فى تاريخ الثقافة ؛ وانما تشير الى مرحلة من مراحل تطور الثقافة ، يمكن الاستدلال عليها من واقع أى فترة فى تاريخ العـالم •

أما المرحلة الثانية من مراحل التطور الثقافى ، وهى البربرية ، فقد

---

(١) Leslie A. White, «Energy and the Evolution of Culture», American Anthropologist, 45, (1943), 445 - 356, p. 338.

بدأت باستئناس النباتات والحيوانات • وهنا يرى هوايت أننا بصدد مصدر جـديد للطاقة ، وليس مجرد تقـدم تكنولوجى • ويعبر عن تلك الفكرة قائلا : « وعندمـا استأنس الانسـان الحيوانات واستزرع النباتات استطاع بذلك تسخير قـوى فعالة من قوى الطبيعة ، واستطاع اخضاعها لسيطرته ، والاستفادة بها فى تحقيق أغراضه • وهكذا فان الفرق بين الاقتصاد القائم على النباتات والحيوانات البرية والاقتصاد القائم على الاستئناس هـو أن عائد ما ينفق من الطاقة البشرية فى النوع الأول ، عائد ثابت ومحدد ، بغض النظر عن حجمه • على حين أن العائد الأولى لمـا ينفق من الطاقة البشرية فى ظل نظام الزراعة وتربية الحيوانات يتضاعف بلا حدود » [١] •

وقد أدت الزراعة ، التى يعتبرها هوايت أكثر أهمية بالنسبة لتطور الثقافة من استئناس الحيوان ، أدت على حـد قوله الى « زيادة هائلة فى كمية نصيب الفرد من الطاقة المتاحة لبناء الثقافة • ثم أدت ـ نتيجـة لذلك ـ الى نضج الفنون الزراعية ، مما أحـدث نمـوا هائلا فى الثقافة • وبدأت تظهر بسرعة الثقافات العظمى فى الصين ، والهند ، وبلاد ما بين النهرين ، ومصر ، والمكسيك ، وبيرو [٢] » •

ويمكن أن نشـير الى الشواهـد الأركيولوجية التى تدل على أن البربرية ـ كمرحلة من مراحل تطور الثقافة ـ قد ظهرت لأول مرة منذ ثمانية آلاف الى عشرة آلاف سنة فى العالم القديم ، ثم بعد ذلك فى العالم الجديد • ولم تشـارك جميع الشعوب فى استخدام مصـدر الطاقـة الجديد ، حيث وجدنا أن بعض الشعوب ـ كما أشرنا ـ مازالت تعيش فى مرحلة التوحش حتى اليوم • وظلت الثقافة مستمرة فى تطورها أثناء مرحلة البربرية ، ولكن من خلال المكتسبات التكنولوجية فقط ، مثل بدء

---

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ، صفحة ٣٤٣ .

استخدام المعادن الى جانب الأحجار فى صناعة الآلات ، واختراع المحراث ، والقوس ، والتقويم ، والكتابة ، وغير ذلك من الوسائل الثقافية العديدة . على أنه لم يظهر مصـــدر جديد للطاقة الا فى أوائل القرن التاسع عشر والثورة الصناعية ، عندما اكتشف الانســـان لأول مرة كيفية استخدام الطاقة الناتجـــة عن احتراق الفحم وغيره من مواد الوقود فى ادارة آلاته . ويرى هوايت أن هذا الاكتشاف ، وليس اختراع الكتابة كما يذهب مورجان وتايلور ، هو الذى يدل على بداية المرحلة الثالثة من مراحل التطور الثقافى، وأعنى مرحلة الحضارة .

واذا انتقلنا الى ميدان التنظيم الاجتماعى نجد هوايت يعتقد أن هذا الجانب من جوانب الثقافة « يعتمد على الوسائل المادية فى الحصول على الطعام ، وتوفير المأوى ، وتأمين الدفاع عن النفس ، ويتحدد من خلالها . فالتطور الاجتماعى باختصـــار يعـــد بمثابة نتيجة للتطـــور التكنولوجى (١) » . على أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحـــد ، اذ يقول هوايت : « على حين أنه من الثابت أن الانساق الاجتماعية تنشأ عن الأساليب التكنولوجية القائمة عليها ، وتعتمد عليها ، الا أنه من الثابت أيضا أن الأنساق الاجتماعية تحدد عمل الأنساق التكنولوجية التى تقوم عليها . فالعلاقة بينهما علاقة تفاعل وتأثير متبادل ، وان لم يكن متعادلا بالضرورة . فالنســـق الاجتماعى قـــد يعزز التأثير الفعـــال للاساليب التكنولوجية التى ينهض عليها ، ولكنه قد يحـــده أو يعوقه (٢) » .

ثم ينتهى هوايت الى النتيجة التالية : « وقد يبلغ من تأثير النسق الاجتماعى على عمل النسق التكنولوجى أن يفرض حـــدا على مـــدى توسع ونمو هذا الأخير . وعندما يحدث هذا ، فان التطور الثقافى يتوقف . ولا يمكن أن يعـــود سيرته الأولى الا عن طريق التماس بعض المصادر

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .
(٢) نفس المرجع السابق .

الجديدة للطاقة ، واستخدامها بالقدر الكافى لتفجير النسق الاجتماعى الذى يقيده • فاذا ما تحررت التكنولوجيا الجديدة على هذا النحـو ، فانها ستودى الى خلق نسق جديد ، ملائم لنموها وستعود الثقافة تتقدم من جديد ربما الى أن يوقف النسق الاجتماعى مسيرتها مرة أخرى »[١] •

فنموذج التطور عند هوايت يتميز بأنه ماكروسكوبى Macroscopic (ذو نظرة كلية شاملة) • ولعل سالينز **Sahlins** وسيرفيس Service أكثر من استخدموا هـذا النموذج • ولكننا نجـده بشكل ضمنى الى حد ما فى اشارات عدد كبير جـدا من علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين الى عمليات التنميط الثقافى ، بما فى ذلك العرض الذى قدمناه فى الفصول السـادس والسابع والثامن من هـذا الكتاب (*) • وتشير تلك الفصول الثلاثة ، وكذلك دراسات أخرى الى أنه داخل الفئات الكبرى المشتقة من الاعتبارات التكنولوجية يمكن أن توجـد عمليات تكيف ايكولوجية مختلفة الى جانب أشكال متباينة تمام التباين من النظم الاجتماعية • من ذلك أن وجود نوع من التنظيم الاجتماعى المميز لثقافات منتجى الطعام عند بعض ثقافات جامعى الطعام يدل على وجـود علاقة بين التكنولوجيا والتنظيم الاجتماعى أكثر تعقيدا مما كان يتصـور المفكرون القائلون بالتطور الخطى (أو الوحيـد الخط)[٢] •

ثم ظهور نموذج ميكروسكوبى Microscopic (ذو نظرة دقيقـة محدودة) أقل طموحا للتطور تحت اسم التطور المتعدد الخطوط • وقد

---

(١) انظر المرجع السابق ، صفحة ٣٤٨ .

(*) يشير المؤلف الى الفصول التى تناول فيها موضوعات « الثقافة فى المـاضى » (الفصل السادس) ، و « ثقافات جامعى الطعام : الصيادون ، وصيادو البحر ، وجامعو الطعام » (الفصل السابع) ، و « ثقافات منتجى الطعام الأولى والبسيطة » (الفصل الثامن) . (المترجم)

(٢) انظر على سبيل المثال :

Marshall D. Sahlins and Elman R. Service (eds.), Evolution and Culture, (Ann Arbor : The University of Michigan Press, 1960).

عرف ستيوارد التطور المتعدد الخطوط بأنه يحاول أن ينهج طريقا وسطا بين النسبية المفرطة ، بتأكيدها على الخصوصيات التاريخية ، والتطور الشامل بتأكيده على الثقافة ككل • ويقوم هـذا المفهوم على افتراض مؤداه أن أنواع التراث الثقافى المتميزة ليست متفردة بالضرورة ، اذ أن هناك من الأسباب ما يدعونا الى الاعتقاد بأن المعرفة المتحصلة من تحليل ثقافة معينة يمكن أن تمدنا بنظرات ثاقبة مفيدة فى تحليل ثقافة أخرى • وهـدف هذا التطور المتعدد الخطوط أن يكشف عن هذه النظريات ويؤدى بنا فى النهاية الى صياغتها فى صـورة تعميمات أو قوانين علمية •

وتتمثل المعلومات الأساسية الخاصـة بالتطور المتعدد الخطوط — كما هو الحال بالنسبة لكافة البحوث الأنثروبولوجية الحديثة — فى الدراسات الوصفية لثقافات معينة واعادة رسم صورة التاريخ الثقافى لتلك الثقافات على نحـو مفصل • على أن هـذا الاتجاه لا يؤكد فى المقام الأول على سمات التفرد التى تميز تلك الثقافات وتطورها التاريخى ، وانما على أوجه الشبه القائمـة بينها • فالمنهج الذى يتبناه هـذا الاتجاه منهج امبيريقى صارم • اذ يسلم بأن أنواع التراث الثقافى فى الأقاليم المختلفة قد تكون متميزة عن بعضها تميزا كليا أو جزئيا ، ونكتفى بطرح التساؤل التالى : هل هناك أى أوجه شبه ذات دلالة بين ثقافتين أو أكثر يمكن التعبير عنها فى صياغة محددة ؟ وحيثما توجـد أوجه الشبه هذه ؛ وحيثما يتيسر التعبير عنها فى صياغة محددة ، فقد يتسنى تحديد العوامل العلية — المتماثلة فى كل حالة — التى أدت الى هـذا التطور • ويؤكد ستيوارد على أن هذه العلاقات العلية قد لاتنطبق بالضرورة — بل قد لاتنطبق على الاطلاق — على كل الثقافات • وانما هى تدلنا ببساطة : « على بعض النظائر المحدودة فى الشكل ، والوظيفـة ؛ والتسلسل التاريخى ، التى تأكـد وجـودها امبيريقيا »[1] • ومن هـذا يتضح أن اتجاه التطور المتعدد الخطوط —

(1) Julian H. Steward, «Evolution and process», A. L. Kroeber (ed.), Anthropology Today (Chicago : University of Chicago Press, 1953, pp. 313 - 326), p. 318.

على خلاف الاتجاهات التطورية الأخرى ـ لاينطلق من نمط أو مخطط قبلى يمكن أن توضع فيه كل الثقافات • وانما هو محاولة لتطوير تصنيف للأنماط الثقافية ، عن طريق المقارنات المركزة بين أنواع التراث الثقافى فى مختلف أجزاء العالم ، ثم محاولة التوصل الى بعض الأحكام أو القوانين ذات الدلالة العامة بالنسبة لكل فئة من الفئات التى ينتهى البحث الى الكشف عنها • ولذلك فان مفهوم النمط الثقافى عند أصحاب هذا الاتجاه مفهوم مرن ، يراد منه أن يناسب ظروف البحث الامبيريقى • اذ يتميز النمط الثقافى بمجموعة أو باطار من السمات المختارة التى تبدو متشابهة بين ثقافتين أو أكثر (وليس بين جميع الثقافات) • فالسمات المميزة للنمط الثقافى تختار امبيريقيا وترتبط ارتباطا محددا بالمشكلة موضوع الدراسة • ولذلك يمكن القول تقريبا بأن أى جانب من جوانب الثقافة يمكن أن يكون ذا أهمية تصنيفية أولية • وأخيرا يفترض أن السمات المختارة ترتبط داخل كل ثقافة من الثقافات التى توجد فيها بنفس العلاقات الوظيفية أو البنائية •

ثم أننا لاحظنا أن نظرية التطور الشامل تستبعد كلا من العوامل الانسانية والبيئية ، وتقصر نفسها على مفهوم عام عن الثقافة فى ذاتها • أما نظرية التطور المتعدد الخطوط فهى على خلاف ذلك تأخذ هذه العوامل فى اعتبارها حينما كانت لها صلة بالموضوع بفضل تركيزها على الأنماط الثقافية المحددة • وقد أوضح ستيوارد نفسه أن عمليات التكيف الايكولوجى الثقافى (أى تأثير البيئة ، بما فى ذلك تأثير الظروف الطبوغرافية ، وكذلك كمية وتوزيع الموارد الأساسية ، تأثير ذلك كله على التراث الثقافى الآخذ فى التكوين) يمكن أن تكون عوامل ذات دلالة فى التغير الثقافى ، وخاصة بالنسبة للمجتمعات الصغيرة التى تعيش فى حالة ترحال وتنقل ، والتى لم تصل الا الى مستوى أولى من التقدم التكنولوجى • كما يسلم بأن الامكانيات الوراثية الحيوية (الشبيهة بتلك التى اقترحها مالينوفسكى وآخرون) لا يصح أن نتجاهلها ، على الأقل بالنسبة لبعض مشكلات التغير الثقافى •

وتشترك دراسات ستيوارد التطورية مع دراسات التطوريين الآخرين فى افتراض أن التطور الثقافى يتقدم دائمـا الى الأمام • ولو أنه لم يؤكد أن ذلك قد حـدث فعلا فى حالة من الحالات • وعليه فان آراءه تلك تتفق مع الآراء التى سبق أن وردت فى مكان سابق من هذا الكتاب (انظر الفصل الرابع ، الفقرتين ١ ، ٨) • أعنى أن كل أنواع التغير الثقافى ذات طبيعة تطورية الا أن الثقافات ــ كأنساق تكيفية ــ قد تصل الى حالات مستقرة ، وقد تعانى من عدم التكيف ، كما قد تمر بحالات تطور انتكاسى • الا أن الشواهد العديدة تدلنا على أن الاتجاه السائد فى تطور الثقافات كان اتجاها تقدميا • ومع ذلك فهناك أيضا ثقافات انتكست أو فقدت القدرة على التكيف • وليست دراسـة تلك الثقافات بأقل أهمية للنظرية العامة فى الثقافة •

١٠ ــ بعض مشكلات التغير الثقافى :

وجدنا أن الاتجاهات البنائية الوظيفية التى عرضنا لها فى الفقرة رقم ٨ تستخدم نموذجا للتوازن فى نظرتها الى المجتمع والثقافة • الا أنها تذهب الى أكثر من مجرد التسليم بالثبات كسمة مميزة للثقافة ، اذ تنطوى على التسليم بحالة استقرار وكل تغير يطرأ على المجتمع أو الثقافة يرجع الى مصـدر خارج المجتمع ، وتتبعه عملية استعادة للتوازن الذى كان قائما من قبل وقد أخـذ بهذا النموذج عدد كبير جدا من علماء الاجتماع الذين يفسرون أى اختلال فى التوازن بأنه حالة تفكك اجتماعى ، دون أن يأخذوا فى اعتبارهم امكانية أن ينطوى ذلك الوضع على بعض عمليات التغـير الاجتماعى • وكان أفضل ما استطاع الوظيفيون الأوائل تحقيقه بالنسبة لدراسـة التغير الثقافى الاجتماعى هو تناول نماذج ثابتة مقارنة على فترات زمنية متباينة ، وكانت الفروق بين النماذج المختلفة تعتبر دليلا على التغير ، وليست فى الحقيقة تفسيرا له •

ويمكن أن نحدد بعض العوامل التى تؤدى الى التغير الثقافى :-

١ ـ ان التغيرات الهامة فى الظروف الايكولوجية التى تواءمت معها الثقافة تستدعى حدوث تغيرات معينة ، اذا ما أراد المجتمع أن يكتب له البقـاء •

٢ـ يمكن أن تؤدى الاختراعات الى تحسـين مسـتوى التكيف الايكولوجى ، أو تسمح بظهور ظروف ايكولوجية جديدة • ويجب أن نأخـذ فى الاعتبار أن الاختراعات الاجتماعية يمكن أن تزيد من كفاءة النسق التكنولوجى القائم •

٣ ـ يعد الاتصال مع الأنمـاط الثقافية المختلفة أغنى مصـادر حدوث التجديدات ، بما فى ذلك الوعى بوجود بدائل جديدة •

٤ ـ التغيرات التطورية الناشئة عن أى من العوامل السابقة • وربما كان المثل على ذلك حدوث تغـير تكنولوجى يسمح بزيادة عـدد السكان ، وما يترتب على ذلك من ظهور أنواع جديدة من التخصص ، والتوزيع ، والضوابط الاجتماعية • فالتغير يكون تغيرا تطوريا ـ بالمعنى المستخدم هنا ـ اذا ما هيأ الظروف الضرورية أو المناسبة لحـدوث تغيرات تالية فى الثقافة وفى التنظيم الاجتماعى •

٥ ـ ان الأخطاء التى تحدث فى عملية النقل الثقافى يمكن أن تؤدى أيضا الى التغير • ومن الواضح أنه حتى فى أكثر الثقافات استقرارا وثباتا لا ينقل أى جيل ثقافته الى الجيل التالى بنفس الشكل تماما • والمشكلة هنا هى التمييز بين تلك التغيرات التى تمثل تنويعات قليلة الشـأن داخل نمط أساسى ، وبين التنويعات التى قد تصبح تراكمية (أى ذات شأن كبير) ومن ثم تؤدى الى تغير بعيد الدلالة فى الانماط الثقافية •

ولعل أهم مشكلات التغير الثقافى اليوم تستلزم العمليات الثقافية وتتضمن تلك العمليات ـ فى أحد مستوياتها ـ مشكلة الشخص المجدد • ويتبنى بعض الباحثين وجهة النظر القائلة بأن التغير لا يمكن أن يدرس

دراســة مفيدة الا فى ضــوء اتجاهات الأفراد وسلوكهم • وقد استطاع بارنت Barnett أن يفند هــذا الرأى بقوة ، اذ وجــد المجــددين أو الأشخاص الذين يقبلون التجــديد هم أكثر الناس احتمالا لأن يكونوا منشقين عن المجتمع ، أو غاضبين ، أو ساخطين عليه • وعلى الرغم من امكان اقامة الدليل على أن ذلك هو الوضع القائم فعلا فى الغالب ، الا أن هناك دراسات أخرى لبعض مواقف التغير المحددة التى أوضحت أن أكثر الأفراد ايجابية قد يكونون فى بعض الأحيان أولئك الأفراد الذين يشغلون مواقع مؤثرة أو رفيعة فى المجتمع •

وتبنى آخرون وجهة النظر القائلة أن هناك عمليات دينامية فى الثقافة والمجتمع تنطوى على التغير ، وأنه من الممكن عزل تلك العمليات ودراستها• وقــد ساهمت تلك الدراســات فى التعرف على الاختلافات أو الأخطاء فى عملية النقل الثقافى ، أو عمليات اعادة التفسير ، أو التغيرات التطورية ، والتعرف على الفروق القائمــة فى درجة القابلية للتغير فى المضمون المحدد للثقافة فى مقابل السمات البنائية أو النمطية ، والاتجاهات والقيم • ومن الممكن أن يؤدى المزيد من دراســة هذه الفروق الى اثراء فهمنا للتفاعل القائم بين عوامل التغير والثبات فى الثقافات المختلفة • وعلينا على أى حال أن نعتبر أن دراسات الفرد ودراسات الظواهر الاجتماعية والثقافية مكملة لبعضها والشىء الذى نشعر بأننا فى أمس الحاجــة اليه هو تطوير النظريات التى تربط بين عمليات التغــير فى السلوك الفردى والتغير فى الأنساق الثقافية والاجتماعية •

١١ ــ الخلاصــة :

يعتبر التغير ظاهرة ثقافية عامة ، على الرغم من أن معدلات التغير يمكن أن تتفاوت من ثقافة لأخرى • الا أن استمرار بعض عناصر التراث الثقافى تدل على أن الثبات يمثل سمة مميزة للثقافات بنفس القدر • ويعتبر فهم التفاعل بين هاتين الظاهرتين ذا أهمية أساسية للنظريات العامة فى

الثقافة • ويدلنا العرض التاريخى على أنه من الممكن تحديد الاتجاهات الرئيسية التالية فى النظريات المتصلة بالثبات والتغير •

١ ــ النظريات الأولى التى تقول بالتطور الخطى (أو الوحيد الخط)، كما يبدو ذلك فى أعمال تايلور ومورجان • وتحاول تلك النظريات وضع تعميمات عن سمات الثقافات المختلفة وتصنيفها فى مراحل حتمية ومحددة تحديدا صارما للنمو الثقافى • وقد أمكن تنفيذ تلك النظرية على نحو أو آخر ، لأنها لم تفلح فى أن تصنف بالقدر الكافى الظواهر الثقافية كما أوضحتها البحوث الامبيريقية التى جاءت فيما بعد •

٢ ــ أدى فشل النزعة التطورية بصورتها المعروفة فى القرن التاسع عشر الى اجراء بحوث امبيريقية مركزة ، كما أدى الى التأكيد على النسبية الثقافية ، والى الاهتمام بالطابع الفريد للاحداث التاريخية • وقد أكد الأنثروبولوجيون من أتباع هذا الاتجاه على الفروق القائمة بين الثقافات ، وأوضحوا أن النمو الثقافى فى مختلف أجزاء العالم متباين فى جوهره ، باستثناء تلك الحالات التى يؤدى فيها الاتصال بين الشعوب وما يتبع ذلك من استعارة ثقافية الى التقريب بين تلك الفروق • والملاحظ أن هذا الاتجاه فى صورته المتطرفة يجعل من المستحيل قيام علم مقارن للثقافة • وهناك اتجاهات أخرى متباينة تقوم على افتراض أساسى مؤداه أن الانسان كائن غير مخترع ، وأن معظم الثقافات قد صدرت عن أصل واحد أو عن مراكز قليلة فى ظل ظروف خاصة ، وانتشرت منها الى بقية أجزاء العالم • ويرى القائلون بتفرد الأحداث التاريخية من ناحية أخرى أن الاختراعات الجديدة أو اعادة تفسير العناصر المستعارة يعتبر سمة مميزة لكل الثقافات ، هذا على الرغم من أنهم يعتبرون الانتشار عملية ثقافية هامة •

٣ ــ أدى رد الفعل ازاء كل من النزعة التطورية والنسبية التاريخية الى ظهور الاتجاهات الآنية أو الوراثية الحيوية • وأخذ أصحاب هذا

الاتجاه يسعون الى الوصول الى قضايا عامة عن الثقافة والمجتمع من خلال تحليل الثقافات فى ضوء العلاقات الوظيفية الداخلية ، وعزل أوجه الشبه البنائية ، والربط بين الثقافة وبعض النقاط المرجعية الثابتة المشتقة من الثوابت البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . واتجه أتباع هذا الاتجاه فى صورته المتطرفة الى رفض العوامل التاريخية ، وتأكيد خاصية الثبات فى الثقافة ، والى الاعتماد على نماذج التوازن ، التى لا تسمح بالتغير الا بصعوبة .

٤ ــ وتركز الاتجاهات التتابعية على التغير وعلى عمليات التغير . وهناك اتجاه خاص يطلق عليه اسم التطور المتعدد الخطوط ، الذى يحاول تحديد المراحل الثابتة فى عملية النمو الثقافى دون افتراض أن هذه المراحل مراحل عامة يجب أن تجتازها جميع الثقافات . والسمة الأساسية فى الدراسات التتابعية المختلفة أنها تحاول التوصل الى تحديد تلك المراحل الثابتة أو تحاول تحديد الظروف الضرورية أو الكافية لاحداث تغيرات تالية .

وقد أشرنا الى بعض العوامل التى تؤدى الى حدوث التغير الثقافى ، بما فيه التغير البيئى ، ومنها : التجديدات سواء تمت عن طريق الاختراع أو الاستعارة (الانتشار) ، والتغيرات التطورية ، والأخطاء التى تتم أثناء عملية نقل الثقافة . فهناك اختلافات قائمة بين أولئك الذين يعتبرون التغير الثقافى ظاهرة فردية تماما ، وأولئك الذين يقولون بوجود علاقات دينامية داخل مختلف جوانب الثقافة والمجتمع . ولا شك أن كلا من هذين الرأيين مفيد ، وأننا فى حاجة الى نظريات تعمل على التوفيق بينهما .

قراءات مقترحـــة

Barnett, Hamer G. Innovation : The Basis of Cultural Change. New York : McGraw-Hill Book Company, 1953. — The nature of innovations and the character of the innovator are examined.

Bascom, William R., and Melville J. Herskovits (eds.). Continuity and Change in African Cultures. Chicago : University of Chicago Press, 1958. — A good series of papers on stability and change in Africa.

Boas, Franz. Race, Language and Culture. New York : The Macmillan Company, 1940. see «The Methods of Ethnology,» pp. 281 - 289; «Evolution or Diffusion,» pp. 290 - 294; «History and Science in Anthropology : A Reply,» pp. 305 - 311. — A good representation of early views on culture processes.

Childe, V. Gordon, Social Evolution. London and New York; H. Schuman, 1951. — A fairly classical evolutionary and somewhat Marxist view of social and cultural change.

Eggan, Fred. The American Indian : Prespectives for the study of Social Change. Chicago : Aldine Publishing Company, 1964. A thaughtful and important book, theoretically oriented case studies.

Herskovits; Melville J. «The Process of Cultural change,» The Science of Man in the World Crisis, ed. Ralph Linton. New York : Columbia University Press, 1945. pp. 143 - 170 — A general theoreticol Statement, still with more than historical interest.

Kroeber, A. L., et al. (eds.) Anthropology Today. Chicago : University of Chicago Press, 1953. see especially «Evaluation and Process,» by Jultan H. Steward; «Universal Categories of culture,» by Clyde Kluckhohn, «Social Structure,» by Claude Levi - Strauss. «The Relation of language to Culture,» by Harry Hoijer. Good reviews of the subjects as of the date published.

Lindon, Ralph. The Study of Man. New York : D. Appleton — Century Co., 1936. Chapters XVII - XXVI - The genesis of many new ideas appears here.

Lowie, Robert H. The History of Ethnological Theory. New York : Farrar and Rinehart, 1937. — With many faults, still the best general historical survey.

Malinowski, Bronislaw, A Scientific Theory of Culture and other Essays. Chapel Hill : University of North Carolina Press, 1944. — Summarizes Malinowski's theoretical position.

——. The Dynamics of Culture Change. New Haven : Yale University Press, 1945. — An effort to fit culture change into functionalist theory.

Mooney, James. The Ghost Dance Religion and Sious Outbreak of 1890, edited and abridged by Anthony F. C. Wallace. Chicago : University of Chicago Press, 1965. — The first major attempt to Study a nationalstic movement in detail.

Morgan, Lewis H., Ancient Society, New York : Henry Holt and G., 1877. — The classic early evolutionist statement.

Nadel, S. F. The Theory of Social Structure. New York : The Free Press, 1957. — Beyond functionalism; the exposition of structural analysis.

Radcliffe — Mrown, A. R. «Methods of Ethnology and Social Anthropology,» South African Journal of Science, XX (1923).

——. «The Present Position of Anthropological Studies,» Presidential Address, British Association for the Advancement of Science (1930). — Statements on the author's functionalist position.

Rice, Stuart A. (ed.). Methods in Social Science. Chicago : University of Chicago Press, 1931. Analysis 17 - 19 - 31. — Dated, but some of the articles are still good.

Rogers, Everett M., Diffusion of Innovations. New York : The Free 1962. — How innovations spread or became accepted.

Sahlins, Marshall D., and Elman R. Service. Evolution and Culture. Ann Arbor : The University of Michigan Press, 1960 — A neo evolutionist study.

Steward, Julion H., Theory of Culture Change. Urbana : University of Illinois Press, 1955.

— Contains author's views on multilinear evolution.

Tylor, Edward B. Primitive Culture. Boston : Estes and lauriat, 1874, Vol. I, Chapters I-IV.

— A foundation Stone of anthropology of historical interest.

White, Leslie, The Science of culture. New York : Farrar, Straus, and Young, 1949. — The leading neo-evolutionist expounds his views on energy and Society.

Wissler, Clark, Man and Culture, New York : Thomas Y. Growell Company, 1923. — Presents the diffusionist and culture area view points.

سلسلة علم الاجتماع المعاصر

صـــدر منهـــا :

الكتاب الأول :

ميادين علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعليـــاء شكرى ومحمود عودة ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعـــارف ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثانى :

نظرية علم الاجتماع : تأليف نيقولا تيماشيف ، ترجمة الدكاترة محمود عودة ومحمد الجوهرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث :

أساليب الاتصال والتغـــير الاجتمـــاعى : تأليف الدكتـــور محمود عوده ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

الكتاب الرابع :

تمهيد فى علم الاجتماع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، دار المعـــارف ، الطبعـــة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس :

مجتمع المصنع : دراسة فى علم اجتماع التنظيم : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الهيئة العامة للكتاب بالاسكندرية ، ١٩٧٢ .

الكتاب السادس :

الصفوة والمجتمع : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمـــد الجـــوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعـــة الثانيـــة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب السابع :

الطبقات فى المجتمع الحديث : تأليف بوتومور ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن :

علم الاجتماع الفرنسى المعاصر : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع :

قراءات معاصرة فى علم الاجتماع : للدكاترة علياء شكرى ومحمد على محمد ومحمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب العاشر :

دراسات فى التنمية الاجتماعية : تأليف الدكاترة السيد الحسينى ومحمد على محمد وعلياء شكرى ومحمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى عشر :

مشكلات أساسية فى النظرية الاجتماعية : تأليف جون ركس ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى ومحمد سعيد فرج ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .

الكتاب الثانى عشر :

التغيّر الاجتماعى : تأليف الدكتور محمد الجوهرى وآخرون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف .

الكتاب الثالث عشر :

دراسة علم الاجتماع : اختيار وترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى ومحمد على محمد والسيد الحسينى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع عشر :

علم الاجتماع الريفى والحضرى : للدكتور محمد الجوهرى والدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الاولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الخامس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع : تأليف الكس انكلز ، ترجمة وتقديم الدكاترة محمد الجوهرى وعلياء شكرى والسيد الحسينى ومحمد على محمد ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب السادس عشر :

مقدمة فى علم الاجتماع الصناعى : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب السابع عشر :

علم الفولكلور : الجزء الأول ، تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن عشر :

النظرية الاجتماعية ودراسة التنظيم : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب التاسع عشر :

مصادر دراسة الفولكلور العربى : اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ١٩٧٨ .

الكتاب العشرون :

الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية : اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

الكتاب الحادى والعشرون :

علم الاجتماع وقضايا التنمية فى العـــالم الثالث : تأليف الدكتور محمـــد الجوهرى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والعشرون :

علم الفولكلور ، الجزء الثانى ، دراسة المعتقدات الشعبية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والعشرون :

بعض ملامح التغير الاجتماعى الثقافى فى الوطن العربى ، دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية فى المملكة العربية السعودية . تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الرابع والعشرون :

التراث الشعبى المصرى فى المكتبة الأوربية : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب الخامس والعشرون :

الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الكتاب السادس والعشرون :

دراسات معاصرة فى علم الاجتماع : تأليف الدكتورة علياء شكرى ، دار المعارف ، القاهرة ، تحت الطبع .

الكتاب السابع والعشرون :

عادات الطعام فى الوطن العربى : تأليف الدكتورة عليـــاء شــــــكرى ، تحت الطبع .

الكتاب الثامن والعشرون :

الفلاحون والدولة : تاليف الدكتور محمود عودة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

الكتاب التاسع والعشرون :

تاريخ علم الاجتماع : الجزء الاول : تأليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الثلاثون :

علم الاجتماع والمنهج العلمى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

الكتاب الحادى والثلاثون :

أصول علم الاجتماع السياسى : تأليف الدكتور محمد على محمد ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثانى والثلاثون :

جماعات الغجر مع اشارة لغجر مصر والبلاد العربية : تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب الثالث والثلاثون :

الانثروبولوجيا : اسس نظرية وتطبيقات عملية : تأليف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٠ .

الكتاب الرابع والثلاثون :

علم الاجتماع السياسى : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والثلاثون :

علم الاجتماع العسكرى : التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة

العسكرية : تأليف الدكتور احمــد خضر ، الطبعة الأولى ، دار المعــارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

الكتاب السادس والثلاثون :

الفكر الاجتماعى : نظرة تاريخية عالمية ، تأليف هاينز موس ، ترجمــة الدكتور السيد الحسينى والدكتورة جهينة سلطان العيسى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والثلاثون :

التنمية والتخلف : دراسة تاريخية بنائية ، تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثامن والثلاثون :

المدينة : دراسة فى علم الاجتمــاع الحضرى ، تأليف الدكتور الســيد الحسينى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب التاسع والثلاثون :

النظرية الاجتماعية المعاصرة : دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، تأليف الدكتور على ليلة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

الكتاب الأربعون :

علم الاجتماع بين الاتجــاهات الكلاسيكية والنقدية ، تأليف الدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الحادى والأربعون :

البناء السياسى فى الريف المصرى : تحليل لجمــاعات الصــفوة القديمة والجديدة ، تأليف الدكتور أحمد زايد ، الطبعــة الاولى ، دار المعــارف . القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثانى والأربعون :

علم الاجتماع الأمريكى : دراسة لأعمال تالكوت بارســونز ، تأليف جى

روشيه ، ترجمة الدكتور محمد الجوهرى والدكتور احمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الثالث والأربعون :

البنائية الوظيفية فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا : المفاهيم والقضايا : تأليف الدكتور على ليلة ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الرابع والأربعون :

علم الاجتماع والنقد الاجتماعى : تأليف بوتومور . ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى والسيد الحسينى وعلى ليلة واحمد زايد ، الطبعة الأولى ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨١ .

الكتاب الخامس والأربعون :

الاقتصاد والمجتمع فى العالم الثالث : تحرير الن مونتجوى ، ترجمة الدكاترة محمد الجوهرى وعلى ليلة واحمد زايد ، دار المعارف ، تحت الطبع .

الكتاب السادس والأربعون :

وقت الفراغ فى المجتمع الحديث : تأليف الدكتور محمد على محمد ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨١ .

الكتاب السابع والأربعون :

علم الاجتماع : تاليف جونسون ، ترجمة وتعليق الدكاترة علياء شكرى ومحمد الجوهرى وعلى ليلة واحمد زايد وحسن الخولى . تحت الطبع .

الكتاب الثامن والاربعون :

الريف والمدينة فى مجتمعات العالم الثالث : مدخل اجتماعى ثقافى ، تاليف الدكتور حسن الخولى ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

الكتاب التاسع والأربعون :

المراة المصرية بين البيت والعمل : تاليف الدكتور محمـــد سلامة آدم ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

الكتاب الخمســـون :

النظرية الاجتماعية فى الفكر الاسلامى : تاليف الدكتورة زينب رضوان ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

الكتاب الحادى والخمسون :

نحو نظرية اجتماعية نقدية : تأليف الدكتور السيد الحسينى ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

الكتاب الثانى والخمسون :

التغير الاجتماعى . اختيار وترجمة : الدكاترة محمد الجوهرى وعليـاء شكرى وعلى ليله ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ .

الكتاب الثالث والخمسون :

النظرية الاجتماعية ودراسة الأسرة : تأليف الدكتورة سامية الخشاب ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

الكتاب الرابع والخمسون :

البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الفجر : دراسة انثروبولوجية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى تأليف الدكتور نبيل صبحى حنا ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

رقم الايداع ٤٢٣٨ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب